موازين الصوفية

في ضوء الكتاب والسنة

تأليف الشيخ
أبي عبد الرحمن علي المرتضى بن السيد محمد الوصيفي

تقديم الدكتور
سعد عبد الرحمن ندا

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
الإسكندرية
ت: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

العصرية للطباعة

اهداءات ٢٠٠٢
دار الايمان

موازين الصوفية

تأليف الشيخ
على بن السيد أحمد الوضيفى

تقديم الدكتور
سعد عبد الرحمن ندا

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ـ ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع ١٧٨٨٩ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى

977 - 331 - 112 - 0

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ ـ ٥٤٤٦٤٩٦

رسالة الدكتور / سعد عبد الرحمن ندا إلى المؤلف

من سعد عبد الرحمن ندا إلى الابن الفاضل الشيخ

علي بن السيد الوصيفي [حفظه الله ورعاه وأدام توفيقه]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وبعد :

فأحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وأصلى وأسلم على عبده الكريم ورسوله الأمين محمد وعلى آله وصحبه .

وقد اطلعت على ما وفقكم الله لكتابه فى مؤلفكم **[موازين الصوفية]** فانشرح صدرى ، وامتلأ قلبى غبطةً وسروراً حين رأيت فى كتابكم الجزالة فى التعبير ، والأصالة فى التحرير ، والرجوع إلى أمهات كتب الصوفية التى يتخذونها سنداً لهم ، وتُكأةً يتكئون عليها فى نشر معتقداتهم الفاسدة ، والاهتمام بعزو كل اقتباس إلى موضعه حتى تقوم عليهم الحجة ، وينقطع عليهم كل سبيل .

وقد زاد سرورى كثيراً ما وضحتم من حقائق الصوفية الأثيمة التى خُدِعَ بها معظم المسلمين فى بقاع الأرض ، فأضلَّتْ غالبيتهم ، وشوهت عقيدتهم ، وفرقت جمعهم ، فصدق على هؤلاء المضلين قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** (١٥٩) ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير فى كتابه تفسير القرآن العظيم – الجزء الثانى ص ١٩٦ فى تفسير هذه الآية :

إنها عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ أى فرقاً كأهل الملل والنحل ، والأهواء والضلالات ، فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه .

وذكر الإمام الشوكانى فى كتاب فتح القدير – الجزء الثانى ص (١٨٣) فى تفسير هذه الآية :

أنها عامة فى جميع الكفار ، وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله –وقال إن هذا هو الصواب – لأن اللفظ يفيد العموم ، فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب وطوائف المشركين ، وغيرهم ممن ابتدع من أهل الإسلام .

وذكر الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى فى كتابه تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان الجزء الثانى (ص ٢٣٦) فى تفسير هذه الآية :

دلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والإئتلاف ، وينهى عن التفرق والاختلاف فى أهل الدين وفى سائر مسائله الأصولية والفروعية ، وأمر رسوله ﷺ أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم ، فقال تعالى : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أى لست منهم وليسوا منك ، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى يردون إليه سبحانه فيجازيهم بأعمالهم .

وقد فتح الصوفية أمام أغلبية المسلمين أبواب شر خطير ، وأعظم هذا الشر أنهم استهانوا بالتوحيد ، وهدموا أركانه ، وأوقعوا جُلَّ المسلمين فى أعمال شركية مدمرة ، مصير أصحابها – إن لم يتوبوا ويوحدوا الله قبل موتهم – النار خالدين فيها والعياذ بالله .

ذلك بأن التوحيد هو قضية القمة ، وهو مفتاح الإسلام ، فمن أراد أن

يدخل الإسلام ، لابد أن يدخل من باب التوحيد ، ولو أنه دخل من باب آخر، لدخل ديناً غير دين الإسلام . والله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾[آل عمران : ٨٥] .

وقد نتج عن ضلالات الصوفية أن فسدت عقول السواد الأعظم من الدعاة والوعاظ والناصحين من المسلمين فتجنبوا بدء دعوتهم بتوحيد الله عز وجل ، بحجة أن الكلام فى التوحيد يفرق الأمة ، ويقضى على وحدتها .

ومن ثم انطلق الدعاة المخدوعون يدعون الناس بادئين بالوعظ والإرشاد برقائق الأعمال ، وبعدوا تماماً عن الكلام فى التوحيد ، وهو الأساس الذى تصح به الأعمال وتقبل عند الله .

وعجيب أمر هؤلاء أن يزعموا أن المجالس التى يبين فيها التوحيد وفضائله ومنجياته ، ويوضّح فيها الشرك ومخاطره ومهلكاته مجالس خاوية من المدعوين ، لأنهم ينفرون من هذا النوع من البيان .

وعلى هذا نسائلهم: هل رسول الله ﷺ حين شرح التوحيد للناس ، ودعاهم لاعتناقه ، وحذرهم من الشرك ومساوئه ، هل هو بهذا فرق الأمة ، وشتت شملها ، وقضى على جمعها ؟ كلا والله ، إنه ﷺ جمعهم بعد شتات ، ووحدهم بعد تفرق ، حتى وصفهم الله تعالى بقوله :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ثم إنهم جهلوا ما قاله الله تعالى فى القرآن الكريم إذ قال :

١ - ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] ، فالله تعالى نبه على أن أول أمر يتعلمه الإنسان هو العلم بالتوحيد لله رب العالمين .

٢ – ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء : ٢٥] فجميع الرسل أمرهم الله تعالى أن يبدأوا دعوتهم بتوحيدا لله عز وجل .

٣ – أن الله تعالى قبل أن يطلب من الناس أن يشهدوا له بالتوحيد ، شهد هو سبحانه وتعالى لنفسه بالتوحيد ، وكذلك الملائكة وأولو العلم ، فقال عز وجل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران : ١٨] .

٤ – كما قال تعالى : ﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

٥ – وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) ﴾ [الصافات : ٤] .

٦ – وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص آية ١] .

٧ – كما أرسل جميع الرسل ليبدأوا دعوتهم بتوحيد الله تعالى ، وذكر بعضاً منهم في الآيات الآتية :

أ – ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

ب – ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

جـ – ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

د - ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

هـ - وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأعراف : ١٤٠] .

و - وقال تعالى على لسان نبيه عيسى عليه السلام : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم : ٣٦] .

٨ - وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [العنكبوت : ١٦].

٩ - وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة : ١٣٠] .

١٠ - وقال تعالى مخاطباً رسولنا محمداً ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر : ٦٥ ، ٦٦] .

١١ - ثم قال تعالى مخاطباً رسولنا محمد ﷺ : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ

اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل : ١٣٣] .

١٢ – وقال تعالى مخاطباً رسولنا محمد ﷺ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

ثم إن أولئك الدعاة المخدوعين جهلوا ما كان من حال رسولنا محمد ﷺ وقوله فساروا وراء الأوهام والبدع ، فضلوا وأضلوا ، أدعهم إلى أن ينظروا :

أ – إلى رسولنا الكريم ﷺ حين بدأ دعوته للناس فى مكة قال لهم : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، كلمة تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » .

ب – وحين أرسل رسولنا الكريم ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وفى رواية إلى أن يوحدوا الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلواتٍ فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب « أخرجه البخارى ومسلم » .

جـ – ويوم خيبر قال رسولنا الكريم ﷺ « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ، ويحبُّه اللهُ ورسولهُ ، يفتح الله على يديه ، فبات الناس يدوكون – يخوضون – ليلتهم أيهم يُعْطَاهَا ، فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ

كلهم يرجو أن يُعْطَاهَا ، فقال : أين عليّ بن أبى طالب ؟ فقيل : هو يشتكى عينيه ، فأرسلوا إليه ، فأُتىَ به ، فبَصَقَ فى عينيه ، ودعا له - فبرأ كأن لم يكن به وَجَع - فأعطاه الراية ، فقال : انفذ على رِسْلِكَ حتى تنزل بِسَاحتِهِم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النعم » (أخرجاه أيضاً) .

من جميع ما سبق يتبين أن الدعوة لا تبدأ إلا بالتوحيد فهو أول واجب على الداعية .

د - وأضيف واقعة أخرى : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل ، فقال له : يا عم قل : لا إله إلا الله ، كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله ، فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وأَبَى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال النبى ﷺ : « لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ - فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وأنزل فى أبى طالب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ [القصص : ٥٦] .

نسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا على عقيدة التوحيد ، ويجعلها لحياتنا خير ختام .

ولى فى الختام رجاء للأخ العزيز الشيخ عليّ الوصيفى ، أن يوجه نصيحة إلى جميع دعاة المسلمين فى بقاع المعمورة - فالإسلام الآن كاد يعم الأرض بفضل الله - تضمنها أمراً هاماً جداً ، وهو أن يبدأوا دعوتهم كما بدأها رسول الله ﷺ ، وكما بدأها المرسلون من قبله بدعوة الناس إلى توحيد الله عز وجل ،

فهو أصل الأصول ولا تصح الأعمال ولا تُقْبلُ عند الله إلا إذا بُنِيَتْ عليه .

وقد آثرتُ الاكتفاء بما ذكرت خشية الإطالة والملل ، وتركت ذكر آيات كثيرة ، وأحاديث عديدة صحيحة ، تثبت أن بداية الدعوة لا تكون إلا بالتوحيد ، حتى يكون إن شاء الله هو ختام أعمال المسلم إن شاء الله ، وفقنا الله وإياكم إلى ذلك .

وأختم كلمتي بأن أضرع إلى الله تعالى أن يشكر لكم جهدكم ، ويبارك فيكم ، وفي قلمكم ، وفي لسانكم ، ويجعله دائماً لسان صدق يرضى به عنكم ، ويجعله إثقالاً لميزان حسناتكم ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

كما أضرع إليه سبحانه أن يطيل عمركم ، ويزيد في إحسان عملكم . إنه على ذلك قدير ، وبإجابة ضراعتي جدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله وسلم على خير خلقه وإمام رسله وخاتمهم تسليماً كثيراً .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محبكم د / سعد عبد الرحمن ندا

أستاذ العقيدة الإسلامية

بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية « سابقاً »

٢٠ من المحرم ١٤٢١هـ

مقدمة الدكتور / سعد عبد الرحمن ندا - حفظه الله :

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

أما بعد :

فـإن الله عز وجل قد اختار خير خلقه محمداً ﷺ لخير رسالة على خير أمة ، فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[الأنعام ١٢٤] ، وقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران : ١١٠] ، وأنزل لها عليه خير وحيه قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

فمن أراد أن يكون من هذه الأمة الخَيِّرة ، فليلتزم بمنهج الهدى الذى أنزله الله تعالى وشهد به هو وملائكته فقال سبحانه : ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) ﴾ [الأنعام : ١٦٦] - وذلك حتى يسعد وينعم دنيا وأخرى - ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه : ١٢٣] .

ومن لم يرد أن يكون من هذه الأمة الخَيِّرة ، فليبحث عن أمة أخرى ينضم إليها كى يضل بها ويشقى دنيا وأخرى - ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٧] .

وقد قيض الله تعالى لرسوله محمد ﷺ خير صحابة ، التزموا منهج الهدى (كتاباً وسنةً) الذى التزمه ﷺ وساروا على دربه ، وعضُّوا عليه بالنواجذ لم يحيدوا عنه قيد شعرة ، وبذلوا النفس والنفيس حتى نشروا - بفضل الله - دين الإسلام فى بقاع الأرض .

ثم مرَّ الوقت ، واختلط المسلمون بغيرهم فى البلاد التى فُتحت بمختلف أنحاء العالم - من الفرس والروم واليونان والهنود والترك وغيرهم - وبدءوا يتلقفون الجديد مما عرف الجاحدون الفلاسفة ، والمتنطعون ، والمارقون ، وبدأ يتسرب الوهن إلى قلوب المسلمين ، وأخذ دينهم يضعف بقبض العلماء فيهم ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً بنزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبق عالماً ، اتخذ الناس رؤساء جهالاً فَسُئِلوا فأفْتَوْا بغير علم ،**

فضلوا وأضلوا » أخرجه البخارى .

وبالفعل لما قُبِضَ العلماء ، وقبض معهم علمهم ، لم يجد الناس سوى علماء جهال ، أفتوا بغير علم على ما يسألون ، فضلُّوا فى فتاواهم ، وأضلوا جموع المستفتين .

ثم مرَّ الوقت ، وظهرت طائفة مارقة ، اخترعت ديناً جديداً سمَّوه التصوف – لا صلة له بالإسلام – بل نفَّروا من كلمة [الإسلام] و [المسلمين] ، وكرهوا أن يُطلق عليهم ما اختاره الله تعالى لأحبائه المسلمين الذين اعتنقوا [الإسلام] ، واعتزوا به ، وافتخروا بوسَامه على صدورهم ، وحرصوا عليه ، ودافعوا عنه بكل ما يملكون ، ويكفيهم أعظم الفخر أن الله عز وجل يقول لهم : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] .

ويقول تعالى : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران : ١٩] .

ويقول جل وعلا : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٨٥) ﴾[آل عمران: ٨٥] .

فنلاحظ فى هذه الآيات أن الله تعالى لم يقل : ورضيت لكم التصوف دينا ، ولم يقل : « إن الدين عند الله التصوف » ، ولم يقل : « ومن يبتغِ غير التصوف ديناً فلن يُقبل منه » .

إن التصوف كلمة بغيضة فى شكلها ومضمونها – فالحمد لله الذى عافانا مما ابتلَى به المتصوفين– ويقول تعالى: ﴿ **هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا** ﴾ [الحج : ٧٨] .

ويقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ**

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت : ٣٢] .

فنحن نلاحظ أن الله تعالى لم يقل « هو سماكم المتصوفين » .

كما نلاحظ أن الله تعالى لم يقل « ولا تموتن إلا وأنتم متصوفون » .

كما نلاحظ أن الله تعالى لم يقل « وقال إننى من المتصوفين » .

فلم يرد فى القرآن الكريم آية واحدة بكلمات « التصوف أو المتصوفين أو متصوفين ، فضلاً عن أن التصوف قد ضم مريدين له من عديمى الشخصية الذين سال لعابهم عندما عُرض عليهم منهج التصوف المنحرف الذى أغراهم بأنهم إذا التزموا مُعتقدَ شيوخ الضُلاَّل ونفذوا عبادتهم وأذكارهم المخترعة المبتدعة ، فإنهم يصلون إلى درجة يُكشف لهم فيها الغيب ، فيطلعون على اللوح المحفوظ ، فيقرءون فيه ما كان وما سيكون ، بل ويبلغون – إذا استمروا فى طريقهم – إلى أن تسقط عنهم جميع التكاليف الشرعية ، بل ويصلون إلى درجة يرون الله جل جلاله رأى العين .

وكذبوا فى كل ما يزعمون ، فإن موسى – رسول الله ﷺ – سأل ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

إن التصوف يُبعدُ المسلمين عن قراءة القرآن الكريم ،والسُّنَّة النبوية المشرفة ، ويستبدل بهما أوراداً وشعوذات لشيوخهم المبتدعين ، بل يفضِّل أذكار شيوخ الضلال على الكتاب والسُّنة .

كما أن السُّنة المطهرة لم يرد فيها حديث واحد يذكر كلمة التصوف أو

المتصوفين أو متصوفين ، أو مشتقات هذه الكلمات البغيضة ، بل ذكر الإسلام والمسلم والمسلمين ، ومشتقات هذه الكلمات الحبيبة إلى القلوب ، ومن أمثلة الأحاديث التى ذكرنا ما يأتى :

● يقول الرسول ﷺ : « **ما من رجل مسلم ، يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه** » . فلم يقل الرسول ﷺ : « ما من رجل متصوف » .

● ويقول ﷺ : « **حق المسلم على المسلم خمس** : **رد السلام** ، **وعيادة المريض، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس**» [متفق عليه] ، فلم يقل الرسول ﷺ : « حق المتصوف على المتصوف » .

● ويقول ﷺ : « **إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل فى خُرفَةِ الجنة حتى يرجعِ** ، قيل يارسول الله وما خرفة الجنة ؟ **قال جنَاهَا** » [رواه مسلم] . جنَاهَا : ما يجنى من الثمر .

فلم يقل الرسول ﷺ : « إن المتصوف إذا عاد أخاه المتصوف » .

● ويقول ﷺ : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** » [متفق عليه] ، فلم يقل الرسول ﷺ : « المتصوف من سلم المتصوفون من لسانه ويده » .

● ويقول ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى هاهنا بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، فلم يقل الرسول ﷺ فى هذا الحديث كلمة « المتصوف » بدل « المسلم » .

● ويقول ﷺ : « **لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا** ،

ولا يبع بعضكم على بيع بعض، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يحقره ، ولا يخذله ، التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه ومالُه وعرضه » [رواه مسلم] .

فلم يذكر الرسول ﷺ فى أى حديث كلمة « التصوف » أو مشتقاتها إطلاقاً ، كما لم يذكر القرآن الكريم ذلك ، فمن أين أتت هذه الشرذمة بتسمية التصوف أو الصفوية أو المتصوفة ؟ ، ولماذا كرهوا كلمة « الإسلام » ومشتقاتها ونبذوها ؟!! ، جزاهم الله بما اقترفوا من إثم هذا الابتداع والتقليد للضالين المضلين !!! .

والثابت أن أعظم العبادات فى الإسلام هى تلاوة القرآن الكريم ثم السُّنة المطهرة .

والمتصوف يستشهد بالأحاديث الموضوعة كذباً على رسول الله ﷺ ، كما يستشهد بالأحاديث الضعيفة التى لم يثبت صدورها عن رسول الله ﷺ ، ولذلك فإن المتصوف لا يميل إلى البحث عن الأحاديث الصحيحة تماماً لأنها تكشف زيفهم وخبثهم وضلالهم ، لذلك فالسُنة الصحيحة تبين عدم سلامة سلوك المتصوفة وعدم صحة معتقداتهم .

ولأن الطرق الصوفية قد تعددت حتى ملأت طباق الأرض ، فانخدع بها المسلمون فى كثير من البلاد الإسلامية ، ولو أنهم أعملوا أفكارهم لعرفوا أن تعدد هذه الطرق دليل على فسادها وبطلانها لأن دين الإسلام طريق واحد .

يقول تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٥٣) ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

ومن الأحاديث التى تبين عظمة القرآن الكريم وجزاء تاليه ، والبيت الذى

يُتلى فيه ما يأتى :

[١] يقول رسول الله ﷺ : « **اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه** » [رواه مسلم] .

[٢] يقول رسول الله ﷺ : « **خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه** » [رواه البخارى] .

[٣] يقول رسول الله ﷺ : « **يُؤْتَى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران تُحَاجَّان عن صاحبهما** » [رواه مسلم] .

[٤] يقول رسول الله ﷺ : « **الذى يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السَفَرةِ الكرامِ البَرَرَةِ ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجرانِ** » [متفق عليه] .

[٥] يقول رسول الله ﷺ : « **من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وميمٌ حرف** » [رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح] .

[٦] يقول رسول الله ﷺ : « **إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخَرِب** » [رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح] .

ولو أننا بحثنا فى صفحات كتب السُّنة المطهرة ، لوجدنا عديداً من الأحاديث الصحيحة تثبت بركة القرآن الكريم وكرامته وروعته .

[٧] ويقول رسول الله ﷺ : « **لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة** » [رواه مسلم] .

[٨] ويقول رسول الله ﷺ : « **ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يَتْلُون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم**

الرحمة ، وحفَّتْهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » [رواه مسلم] .

كما أن التصوف قد صَدَّ الناس عن سُنة رسول الله ﷺ لأنها تكشف زيفهم وكذبهم ، وتشويههم لدين الله ، واستبدالهم بالسُنة خرافات وشعوذات من نصّبوهم لَهم شيوخاً ، وهم أئمة ضلال ومراوغة ، وغموض ومداهنة .

إن السُنة النبوية المشرفة – مثل القرآن – قد كشفت كذب الصوفية وعدم انتمائهم للإسلام ، إذ أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتاب والسُنة وصرفوا المسلمين عنه ، فأحبط الله أعمالهم ، كذلك أوقعوا المسلمين في كثير من البدع ، فجرّهم ذلك إلى الشرك ، والشرك مبطل للعمل ، لقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام ٨٨] .

والشرك لا يغفره الله أبداً إذا مات العبد ولم يتب منه لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)** ﴾ [النساء : ٤٨] .

وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦)** ﴾ [النساء : ١١٦] .

لأن الله تعالى وصف المشركين بالنجاسة فقال سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ﴾ [التوبة : ٢٨] .

ولأن الله تعالى صوّر المشرك بصورة مفزعة فقال سبحانه : ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)** ﴾ [الحج : ٣١] .

ولأن الله تعالى جعل المشركين أسوأ الخلق مع الكافرين في نار جهنم خالدين فيها ، فقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦)** ﴾ [البينة : ٦] .

محاولات أهل السُنة فى إصلاح معتقدات الصوفية :

وقد حاول أهل السُنة محاولات متعددة ، ليصلحوا ما اعتنقه الصوفية من معتقدات فاسدة ، التى منها أن التوحيد عندهم هو توحيد العامة والخاصة ، وتوحيد خاصة الخاصة ، ثم أعظم درجات التوحيد عندهم الفناء فى ذات الله ، ويعتبرون الجنون درجة من درجات الوصول .

كما أن أخطر ما عندهم مذاهب الاتحاد والحلول ، ووحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية ، فالرب عندهم يتحد فى العبد ، والعبد يتحد فى الرب ، والرب عندهم عبد ، والعبد عندهم رب ، وغير ذلك الكثير من البلاء والمصائب تملأ قلوبهم وكتبهم ودورهم وأهليهم ، والأولياء عندهم محفوظون ، والأنبياء عندهم معصومون ، والولاية أعظم من النبوة ، والأنبياء عندهم أدنى من الأولياء - الله عندهم يَعْشَقُ ويُعْشَقُ - تعالى الله - ، وزعموا - كذباً وافتراءً - أن رسول الله ﷺ دعا إلى عبادة القبور فقال « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور » ، وهذا كذب حقير ، وافتراء على رسول الله ﷺ الذى نشر التوحيد وحمى حماه إلى يوم الدين ؟ .

وماذا ننتظر أن يقول من تربّوا على أعتاب المشاهد وتحت قبابها حتى ملأ الشرك والضلال قلوبهم وبيوتهم ، من جحدوا الله كفراناً ؟ ، وجحدوا رسله وكتبه نكراناً واستكباراً ؟ ، من نسبوا لله ما يتنزه عنه سبحانه ؟ ومن نسبوا لرسوله ﷺ ما لا يستحق ؟ من انحطت نفوسهم فذلوا للحجر والشجر وهم يعلمون أنه لا نفع فيه ولا ضرر ؟ من أشركوا مع الرب سبحانه من لا يملك ذرة وهم مملوكون ؟ .

إن الله قيض فى كل العصور من السلف الصالح من يُخْرِس هؤلاء النبّاحين، ويدخلهم جحورهم مع مَنْ على شاكلتهم من الحشرات فيداسون بالأقدام .

وفى عصرنا هذا قيض الله تعالى أخاً سلفياً لنا هو الأخ الشيخ / عليّ الوصيفى ، ليضرب على رءوس أولئك الأفَّاكين ويكدسهم فى مخابئهم ، فيأكل بعضهم بعضاً ، ويقتى بعضهم بعضاً ، ويبددون إلى غير رجعة .

إن الأخ الشيخ / عليّ له عدة مؤلفات عديدة ، اجتمعت فيها جميعها دعوتُه دعوةً صارخةً إلى عقيدة التوحيد على منهج السلف الصالح ، ومحاربته حرباً لا هوادة فيها لأولئك الفاسقين الخارجين على أمر الله ، والناشرين للبدع بأنواعها ، فأفسدوا الحياة ، وخربوا الديار ، وهو فى دعوته صادق ، مخلص ، صريح ، لا يداهن ولا يمارى – نحسبه كذلك والله حسيبه – ، ولا نزكى على الله أحداً .

إن الكتاب الذى ألفه الأخ الشيخ / عليّ الوصيفى – بفضل الله وتوفيقه – وعنونه بعنوان [**موازين الصوفية فى ضوء الكتاب والسُّنَّة**] قد ضمنه خمسة أبواب بعد التقديم :

[١] تعريف التصوف واشتقاقه .

[٢] مصادر التصوف ووسائله .

[٣] مقاصد التصوف .

[٤] بدع التصوف .

[٥] جدال المتصوفة ، ثم ختام .

وفى هذا الكتاب كشف المؤلف ألاعيب المتصوفة ، وبين أسرارهم من واقع كتبهم ، وأوضح الفساد الخطير الذى حشوا به ديننا الحنيف ، والبدع المدمرة التى ملئوا بها مؤلفاتهم دون أن يأبهوا بقول رسولنا الكريم ﷺ : « **من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » [متفق عليه] .

وجعلوا موازينهم دجل شيوخهم وخرافاتهم ، فقام المؤلف حاملاً معوله

على رءوس هذه الموازين فحطَّمها حتى جعلها جذاذاً ، وأعلن فى جرأة أن ميزان أى شيء لا يكون إلا [بميزان الكتاب والسُّنة] ، ووضح أن الأسرار والألغاز ، والإشارات ، والرموز التى يقوم عليها دين المتصوفة ، ليعلنوا للناس أنهم يعلمون مالا يعلمون ، ويفقهون ما لا يفقهون ، ماهى إلا كذب وافتراء ، وهراء ، لا يصلح ديناً ولا دنيا ، وسيتحملون إثم ما صنعوا ، ووزر ما ابتدعوا ، بين يدى الله يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن ما آمنت من قبل ، وسيندمون على ما قدموا من سوء ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وأسأل الله جل وعلا أن يجزى الأخ الشيخ / عليّ الوصيفى خير ما يجزى به المخلصين الصادقين ، وأن يجعل ما يؤلفه نشراً لدين الحق القائم على عقيدة التوحيد الخالصة إثقالاً لميزان حسناته ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وأضرع إليك اللهم يا مقلب القلوب أن تثبت قلوبنا على دينك ، وتصرفها على طاعتك ، وتختم لنا بعقيدة التوحيد ختام الإيمان ، وصلِّ اللهم وسلِّم على عبدك الكريم ، ورسولك الأمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

د / سعد عبد الرحمن ندا
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

مقدمة المؤلف :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

ثم أما بعد :

فإن أربعة أحداث وقعت فى التاريخ لم يمر عليها حينٌ من الدهر حتى بيَّن الله تعالى فيها حكمه ، وأنزل فيها شرعه ، وفيها كلها قد أتم البيان من قبل ، بما أُخذَ على بنى آدم والأنبياء من العهود والمواثيق أن يعبدوه وحده لا شريك له .

الحادثة الأولى : ما كان من قوم نوح عليه السلام من عبادتهم الصالحين ، وذلك بعد مضى عشرة قرون على التوحيد من لدن آدم عليه السلام حتى بعث الله

تعالى إليهم نوحاً عليه السلام ليردهم إلى عقيدة التوحيد الصافية ، ويصحح لهم ما وقعوا فيه من الشرك والضلال .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

الحادثة الثانية : ما كان من شأن الفتية الذين فروا بدينهم من قريتهم الظالمة ، حتى آواهم المبيت إلى كهف ضيق فناموا فيه ثلاثمائة سنة وازدادوا عليها تسعا ، فلما ضرب الله تعالى على آذانهم وأيقظهم بعد هذا الرقاد الطويل، وعلم أهل القرية بأمرهم وعادوهم فى كهفهم ، فوجدوهم قد ماتوا جميعاً ؛ حدث نزاع بين العلماء والأمراء فى شأنهم ، فنادى العلماء بإغلاق الكهف عليهم ، ونادى الأمراء ببناء مسجد عليهم ، فغلبت كلمة الأمراء على العلماء وبنوا عليهم مسجداً ، قال تعالى : ﴿ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾ [الكهف : ٢١] فصار ذلك شبهة للضعفاء .

فجاء النبى محمد ﷺ بعد ذلك بعدة قرون ؛ ليصحح هذا الأمر ويرد الحق إلى نصابه فقال : « **ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إنى أنهاكم عن ذلك** » [رواه مسلم فى كتاب المساجد ٥٣٢] .

الحادثة الثالثة : كان العرب على دين إبراهيم عليه السلام وكان عمرو بن لحى أول من غير دين الأنبياء وسن النسىء وهو أول من غير دين إبراهيم وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامى ، وعند البخارى فى كتاب التفسير ٤٣٤٨ من رواية عائشة رضى الله عنها قالت : « **قال رسول الله ﷺ رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب** » [الحديث متفق عليه] .

فوقع فى ضلالين لا ضلال بعدهما الأول : أنه دعاهم إلى الشرك ، الثانى : أنه حرم ما أحل الله من تلقاء نفسه والتحليل والتحريم لا يكون إلا بالوحى والتنزيل .

قال الألوسي في (روح المعاني ١٩٧/٧) : قال ابن هشام حدثنى بعض أهل العلم أن عَمْراً بنَ لُحي وهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام خرج من مكة إلى الشام فى بعض أسفاره فلما قدم أرض البلقاء وبها يومئذ العمالقة أولاد عملاق ويقال عمليق بن لاود بن سام بن نوح عليه السلام رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه التى أراكم تعبدون ؟ فقالوا : هذه الأصنام نعبدها ونستمطر بها فتمطرنا ونستنصر بها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطونى منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبل .

فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وقال ابن اسحق : يزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل عليه السلام وذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى خلفهم الخلف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - غيره فعبدوا الأوثان فصاروا على ما كانت الأمم قبلهم من الضلالات . انتهى .

وهذا هو مبدأ شرك قوم نوح وقد بُعث النبى ﷺ ليرد الناس إلى دين إبراهيم عليه السلام كما بُعث نوح ليرد الناس إلى التوحيد الذى كانوا عليه فى زمن آدم عليه السلام فحاربهم واستحل أموالهم وأعراضهم ودماءهم ليرجعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

الحادثة الرابعة : ما كان من إدخال حجرات النبى ﷺ مسجده الشريف وكان ذلك فى زمن الوليد بن عبد الملك ، وقد أنكر ذلك سعيد بن

المسيب رضي الله عنه ؛ وذلك لأن التوسعة كانت من الناحية الشرقية مما يجعل حجرات النبى ﷺ داخل المسجد .

فكانت هذه شبهة يحتج بها أهل الأهواء على جواز بناء القبور فى المساجد ، والمساجد على القبور، وهذا ضلال من عدة جوانب بينها النبى ﷺ ، وصار على بيانها خلفاؤه من بعده مما لا يجعل مجالاً للاعتذار بها بعد ذلك .

وهذه الحادثة الأخيرة حظيت بالتحذير والبيان من النبى ﷺ ، وقد استجاب الله تعالى لنبيه ﷺ فيما دعا ربه فيه .

[١] أن النبى ﷺ دُفن فى بيته حيث مات ، ولم يُدْفن فى مسجده .

[٢] أن بيته ﷺ أحيط بثلاثة جدران ، فلا يستطيع أحد أن يتمكن من الصلاة فيه ، ولا قراءة القرآن فيه ، ولا حتى السلام على النبى ﷺ من داخله ، ولم تكن عائشة رضى الله عنها تمكن أحداً من الدخول إلى قبره للصلاة فيه .

[٣] أن النبى ﷺ دعا ربه تعالى ذكره ألا يجعل قبره من بعده وثناً يعبد ، لما رواه مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « **اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » (رواه مالك فى الموطأ كتاب النداء ٤١٦ عن عطاء ابن يسار ، ورواه أحمد فى المسند عن أبى هريرة ٧٣١١) .

ونهى أن يتخذ قبره عيداً ، وقال لأصحابه – رضوان الله عليهم – : « **لا تجعلوا قبرى عيداً وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كُنتم** » (رواه أبو داود فى المناسك ٢٠٤٢ وابن ماجة فى إقامة الصلاة ١٣٧٧ وأحمد فى المسند ٨٥٨٦) .

فاستجاب الله تعالى له ، وأحيط بثلاثة من الجدران ، فلم يتمكن أحد من الدخول فيه بعد ذلك ، قال ابن القيم فى النونية ٣٥٢/٢ :

ولقد نهى ذا الخلق عن إطرائه فعل النصارى عابدى الصلبان

ولقد نهانا أن نصيّر قبره عيداً حذر الشرك بالرحمن

ودعا ألا يجعل القبر الذى قد ضمه وثناً من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه فى عزة وحماية وصيان .

[٤] أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أنكر على الوليد بن عبد الملك إدخال الحجرات داخل المسجد ، وأنكر ذلك أيضاً الإمام محمد بن شهاب الزهرى، وقال لعمر بن عبد العزيز - وكان فى ذلك الوقت على غير تقوى - : إن ذلك لا يرضى أهل المدينة فأبى . فهذا هو موقف أهل العلم ، أما الوليد فلم يفعل ذلك ديانة ، وإنما فعل ذلك علواً وفساداً ، وغيظاً لأهل البيت فقد كان يبغضهم بغضاً شديداً وقيل أنه أصدر أمره هذا بعد أن رأى الحسين بن الحسن سبط النبى ﷺ ينظر فى مرآة فى بيت فاطمة ، بينما كان هو يخطب على المنبر فأغاظه ذلك فأمر عامله عمر بهدم الحجرات ، فبكى لذلك أهل المدينة بكاءً شديداً ؛ بسبب هذا الهجوم على حجرات نساء النبى ﷺ .

ومن الواجب أن يتضح هذا الأمر بين يدى مقدمة هذا الكتاب لتزول سريعاً تلك الشبهات التى يطرحها الصوفية وغيرهم من عباد القبور ، والتى يجعلونها معبراً إلى الشرك والضلال ، وسبيلاً إلى إغواء العامة والسذج ، الذين لا يتفطنون إلى مثل هذه الحجج ؛ بسبب ما يرون من الأذواق ، وما يفتنهم من

الكرامات والمكاشفات ، والقصص والمنامات التى يتشدق بها الصوفية ليل نهار ؛ فيغتر بها هؤلاء مما يوقعهم فى الشرك والعياذ بالله تعالى .

وقد اتضح من ذلك عدة أمور :

الأول : أن أول شرك فى العالم كان بسبب الغلو فى الصالحين .

الثانى : أن الله تعالى أرسل الرسل من أجل إبطال هذا الشرك .

الثالث : أن العلماء أنكروا ذلك الشرك المتمثل فى الغلو فى الصالحين ، وما تبعه من بناء المقابر فى المساجد .

الرابع : أن الذين غلبوا بالأمر والسلطان هم الذين أقاموا المساجد على المقابر ، وقد انتشر ذلك فى الأمم من قبلنا عن طريق اليهود والنصارى ، وفى أمتنا عن طريق القرامطة والجهمية والشيعة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : ولم يكن فى العصور المفضلة مشاهد على القبور ، وإنما ظهر ذلك وكثر فى دولة بنى بويه ، لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب وكان بها زنادقة كفار ، مقصودهم تبديل دين الإسلام ، وكان فى بنى بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك ، ومن بدع الجهمية والمعتزلة والرافضة ما هو معروف لأهل العلم فبنوا المشاهد المكذوبة ، كمشهد عليّ رضي الله عنه وأمثاله . (الفتاوى ٢٧/١٦٧) .

ولم يكن انحراف غلاة الصوفية منحصراً فى هذا النوع من الشرك وفقط ، بل هناك أنواع أخرى من الانحراف ملأت جنبات التصوف ، وذلك نتيجة لاتساع مصادره ، وتعدد وسائله ، وقد تمثل ذلك فى اتخاذ أنواع مختلفة من الأذكار ما أنزل الله بها من سلطان ، فيها المبهم المجهول ، وفيها التنطع الممقوت ، وفيها المشتبه الذى يحمل المعانى المتضاربه .

وقد حمل التصوف مجموعة من الإشارات والمعانى الباطنة ، التى إن أُوِّلَتْ على ظاهرها كانت الغاية فى الضلال ، وإن أُوِّلَتْ على مقاصدهم كانت هى الكفر بعينه ؛ وقد كان ذلك بسبب نشأة كثير من الصوفية فى أوساط الفرس والقرامطة والباطنية ؛ [فأخذوا منهم ومن ضلالهم ما كانت الأمية مع العيش على تربية مجموعة من الخراف والبقر مع اليسير من القرآن لإقامة الصلاة خير من ذلك فى الدنيا والآخرة] كما أشار إلى ذلك الإمام الذهبى فى نقد إشارات ابن عربى وغيره .

وقد حمل التصوف بدع الموالد وخلة النسوان وصحبة الأحداث ومذهب الجبرية ، وهذا الأخير إن دخل فى أمة أرخصها لأعداء الله فى لمح البصر .

وأخطر ما فى التصوف من ضلال يأتى من القول على الله- تعالى ذكره- بغير علم ، وقد كان ذلك فى مذاهب الاتحاد والحلول ووحدة الوجود والحقيقة المحمدية ، وقد توغل فى ذلك ابن عربى والعفيف التلمسانى وابن الفارض والصدر القونوى وغيرهم ، وقالوا أقوالاً تشيب لها العقول ، وتهتز لها الجبال ، وتنفطر منها السماء وقد كانت سوء خاتمتهم جميعاً دليلاً على فساد أقوالهم .

وقد تتبعت تلك الطرق التى خاض فيها الصوفية ، وبينت أصلهم ومصادرهم ووسائلهم ، ومرادهم من التصوف وغاية ما ينتهون إليه ، والبدع التى تنشأ من ذلك ، ولم يكن لنا قصد فى التعرض إلى أحد من الصالحين، إذا نقلنا عنه ما لم ينسب إليه مما يتشدق به الصوفية ، ويجعلونه دليلاً على صحة مذاهبهم ، إلا أن نبين أن هذا القول إما أنه كذب على صاحبه أو أنه خطأ منه.

والحق على كل حال فيما وافق الدليل ، وإنما يعرف الرجال بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال . ولم يكن لنا من قصد فى التعرض لأصحاب الفطرة السليمة والنوايا الطيبة إلا أن نحذرهم من عاقبة التوغل فى هذا الطريق ، إذ أنه

يبدأ بشيء من الأذكار محفوفاً بحب الصالحين ، وينتهى إلى الغلو فيهم ، وتسويتهم بالله رب العالمين .

ولقد تتبعت فى هذا الكتاب مناهج الصوفية من كتبهم ، ومن ألسنة أصحابهم وبينت فيه أقوال علماء السلف الصالح رضى الله عنهم ، ورجعت إلى ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، وفى هذا الخير كله .

وقد علمت أن الفتن ما توغلت فى ديار المسلمين إلا بسبب البعد عن زمن النبوة والصحابة ، ولن يفلح الناس بالتصوف ولا بغيره ، إنما يفلح الناس إذا عادوا إلى ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم .

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال : « من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة » ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة وأبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . « انتهى » .

وما أحسن قول القائل :

وخير الأمور السالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

وقال الإمام مالك – رحمه الله تعالى – : لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به حال أولها . « انتهى » .

وهذا البحث الذى بين يديك لم يكن اعتراضاً على تحقيق الإخلاص ، ولا تهذيب السلوك ، ولا مكانة الأولياء ، إنما كانت منازلة شريفة بالحجة والبرهان مع أولئك الذين خلطوا الشرك بالتوحيد ، والبدعة بالسُّنة ، والذوق والرأى بالسنن والآثار ، ومع أولئك الذين زوروا العقل بالهوى حتى خاضوا

بحوراً من الفتن لا يعرف لها قرار ؛ فقالوا بالحلول والاتحاد والحقيقة المحمدية ، ورفعوا الأولياء على الأنبياء ، وعظموا الصالحين حتى أعطوهم من أمور العبادة والطاعة ، والحب والخوف والرجاء ما لا يكون إلا لله ، وقد تملكهم الغضب وثاروا عند التنقص من أوليائهم فيما لهم وما ليس لهم بينما لم يكن ذلك عند التنقص من حقوق الله رب العالمين ... إلخ .

فلم يكن مقصدنا من ذلك البحث إلا تحقيق التعلق بالله رب العالمين ، وإخلاص التوحيد له وحده ، وترك التعلق بالمخلوقين والغلو فيهم ، ومقصدنا أيضاً تجريد الاستسلام لرسول الله ﷺ بالطاعة والانقياد ، وتصديق أخباره وأقواله ، والإيمان به وحبه حباً يفوق حب المال والأهل والولد .

ومن أصدق العلامات على ذلك ألا يعبد الله تعالى إلا بما شرع ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالرجوع إلى ما كان عليه الرعيل الأول من هذه الأمة ، كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى : « لا يصلح حال آخر هذه الأمة إلا بما صلح به حال أولها » .

فلا يمنعنك ما أنت عليه أن تبحث فيما يلقى من الحق ، وإن كان مخالفاً لطريقتك . فأنت أحوج الناس إليه إن هجره الغلاة والغالطون ، وأنت فى زمن الغربة الثانية ، فى زمن تتجول فيه الشبهات ، وتموج فيه الفتن ، والخير كل الخير فيمن تثبت فى معتقده ، وتوقف فيما يشتبه عليه ، واختار مما يعرض عليه أحسن ما فيه . قال ابن مسعود رضي الله عنه يوماً لأصحابه : أنتم فى زمان خيركم المسارع فى الأمر ، وسيأتى على الناس زمان خيرهم المتوقف المتثبت لكثرة الشبهات . « انتهى » .

ومن أجل هذه الدوافع ، وحباً فى إظهار الحق ، واتباعاً لكتاب الله تعالى ، وسُنّة خليله ورسوله محمد ﷺ كتبت فى هذا الموضوع ، مسترشداً بما كان عليه الرعيل الأول أئمة الدين ، ومن تبعهم بإحسان .

وقد تتبعت طرق السالكين العلمية ، والعملية ، والذوقية ، والكشفية ، وما لهم وما عليهم ، ورددتها إلى مصدرها ، وناقشتها بالدليل الصحيح ، واستخرجت النتائج التى يستريح لها الباحث ، ويطمئن لها السالك .

فلا يمنعنك أيها الناظر أن يأتى النقد من باب غير بابك فترده ، فلعلك تنتفع به فى يوم لا ينفع فيه الندم ، فأخلص الطلب وحقق الرضا ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦٢] .

وقد قصدت بهذا الكتاب توضيح الحق فى هذا الباب ، خاصة فى هذا الزمن الذى انتشرت فيه تلك البدع ، وكثر فيه اتباع الأهواء ، وظهرت فيه الحيدة عن طريق الله المستقيم ، فنصيحتى لإخوانى الدعاة وشيوخنا الفضلاء الإهتمام ببيان مسائل التوحيد للمسلمين فى صورة عملية ميسرة ؛ حتى يتحقق لهم معرفة الله تعالى وصفاته وحقوقه ، على منهاج أهل السُنة وسلفنا الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين - وأن يهتموا بذلك فى دروسهم وفى خطبهم ، فهذا فقط هو الذى ينمى القلب نوراً وإيماناً ويقيناً ، بخلاف مسائل الزهد والتخويف من الموت ، ومفارقة الدنيا والنواح على فوات الحظوظ فإنها لا تفيد علماً يقينياً ولا إيماناً راسخاً فى القلوب ، ومن تتبع خطب النبى ﷺ وجدها على النحو الأول مشتملة على مسائل التوحيد وإسلام الدين لله رب العالمين ، فمن حجب وسائل التوحيد عن الأمة فقد حجب عنها سُبل النجاة وأوقعها فى المهانة والشرك والخسران ، ومن دل عليها فقد فتح للأمة باب الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة .

وقد أشار إلى ذلك العلامة ابن القيم فى زاد المعاد «١/٤٢٣ ، ٣٢٤ » حيث قال : وكذلك كانت خطبته إنما هى تقرير لأصول الإيمان من : « الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته » ، فيملأ القلوب من

خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة الله وأيامه ، لا كخطب غيره التى إنما تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق وهى النوح على الحياة ، والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل فى القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له ، ولا معرفة خاصة به ، ولا تذكيراً بأيامه ، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة ، غير أنهم يموتون ، وتقسم أموالهم ، ويبلى التراب أجسامهم ، فيا ليت شعرى أى إيمان حصل بهذا ؟ وأى توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به ؟ ، ومن تأمل خطب النبى ﷺ وخطب أصحابه – رضى الله عنهم – وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد ، وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التى تحببه إلى خلقه ، وأيامه التى تخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذى يحببهم إليه ، فيذكرون من عظمة الله وصفاته ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم .

ثم طال العهد وخفى نور النبوة ، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تقام ، من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها ، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغى الإخلال بها ، وأخلوا بالمقاصد التى لا ينبغى الإخلال بها ، فرصّعوا الخطب بالتسجيع والفقر وعلم البديع ، فنقص بل عدم حظ القلوب منها وفات المقصود بها . « انتهى » .

أسأل الله للجميع التوفيق وعدم التقلب مع الأزمان فإن ذلك نذير شديد يدرس معه أصول التوحيد والإيمان حتى يأتى على الناس زمان لا يعرفون فيه شيئاً عن التوحيد .

وأخيراً فهذا الكتاب مختصرٌ لبحث كبير كنت قد أعددته عن التصوف وقد اختصرته بعبارة سهلة تيسيراً للمقصود ورجاءً أن ينتفع به عامة المسلمين

في مشارق الأرض ومغاربها وقد جهزتُ هذا المختصر استجابة لرغبة شيخنا **العلامة الدكتور/ سعد عبد الرحمن ندا - حفظه الله تعالى -** .

فاللهم اجعل عملي هذا في رضاك ، وانفعني بهذا الجهد وقارئه وسائر المسلمين بحسن الثبات على الدين في الدنيا والآخرة واجز اللهم شيخنا الجليل **العلامة الدكتور / سعد عبد الرحمن ندا - حفظه الله تعالى -** خير الجزاء بما أولاه لهذا الكتاب ، وكاتبه من رعاية ، أسأل الله تعالى أن يجعل عمله في رضاه ، وأن يثيبه على ذلك فضلاً وغفراناً وجنة ونعيماً ، واغفر اللهم لوالدي ولإخواني في الله تعالى وتجاوز عن سيئاتنا وارفع درجاتنا إنك جواد كريم .

وقد قسمت هذا البحث إلى خمسة أبواب :

البـاب الأول : اشتقاق التصوف .

الباب الثاني : مصادر التصوف ووسائله .

الباب الثالث : مقاصد التصوف .

الباب الرابع : بدع التصوف .

الباب الخامس : جدال المتصوف .

وبَعْدُ . فما أصبت فيه من خير فالفضل كله لله تعالى ، وما كان بخلاف ذلك فمني ومن الشيطان والله تعالى منه براء ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أبو عبد الرحمن

عليّ بن السيد الوصيفي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الباب الأول
تعريف التصوف واشتقاقه

لم يكن لفظ التصوف مشهوراً فى القرون المفضلة - وهى القرون الثلاثة الأولى للإسلام - ولم يكن أعظم من الألفاظ التى كانت ولا زالت معبرة عن حقيقة الدين وأصوله ، وهى ألفاظ الإسلام والإيمان والإحسان ، فهى أوسع من أن يشملها معنى التصوف ، أو يكون بديلاً عنها .

قال ابن تيمية - رحمه الله - : « **أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً فى القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر بالتكلم به بعد ذلك** » . مجموع الفتاوى (٦/١١) .

أما تعريف التصوف لغة :

فالملاحظ أن مادة التصوف لا ترجع إلى أصول لغوية ثابتة ، فهى مادة مجهولة الاشتقاق والمصدر ، ولذلك اختلف علماء اللغة فى أمرها على عدة أقوال ، أثارت حولها الجدل واتسع لأجلها النقاش ، فقيل : نسبة إلى الصف الأول ، وقيل نسبة إلى أهل الصفّة ، وقيل نسبة إلى قبيلة من العرب فى الجاهلية ، وهذا كله غير صحيح ، وهناك أقوال أخرى منها : أنها ترجع إلى كلمة « سوفيا » اليونانية ومعناها : الحكمة ، ورجح ذلك من رأى أن تلك الكلمة ليس لها اشتقاق ولا قياس من حيث العربية ، والراجح أن اسم الصوفية مشتق من لبس الصوف .

قال ابن خلدون فى المقدمة « ص ٨٦٣ » : « والأظهر أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف ، وهم فى الغالب مختصون بلبسه ؛ لما كانوا عليه من لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف » (انتهى) .

أما التصوف اصطلاحاً :

فكما اختلف علماء اللغة فى اشتقاق مادة التصوف ومصادرها ، اختلف أئمة التصوف فى تحديد المعنى الاصطلاحى للتصوف أيضاً ، ويرجع ذلك لتعدد المقامات والأذواق والأحوال التى يتقلب فيها المتصوفة أثناء سيرهم فى هذا الطريق ، وعلى أثر ذلك لا يكاد ينضبط للتصوف معنى شامل يحدد ماهيته وغاياته ، كشأن جميع المعانى المعلومة المصدر السليمة الاشتقاق ، أو المعانى التى ترجع إلى أصول شرعية معتبرة ثابتة بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة والإجماع .

وعامة الصوفية يرون اشتقاق هذا اللفظ من الصفاء مناسباً من جهة المعنى اصطلاحاً ، حتى جعلوا كل من ينتسب إليهم علامة على الصفاء ، ولذلك يمدح الصوفية أنفسهم كثيراً ويزكون قلوبهم ، ويرون طرقهم فى الهدى غاية الطرق ، ووصولهم فى الأحوال والمقامات منتهى المطالب ؛ حتى عصف برءوسهم الغرور والعجب ، **فهذا ابن عربى يقول عن نفسه : لا أعرف فى عصرى هذا أحداً تحقق بمقام العبودية مثلى** . (اليواقيت والجواهر ص ٦٥) ، ونقل صاحب الرماح عن التيجانى أنه قال : **قدماى هاتان على رقبة كل ولى لله تعالى من لدن آدم حتى النفخ فى الصور** . (انتهى) .

ولا عبرة بما يقولون هم ولا غيرهم ، إنما العبرة بما هو عند الله تعالى، قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم : ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴿٤٩﴾ ﴾ [النساء : ٤٩] ، قال الشوكانى فى الفتح «١/٤٤٧» : فليدع العباد تزكية أنفسهم ، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه ، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة ، تحمل عليها محبة النفس ، وطلب العلو والتفاخر . (انتهى) .

وقد اشتد نكير النبي ﷺ على المداحين، ذلك لأن المدح قد يفضي إلى الغلو ، والغلو ذريعة إلى الشرك ، والسنة لمن يحرص على الثناء على من يستحق أن يكون صادقاً غير مغال ولا كاذب ، وأن يرد علم ما وصفه وما مدحه إلى الله تعالى ، كما بين النبي ﷺ في الحديث ، ومن نظر إلى تقصيره بجوار لطف الله تعالى به عاب نفسه التي تستحق المقت والتأنيب، ووبخها في جنب الله تعالى ، وانتهى أمره إلى طلب العفو والمغفرة من الله تعالى ، فهذا أفضل من الانشغال بالمدح .

ولله دَر أبي بكر رضي الله عنه صديق هذه الأمة ؛ وخير الناس بعد رسول الله ﷺ حين كان يمدحه أحد يقول : « **اللهم أنت أعلم بنفسي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي من غيري ؛ اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني خيراً مما يظنون** » . (انتهى) .

يقول ذلك وهو الذي لو قيل فيه ما قيل لكان كما قيل ، ولكنه حسن الأدب مع الله ، وصدق النظر إلى النفس باعتبار معرفتها بما يستحقه الخالق من ثناء وتمجيد وتعظيم ، وقد كان النبي ﷺ مع عظيم جاهه وعلو مقامه لا يحب المدح وإن كان فيه ؛ لما في ذلك منافاة لمقام العبودية الذي لا يحب أن يرفع فوقه ، فعن أنس رضي الله عنه أن ناساً قالوا : يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا ، **فقال النبي ﷺ** : « **يأيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله ورسول الله ، والله ما أُحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله عز وجل** » ، وفي رواية : « **ولا يستجرئنكم الشيطان** » [(١)] .

---

(١) **صحيح** : رواه أحمد في المسند (١٣١١٧) ، السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ٧٠) ، مسند عبد بن حميد (١٣٠٩) .

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن حسن – رحمه الله – فى فتح المجيد « ص ٤١٦ » : كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضى بهم إلى الغلو ، وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه ولو بما فيه ، من عمل الشيطان لما تفضى محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح فى نفسه ، وذلك ينافى كمال التوحيد ، وكمال الذل يقتضى الخضوع والخشوع والاستكانة لله تعالى وأن لا يرى نفسه إلا فى مقام الذل لها والمعاتبة لها فى حق ربه ، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات ، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه ، والمادح يغره من نفسه فيكون آثماً ، فمقام العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً ، والنهى عنه صيانة لهذا المقام « انتهى » .

وما قاله ابن عربى تطاول ، فقد كان علماً فى الإلحاد والزندقة ، وهذا لا يرفعه إلى ما ادعاه لنفسه من الاختصاص ، وإن صدق نفسه فيما يقول فهو ليس بشىء .

وكما قال الشاعر :

ليس التطاولُ رافعاً من جاهلٍ	وكذا التواضعُ لا يَضُرُّ بعاقلِ
لكنْ يزادُ إذا تواضعَ رفعةً	ثم التطاولُ ما له من حاصل

كان من الواجب على ابن عربى أن يعلم أن مقولته هذه من وحى الشياطين ، وقد أكد بنفسه أن أهل الكشف لا يسلمون من كيد الشياطين ، فيقول فيما نقله عنه الشعرانى فى اليواقيت والجواهر « ٨٧/٢ » : **واعلم أن الشيطان لا يزال مراقباً لقلوب أهل الكشف ، سواء كان أحدهم من أهل العلامات أو لم يكن ؛ لأن له حرصاً على الإغواء والتلبيس** . (انتهى) .

وما قاله التيجانى اختلاق آسن وافتراء على الله تعالى – الذى يعلم وحده

مقادير العباد وحقيقة ما هم عليه – وهو أيضاً تغرير بالنفس ، وانزالها منزلاً ليس لها أن تدعيه ، وهذا الكلام ينقض فى مناهج الأخلاق ، وتهذيب النفس الذى تتغنى به تلك الطائفة ، ويُضَيِّع الأعمال الصالحة ويحبطها ، وينافى مقام العبودية ؛ وعلى ذلك فتعريف التصوف بأنه خلق أو أنه صفاء تعريف قاصر ، لا يدل على جميع ما يرمى إليه أئمة الصوفية ، فى وسائلهم ومقاصدهم ومقاماتهم وأحوالهم .

وإذا كان الخلق بالمفهوم الصوفى يقصد به الخلق الذوقى المتحرر من ضوابط الشريعة ، فهذا مما لا يحمد على الإطلاق ولا كرامة .

قال الشاعر :

لن يحمدوك على خلق ولا خلق ... إذا رأوك بلا عـــقل ولا دين

الصوفيــة والزهــد

الزهــد فى اللسان « ١٨١٦/٣ » : الزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا. (انتهى) .

وتدور معانى الزهد اصطلاحاً حول عدة أمور : منها : قصر الأمل ، وعزوف القلب عن الدنيا ، وعدم الميل إليها وعدم الاطمئنان بها ، وترك التنافس فيها ، والحذر المستمر من الافتتان بها ، وقد جمع الإمام أحمد - رحمه الله - مراتب الزهد وبين وسطية الإسلام فيه بأوجز عبارة وأحسن بيان ، فقال : الزهد على ثلاثة أوجه : الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام ، والثانى : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، والثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين . (تهذيب المدارج ص ٢٨٤) .

وقد زكى الصوفية الزهد وكان من وسائلهم ، ولهم فيه مقامات وأحوال ، وقد ظن بعض الناس أن التصوف هو الزهد ؛ وذلك لأن الصوفية غالباً ما يحتقرون الدنيا ويستصغرونها - وهذا غير صحيح - فالزهد شىء والتصوف شىء آخر ، فالزهد لم يختلف أحد فى فضله وبركته ، وترغيب الإسلام فيه ، بخلاف التصوف ، فالنزاع فيه كبير ، بل إن الزهد حينما تكلم فيه المتصوفة ناله من النزاع والاعتراض ما لم ينله من قبل ؛ وذلك لأنه امتد إلى تحقير الأعمال والوسائل الشرعية والعملية ، التى جعلها الله سبباً للبقاء والصلاح ، بحجة أنها علائق وأحجبة تحول دون الوصول ، وتمنع القلوب من التلقى والمشاهدة والفناء ، وهذا ليس بزهد ، إنما هو بدعة وضلالة .

يقول الجنيد بن محمد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات . (الرسالة ص ١٠٦) .

وذكروا عن أبى سليمان الدارانى أنه قال : إذا طلب الرجل الحديث أو الزواج أو سافر فى طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا . (الإحياء ٦١/١) .

وحكى الشعرانى فى الطبقات (٨٩/١) عن أبى بكر الشبلى قال : وكان إذا أعجبه صوف أو قلنسوة أو عمامة لفها ، وأدخلها النار فأحرقها ، ويقول : كل شىء مالت إليه النفس دون الله وجب إتلافه . فقيل له : لم لا تتصدق به ؟ فقال : صورته باقية فربما تبعته النفس إذا رأته على الغير فكان الإحراق أسرع فى إتلافه مبادرة للإقبال على الله عز وجل . (انتهى) .

وهذا كله أثر من آثار السلبية فى التعامل مع المكونات الضرورية النافعة للحياة ، وفى هذا يبلور الأستاذ / على الدقاق المفهوم العلمى للزهد عند الصوفية قائلاً : الزهد أن تترك الدنيا كما هى ، لا تقول أبنى رباطاً ، أو أُعَمِّرُ مسجداً . (الرسالة ص / ٢٩٤) .

وقد يتعجب أحدهم حين يرى أننا ننسب كثيراً من أعمال الصوفية إلى الشياطين ، ولا عجب فى ذلك ، فافتقار هذه الأعمال للأسانيد الشرعية الصحيحة ، والأصول المعتمدة دليل على نسبتها إلى الشيطان ، وهذا الأخير دائماً ما يدفع الناس إلى فعل السوء ، ويضيق عليهم معايشهم .

حكى القشيرى فى الرسالة (ص / ٨٤) عن إبراهيم الخواص قال : طلبت الحلال فى كل شىء ، حتى طلبته فى صيد البحر ، فأخذت قصبة وجعلت فيها شعراً ، وجلست على الماء فألقيت الشص ، فخرجت سمكة فطرحتها على الأرض ، وألقيت ثانية فخرجت لى سمكة ، إذ من ورائى لطمة لا أدرى من يد من هى ، ولا رأيت أحداً ، وسمعت قائلاً يقول : أنت لم تصب رزقاً فى شىء إلا أن تعمد إلى من يذكرنا فتقتله ، قال إبراهيم : فقطعت الشعر ، وكسرت القصبة وانصرفت . (انتهى) .

فمن ترى هـذا الذى لطم الشيخ إبراهيم الخواص من خلفه على قفـاه بغتة ؟ وحرم عليه ما أحله الله تعالى إلا أن يكون شيطاناً رجيماً ؟!! ، وقـد ثبت فى القـرآن والسُنة أن الله تعالى أحل لعباده صيد البحر كما قال تعالى: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** (٩٦) ﴾ [المائدة : ٩٦] ، فكيف بعد ذلك يستجيب الشيخ لمن لم يكلف بطاعته ، ولم يؤمر بإرضائه ، فيكسر ما جعله الله سبباً مباحاً للرزق والصيد ؟! .

الزهد فى الجنة :

زهد الصـوفيـة فى الجنة وهى النعيم المقيم الدائم ، والسرور المستـمـر ، واعتبروا أن العبادة التى يبتغى بها صاحبها دخول الجنة عبادة مشكورة ، غير أن صاحبها لا يستحق أن يحمل لقب الصوفى .

يقـول ممشـاد الدينورى : منذ ثلاثين سنة تعرض عليَّ الجنـة فـما أعرتها طرفى . (الإحياء ٣٦٠/٤) **ورووا عن رابعة العدوية أنها قالت** : « ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا حباً فى جنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه . (الإحياء ٣١٠/٤) .

ولم يكن ذلك من هَدْى النبى ﷺ ، فقد قال لأصحابه : « **سلـو الله لـي الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة** » [(١)] ، فانظر –رحمك الله – إلى حرص النبى ﷺ وطمعه فى منزلة واحدة من الجنة ، وهؤلاء لا يعيرونها طرفاً .

---

(١) رواه مسلم فى الصلاة (٣٨٤) والترمذى فى الصلاة (٢١١) والنسائى فى الأذان (٦٧٨) وأبو داود فى الصلاة (٥٢٩) وابن ماجهة فى الأذان (٧٧٢) وأحمد فى المسند (١٤٤٠٣) .

أما رؤية الله تعالى فى الآخرة والتى يجعلها الصوفية عطاءً خاصاً بهم ، فهى لأهل الجنة جميعاً يرون الله تعالى دون تمييز ولا تقسيم ، وهذا مصْداقاً لما بيّن الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الآية قائلاً : « **إذا دخل أهل الجنة الجنة قال** : **يقول الله تبارك وتعالى تُريدون شيئاً أزيدكم** ، **فيقولون** : **ألم تُبيض وجوهنا ، ألم تُدخلنا الجنـة وتُنَجّنا من النار ، قال: فيكشف الحجاب فما أعطـوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل** » ثم تلا هـذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [(١)] .

فهذه عمومات صريحة تثبت رؤية المؤمنين جميعاً لربهم سبحانه وتعالى دون معاناة ولا تفرقة ، وذلك فى كل الجنان وفى كل الدرجات ، وهم مع ذلك يتمتعون بالحور العين ، واللؤلؤ المكنون ، وكذا بالقصور والنمارق ، والأشجار والأنهار ، فليس نعيم الجنة مقتصراً على المخلوق فقط كما يظنون .

أردأ نظرة للصوفية :

وعند الصوفية نظرة أردأ من ذلك وأجرأ ، إذ يعدون عطاء الله تعالى لعباده الصالحين فى الآخرة نوعاً من المكر منه سبحانه وتعالى بهم ، يشغلهم به عن النظر إليه ، يقول أبو حمزة الخراسانى : قد يقطع بأقوام فى الجنة فيقال لهم : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة : ٢٤] ، فشغلهم عنه بالأكل والشرب ، ولا مكر فوق هذا ولا حسرة أعظم منه . (التلبيس ص / ٣٣٣) . **قلت** : **لقد قلب الصوفى الأمر فجعل نعيم الجنة عقاباً ومكراً** ، والمكر عند الله عقوبة للماكرين ، وهذا جعله عقوبة للمؤمنين .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان (١٨٨) والترمذى فى صفة الجنة (٣١٠٥) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٧) وأحمد فى المسند (١٨٤٥٦) .

الزهد فى العلم والسُنة :

يقول أبو يزيد البسطامي : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمناً عن الحى الذى لا يموت . (الفتوحات لابن عربى ٣٦٥/١) وهذا الذى قاله أبو يزيد هو الذى من أجله احتقر الصوفية العلم وأهله ، حتى إن بعضهم كان يطلبه خفية .

قال أبو سعيد الكندى : كنت أنزل فى رباط الصوفية ، وأطلب الحديث فى خفية ، بحيث لا يعلمون ، سقطت الدواة يوماً من كمى ، فقال لى بعض الصوفية : استر عورتك . (انظر تلبيس إبليس ص ٣٢٨) .

ويقول عليّ بن مهدى : وقفت ببغداد على حلقة الشبلى فنظر إلى ومعى محبرة فأنشأ يقول :

تسربلت للحرب ثوب الغرق ... وجبت البلاد لوجد القلق

ففيك هتكت قناع الغوى ... وعنك نطقت لدى من نطق

إذا جادلونى بعلم الورق ... برزت لهم بعلم الخرق

(ت : ٣٢٩) .

لماذا اختار الصوفية نبذ العلم والعلماء ؟ :

تتلخص الخلفية التى جنحت بالصوفية إلى هذا الطريق فى ثلاثة أشياء:

أولاً : الصوفية لا يرون العلم ولا العبادة طريقاً إلى مقصودهم ، إنما يرون الطريق فى إهانة النفس وإذلالها ، والإتيان ببعض الرياضات والمجاهدات ، التى لا أصل لها فى الكتاب ولا فى السُنة .

وفى هذا يقول أبو حامد الغزالى فى الإحياء (١٩/٣) : فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة

العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنة الهمة على الله تعالى ، ثم قال : وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، **إلى أن قال** : ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه الله الله على الدوام مع حضور القلب ، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد . (انتهى) .

قلت: إن من العجب حقاً أن تقوم دعوة دينية على نبذ العلم ومجافاة العلماء، وقد أجمع العلماء أنه لا صلاح لأمة إلا بالعلم والعلم الصحيح خاصة.

قال ابن الصلاح : **فإن صلاح الأمة في صلاح أعمالها ، وصلاح أعمالها في صحة علومها ، وصحة علومها في أن يكون رجالها أمناء فيما يرون أو يصفون ، فمن تحدث في العلم بغير أمانة فقد مس العلم بقرحة ، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة** . (رسائل ابن الصلاح ١/١٣) .

فليس من عمل يتقرب به العبد إلى الله تعالى أعظم من العلم به ، ولا يتفاضل أهل الجنة على غيرهم في الجنة كتفاضلهم في العلم ، قال تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة : ١١] .

ولو لم يكن في شرف العلم أكثر من أن يجعل الله تبارك وتعالى أهله شهداء لله تعالى بالعدل والقسط لكفاهم ذلك فضلاً ومكانة ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران : ١٨] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (١/٣٥٤) : ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١٨) ﴾ ، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام (انتهى) .

ولذا جعل الله تعالى أهل العلم أَمَنَة لأهل الأرض جميعاً ، في حين أن الجهل نفق مظلم لا خير فيه ، ولله در القائل :

ما الفضلُ إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُدى لمن استهدى أدلاءُ
وقيمةُ المرءِ ما قد كان يحسنُهُ ... والجاهلونَ لأهل العلم أعداء

ثانياً : **طلب العلم يحتاج إلى حفظ ودراسة، ومراجعة ورحلة وكتابة ، وهذا طريق طويل وشاق حتى يصل الإنسان به إلى الريادة والولاية ، وهم لا يستطيعون مجاراة المحدثين والحفاظ والأمراء في ذلك ؛ ولذلك اختاروا المجاهدات لأنها أهون وأيسر .**

ولذلك قال الإمام الشافعي : أُسس التصوف على الكسل . (انظر تلبيس إبليس ص ٣٢٠) .

ثالثاً : **هذا الطريق يسهل به قيادة الناس ، والاستحواذ عليهم ؛ لأنه ينشئ قاعدة عريضة جاهلة خفيفة المحامل قابلة للخيالات ، مستجيبة للأوهام ؛ يسهل ابتلاعها والسيطرة عليها ، بخلاف الأوساط العلمية ، التي يصعب على صاحب الباطل أن يروج فيها باطله لما فيها من تحقيق وضبط .**

فبغض العلم والعلماء والميل إلى الجهل هو الذى من أجله أحب كثير م السلاطين التصوف ومالوا إليه ؛ لأنه لا يشاركهم فى أمورهم ولا يعترض عل أحوالهم فهم على قاعدة « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، أما طريق العا فليس فيه ذلك وهذا هو الذى جعلهم يكرهون العلم وأهله ؛ لأنه يحول بينه وبين أهوائهم ، ولا يتركهم فى راحة ولا دعة .

وذلك كما قال ابن الجوزى : **لأن الفقهاء يحظرونهم بفتاواهم ع ضلالهم وفسقهم ، والحق يثقل كما تثقل الزكاة** . (انظر تلبيس إبليس . ص ٣٧٤) .

مظاهر نبذ العلم عند الصوفية

أولاً : الاعتماد على الذوق :

يعتمد الصوفية على الذوق ، ويسمونه بعلم الخرق ، ويقدمونه على الشريعة إذا تعارض معها ، أو يؤولون الشريعة على مقتضاه ، والذوق هذا لا ضابط له ولا حد ، وهو يتغير بتغير الأخلاق والعوامل النفسية والأعراف ومقامات الشيوخ ؛ ولذلك فأذواق الصوفية بعدد أنفاس أصحابها ، وقد ترى بين الصوفية آفات عدة يرجع منشؤها إلى تلك الأذواق الفاسدة ، التى هجمت على عقولهم من تلك المتغيرات السابقة . والذوق : حكم اللذة . والحكم على الشيء بما يدرك من لذة لا يدل على صحة هذا الشيء ، فقد يكون خطأ ، وقد يكون صواباً ؛ وذلك لأن اللذة كما تنشأ من الإيمان تنشأ أيضاً من الكفر والعصيان . أما أنها تنشأ من الإيمان فقد قال النبى ﷺ : « **ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً** » ، (رواه مسلم فى الإيمان (٣٤) والترمذى فى الإيمان (٢٦٢٣) وأحمد فى المسند (١٧٨١) والإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب كان له لذة عظيمة يستشعرها كل مؤمن صادق ، ومن كان هذا أمره فهو صادق الفراسة والإلهام والذوق والحكم ، إلا أنه لا يستغنى عن الكتاب والسنة لضبط ذلك كله .

وأهل الأهواء لهم ولع ولذة بمعاصيهم يستشعرونها فى قلوبهم ويفرحون بها ، قال تعالى : ﴿ **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** ﴾ [البقرة : ٩٣] ، قال قتادة : أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم (تفسير الطبرى ٤٢٢/١) .

والمعنى أنه تغلغل فى داخلهم ، حتى صار له ذوق ولذة ظاهرة ، ولكنها

لذة مؤقتة ، يعقبها ألم وحسرة ، لا تصلح دينا ولا دنيا ، فهل ترى مثل هذه اللذة وهذا الذوق يصلح فى الحكم والفصل والقبول والرد ، وهذا نتاجه لا يخفى عليك أهواء متقلبة ، وحياة منتكسة ؟!! .

يقول الإمام الذهبى فى السير (٤٧٢/٤) إذا رأيت المتكلم المبتدع يقول : دعنا من الكتاب والأحاديث ، وهات العقل فاعلم أنه أبو جهل ، وإذا رأيت السالك التوحيدى يقول : دعنا من النقل والعقل ، وهات الذوق والوجد ، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر أو قد حل فيه ، فإن جبنت منه فاهرب ، وإلا فاصرعه وابرك على صدره ، واقرأ عليه آية الكرسى واخنقه . (انتهى) .

إن اعتماد الصوفية على الذوق دون النقل والعقل أمر فى غاية العجب ؛ وذلك لأن النقل والعقل ما جعلا إلا طريقاً إلى توحيد الله تعالى ورضاه .

فالنقل ضابط والعقل خادم ، وإذا كان النقل والعقل طريقين إلى الله تعالى بهذه الكيفية فما يجب احتقارهما ونبذهما ، إذا كان مقصود التصوف هو الوصول إلى الله تعالى ، ولو قدر أن الصوفية يصلون حقيقة إلى توحيد الله تعالى بالذوق كما يزعمون فهذا شيء طيب ، ولكن ما الداعى إلى محاربة النقل والعقل إذا وصلا إلى نفس النتيجة بدون الذوق ؟ .

إن هذا المنهج الذى اعتمده أولياء التصوف ، وشاركهم فيه الفلاسفة هو الذى تمخض عنه علم الوجد والكشف والحال والجمع والفرق والصحو والسكر والغيبة والحضور والبسط والقبض والطوالع واللوامع ، وغيرها من الألفاظ والمصطلحات التى اتخذها أئمة التصوف عِوضاً عن علوم الشريعة والرسالة ، وسموها بعلم الخرق ، ثم قدموها فى قالب من الحكمة والنظم والشعر ، ثم رفعوها على علوم الشريعة سنداً ودليلاً ، وما ينبغى لمسلم أن يقدم الذوق أو

العقل أو الهوى على علوم الشريعة ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① ﴾ [الحجرات : ١] .

وللإنصاف فإن تقدم الذوق على الشريعة لم يكن من نهج المتقدمين المشهورين باتباع طريقة السلف ومنهج أهل السُنة أمثال الشيخ عبد القادر الجيلانى ، فإنه كان معظماً للشريعة ، وما كان يقدم عليها ذوقاً ولا كشفاً ولا هوى .

قال ابن تيمية – رحمه الله تعالى – فى تعليقه على فتوح الغيب (١٠/٤٨٨) والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهى ، وتقديمه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشائخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية ، فإن الخطأ فى الإرادة من حيث هى إرادة إنما يقع من هذه الجهة ، فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادة من جهة هواه أصلاً ، بل يريد ما يريده الرب عز وجل . (انتهى) .

ثانياً : الاعتماد على الإلهام :

وما قيل على الذوق يقال على الإلهام : فقد صرف الصوفية جميع مفاهيم الدين بل جميع العلوم على أساسه ؛ لينصروا مذهبهم وطريقتهم ، وقد احتقروا بسببه كل وسيلة أخرى توصل إلى الله تعالى .

والإلهام ما يلقى فى الروع ، من أمور تبعث على الفعل أو الترك . **والملهم مهما أوتى من علوم فإن الله تعالى لم يضمن له سلامتها كما ضمن لعباده حفظ الكتاب والسُنة** ، ولذلك لم يكن لأحد أن يترك شيئاً من الشرع لأجل أنه كوشف بتحريمه ، أو يفعل شيئاً من الحرام لأجل أنه كوشف بجوازه ، وذلك لأن الكشف قد يكون نوعاً من الاجتهاد الذى يتنازعه الخطأ والصواب ، أو نوعاً من الظن الذى تتحدث به النفس ، أو تلبيساً من الشيطان ، وليس هناك

أحد من الأولياء معصوماً من كيد الشيطان ، أو أن الله تعالى قد تعهد له بتصحيح ما ألقاه الشيطان إليه من الضلالات والأوهام ، كما تعهد لرسله وأنبيائه بحفظهم من أمانى الشياطين .

ولأجل ذلك يجب على من امتن الله عليه بشيء من الكشف أن يرده إلى الكتاب والسُنة ، وأن يستشير ويستخير ، ولا يستغنى بإلهامه وكشفه ، فالإلهام مجرداً لا يصلح أن يستقل عن العلوم الشرعية فى الاحتجاج والعمل والحكم والقضاء والتعبد والحساب ، ولا يمكن أن ينسخ نصاً محكماً ، ولا أن يضبط حكماً متشابهاً ، بل الأصل فى ذلك كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ وإجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

أما المنامات فيقول الصوفية : إن ما يعطاه الصوفى على الأسرة أعظم مما يعطاه فى الصلاة ، فالمنامات لها وقع كبير جداً عند الصوفى ، وقلما يفوت على الصوفى يوم إلا ويسأل صاحبه عما رأى فى منامه ، وهل رأى شيخه أم لم يره ، حدثنى أحدهم أنه كان مريضاً بالبواسير وفى ذات ليلة رأى شيخه فى المنام يجرى له عملية البواسير واحتج على ذلك بأنه وجد قطرة دم فى ثوبه . قلت : كم ضحك الشيطان على هؤلاء .

هذا صنف منهم ، وآخرون لا يجدون حجة على الامتثال والانتهاء إلا فى المنامات وهذا ليس بطريق سوى ولا بنهج مرتضى ، فمن المعلوم أن الأحلام والمنامات والتجارب إذا صادمت الشرع ، وجاءت بما يخالف المحكم ضرب بها عرض الحائط ، وذلك لما قد يداخلها من تلابيس النفس ووساوس الشيطان ، وليس عند هؤلاء الصوفية ما ينسخ ذلك التلبيس ، حتى يؤخذ قولهم ويصير حجة على غيرهم ، وهذا بخلاف رؤى الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم – فهى وحى من الله تعالى، لأن الله تعالى تعهد بحفظها من أمانى الشياطين .

قال ابن القيم فى المدارج (١/ ٥١) : ورؤيا الأنبياء وحى ، فإنها معصومة من الشيطان ، وهذا باتفاق الأمة ، ولذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل – عليهما السلام – بالرؤيا ، أما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحى الصريح ، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها ، فإن قيل : فما تقولون إن كانت رؤيا صادقة أو تواطأت ؟ قلنا : متى كانت كذلك استحالت مخالفتها للوحى ، بل لا تكون إلا مطابقة له منبهة عليه أو منبهين على اندراج قضية خاصة فى حكم لم يعرف الرائى اندراجها فيه ، فيتنبه بالرؤيا على ذلك . (انتهى) .

ثالثاً : الاعتماد على الآثار الموضوعة والأحاديث الضعيفة :

لقد زهد الصوفية حقاً فى علم الحديث والإسناد وهدموه ، واستغنوا عن رواة السُّنن والآثار النبوية – ونفروا الناس منهم وهم الذين أقام الله بهم الدين ونصر بهم الملة – الذين لولاهم ما عرف هؤلاء عن الإسلام ولا عن نبى الإسلام شيئاً – وعبدوا الله تعالى بلا ضوابط ولا أصول ، وجعلوا الأذواق والمكاشفات أساس القبول والرد ، وما ذاك إلا طريق وهم وسبيلِ خيال ، وهذا هو الثغر الذى تنهض من خلاله البدع ، وتموت تحت لبابته السُّنن .

وداهية الأثافى أن كبراءهم لا يفرقون بين الحسن والصحيح ولا بين المنكر والضعيف ، **فهذا أبو حامد الغزالى – رحمه الله تعالى – قال عن نفسه فى العلم الذى يفسر به القرآن ويضبط به الدين وهو علم الحديث : بضاعتى فى علم الحديث مزجاة** . (رسالة قانون التأويل ص ١٦) .

وقد بيَّن الإمام الذهبى اشتمال الإحياء على كثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة فقال فى السير (١٩/٣٤٠) : أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة ، وفيه خير كثير ، لولا ما فيه من آداب ورسوم ، وزهد من طرائق الحكماء ، ومنحرفى الصوفية . نسأل الله علماً نافعاً . (انتهى) .

وابن تيمية - رحمه الله تعالى - يؤكد قولهما ويقول : فإن فرض أن أحداً نقل مذهب السلف كما يذكره ، فإما أن يكون قليل المعرفة بآثار السلف كأبى المعالى وأبى حامد الغزالى وابن الخطيب وأمثالهم ممن لم يكن لهم من المعرفة بالحديث ما يعدون به من عوام أهل الصناعة فضلاً عن خواصها ، ولم يكن الواحد من هؤلاء يعرف البخارى ومسلماً وأحاديثهما إلا بالسماع ، كما يذكر ذلك العامة ، ولا يميزون بين الحديث الصحيح المتواتر عند أهل العلم بالحديث وبين الحديث المفترى المكذوب وكتبهم أصدق شاهد بذلك ففيها عجائب ، وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمة والمتصوفة يعترف بذلك إما عند الموت وإما قبل الموت والحكايات فى هذا كثيرة ومعروفة . (الفتاوى ٤/ ٧١ ، ٧٢) .

وفى هذا استغناء واضح عن العلوم الضابطة ، والموازين الصحيحة التى عليها علماء السُّنة ، بل وفى ذلك تسفيه لجهدهم فى هذا المجال ، الذى تميزوا به على أهل البدع ، وسار مفخرة لهم على سائر الأمم ، واستغناء الصوفية عن هذه الضوابط ، وتكلم العلوم معناه أنهم يتتبعون الشبهات ، ويرعون فى الفتن ، فكيف بعد ذلك تستقيم سبلهم ، وتسلم مقاصدهم ؟ ، وأنى لهم إشراقات نور وصدق أذواق ؟! .

ولذلك فإنك ربما تستطيع أن تنقل جبلاً بإبرة ولا تستطيع أن تنقل صاحب بدعة عن بدعته كما كان يقول شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - وذلك لأن الأحاديث الموضوعة والمفاهيم المغلوطة قد ملأت جنبات نفسه ، وطمست بصيرته ، وتغلغلت فى نياط فؤاده ، وهو يرى أن هذا هو الحق ، وأن ما تدعوه إليه دعوة للتخلص من الحق ، فكيف يتزحزح عن ذلك ؟ .

يقول ابن عربى :

لست ممن يقول قال ابن حزم لا ولا أحمد ولا النعمان

وقال : لقد عرضت أحاديثه ﷺ جميعها عليه فكان يقول عن أحاديث صحت من جهة الصناعة ما قلتها ، وعن أحاديث ضعفت من جهتها قلتها . (انظر الشذرات ٥/٢٠٠) وبين فى الرسائل (ص ٤) طريقة القوم فى قبول الحديث ورده فقال : وهم أخذوه عن طريق الكشف عن قائله صحيحاً فتعبدوا به أنفسهم على غير ما تقرر عند علماء الرسوم (انتهى) .

وزعم التيجانى رؤية الرسول ﷺ وقال : رأيته مرة ﷺ وسألته عن الحديث الوارد فى سيدنا عيسى عليه السلام قلت له : ورد عنك روايتان صحيحتان واحدة قلت فيها يمكث بعد نزوله أربعين وقلت فى الأخرى سبعاً ما الصحيحة منها قال ﷺ : رواية السبع (انظر جواهر المعانى ١/ ٥٠) .

وفى هذا كفاية لبيان استغناء الصوفية عن العلوم الضابطة والموازين الصحيحة ، وطرد ذلك اتباع الشبهات ، والولوج فى الفتن ، وعلى إثر ذلك كيف تستقيم السبل وتسلم المقاصد وتصدق المكاشفات ؟ وهذه عدة أمثلة للأحاديث المفتراة المنقولة فى كتب الصوفية .

« كنت أول النبيين فى الخلق وأخرهم فى البعث » (١) ، « لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك » (٢) « توسلوا بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم » (٣) « عليكم بلباس الصوف تجدوا حلاوة الإيمان » (٤) « أكثروا ذكر الله حتى

---

(١) **ضعيف** : انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة للألبانى رقم (٦٦١) .

(٢) **ضعيف** : انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة للألبانى رقم (٢٨٢) .

(٣) لا أصل له : انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة للألبانى رقم (٢٢) .

(٤) موضوع : انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة للألبانى رقم (٩٠) .

يقولوا مجنون » (١) « كنت كنزاً مخفياً » (٢) .

فهذه من أصول الضلالات والأوهام ، ولو كان عند أحدهم علم بمصطلح الحديث لردها فى وجوه أصحابها ، ولخيبهم خيبة الكسعى، ولكن هيهات هيهات فقد هجروا هذا العلم وسفهوه اعتماداً على الأوهام والمنامات والأذواق ، وقد علموا أنه مفخرة الأمة الإسلامية على سائر الأمم .

وفى الحقيقة لقد تبين من استقراء أحوال الذين قالوا : « إن علمهم هذا مقيد بالكتاب والسنة » أنهم ثلاثة أقسام إما مغلوبون ، وإما جهلة ، وإما أصحاب سياسة ودهاء .

ومنهم ابن عربى كما ذكر الإمام برهان الدين البقاعى فى كتاب تنبيه الغبى « ص ٢٠ » أنه كان أصنع الناس فى التلبيس ، فإنه يذكر أحاديث صحاحاً ويحرفها على أوجه غريبة ومناح عجيبة ، فإذا تدرج معه من أراد الله – والعياذ بالله – ضلاله وصل ولابد إلى مراده من الانحلال عن كل شرعة ، والمباعدة لكل ملة . (انتهى) .

وصية وتذكرة :

يجب على المؤمن الصالح أن يوحد الله تعالى فى إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، كما يجب عليه أن يوحد الرسول ﷺ فى الاتباع ، فلا يقدم عليه وجداً ولا ذوقاً ولا خيالاً ولا مناماً ، ولا شيخاً ولا فيلسوفاً ، ولا حياً ولا ميتاً ، وتوحيد الرسول فى الاتباع يدور حول تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، وألا يعبد الله إلا بما شرع ، والمتمسك بذلك

---

(١) **ضعيف** : انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة للألبانى رقم (٥١٧) .

(٢) قال العجلونى فى كشف الخفاء (ص ١٣٢) قال ابن تيمية : ليس من كلام النبى ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشى والحافظ ابن حجر فى اللآلئ والسيوطى وغيرهم (انتهى) .

جامع لعلائم الحب كله كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[آل عمران : ٣١]، ورحمة الله تعالى نائلة من اتبع الرسول ﷺ كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

فمن أراد أن يصح اتباعه فليبحث عن الدليل الصحيح الثابت ، وليسند قوله لمن يؤخذ منه العلم ، ولا بد أن يتحرى فى الدليل، أن لا يكون متروكاً ولا منكراً ، ولا منقطعاً ولا مضطرباً ولا معضلاً، ولا شاذاً، ولا معللاً ، بل يكون موصولاً إلى النبى ﷺ ، برواية العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه ، بغير شذوذ ولا علة ، كما هو على قواعد المحدثين فى حكم الحديث الصحيح ؛ لأن هذه عقيدة ، والعقائد لا تبنى بعلم مقوض ، ولا بأصول موضوعة ، إنما تبنى بعلم صحيح الإسناد ، موصول بغير علة إلى النبى ﷺ .

وإنى لأذكر قاعدة مقبولة عند الأحناف الأشاعرة ، منكرة عند المحدثين وغيرهم من الفقهاء ، أذكرها للعبرة ، وفيها : أن الأحناف يردون أحاديث الآحاد الصحيحة فى مجال العقيدة ؛ حفظاً للدين ، وخشية من الزلل فى الاعتقاد كما يظنون ، وقولهم هذا مردود عليه بأدلة صحيحة بينها العلماء – ليس هذا موضع بيانها – ، ولكن انظر إلى أى حد أرادوا أن يحفظوا العقيدة من وجهة نظرهم ؛ بإنكار أحاديث صحيحة بقواعد فاسدة ، كما بين أهل العلم ، فكيف يقبل هؤلاء أن يبنى المسلمون دينهم ومعتقداتهم ، التى عليها الفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة على أحاديث واهية مكذوبة على رسول الله ﷺ ومنامات شيطانية ؟ حاشا وكلا .

ولا يخفى أن هذه الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ لا تصلح فى أى

أمر من أمور الدين ، لا فى فضائل الأعمال ، ولا فى التشريع ولا فى الاعتقاد ، وهذا متفق عليه عند جميع علماء الحديث ، أما المنامات فلا يخفى على الفقيه الحاذق أن منامات غير الأنبياء ليست وحياً معصوماً ولا كتاباً محكماً حتى تنتهى إليها الأحكام والشرائع بل إن أكثر أحلام الناس شيطانية فكيف بها تتقدم على نور الوحى والرسالة أو تتكافأ معها .

رابعاً : التقلد بالشطحات والتقعر بالرموز :

بقليل من التأمل تستطيع أن تلحظ مدى فداحة شطحاتهم ، وتستشنع سوء رموزهم ومقاماتهم وأحوالهم : فأصحاب الشطح الكلمى كأبى يزيد كان يقول فى الغيبة : « سبحانى سبحانى أنا ربى الأعلى » ، أما الحلاج فكان يقول : « ما فى الجبة إلا الله » .

وهناك طائفة من الصوفية أوتوا البراعة فى التلون والهروب من الحقائق الظاهرة بألفاظ مبهمة تعطى معانى متعددة ، لو أولتها على أى وجه لبدا لك منها أعظم مراتب الشذوذ وأخطر مذاهب الضلال ، وهذا دين أصحاب الدعاوى العريضة وأدعياء العشق والوصال ، الذين انتهى بهم الأمر إلى ادعاء المشاهدات وارتفاع الحجب ، والحلول والاتحاد .

ولكن هل وفت هذه المصطلحات والرموز بالإخفاء فعلاً كما أرادوا ، فلم يستطع أحد أن يترجمها أو يفهمها غيرهم ؟ ، والجواب : لا ، لم تستطع أن تخفى مقصدهم أو تستر مرادهم ، وذلك إذا علمت أن لهم معاجم لغوية خاصة بهم ، وأحوالاً جمة تعبر عن تلك الإشارات والرموز ، وتفسرها تفسيراً واضحاً لأنفسهم ولغيرهم ، فلم تعد مقاصدهم خافية خاصة على علماء الشريعة واللغة .

ومن هؤلاء الذين كانوا يتفننون فى استخدام الرموز عمر بن الفارض ، فقد كـان يـرى أن الكون فى صحوه وغيبتـه عين الذات الإلهـيـة ، لا فـرق بين الحالين ، « تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

ومن ذلك قوله :

ففى الصحو بعد المحو لم أك غيرهـا وذاتـى بـذاتـى إذ تحلـت تجلـت

ويعلق الشيخ عبد الرحمن الوكيل بعين المدرك البصير بأحوالهم ومصطلحاتهم قائلاً : فثمة إذن فرق عند الصوفية بين الصحو والمحو ، ولكن ابن الفارض أبى أن يؤمن بهذا الفرق المبتدع ، فهتك الستر ومزق القناع ؛ ليكشف لك فى قول صريح عن حقيقة معتقد الصوفية ، ومضى مسرعاً يلهث ليدرك فكرك ، قبل أن يؤمن بذلك الفرق بين الصحو والمحو !! وليؤكد لك أن دين الصوفية قائم من أول أمره على أن الله سبحانه وتعالى هـو عين خلقـه . (انظر هذه هى الصوفية ص ٢٦) .

فكما بينت لك أخى القارئ فرموز الصوفية لا تخفى غوامضها ، ولا يروج دخنها على علماء الشريعة ؛ ولأجل ذلك كان علماء الشريعة أَمَنَة للناس فى حفظ المفاهيم وصدق البيان والبلاغ ، كما أن النجوم أَمَنَة للسماء .

ترى ما الدافع الحقيقى عند الصوفية وراء تلك الرموز وهذه الإشارات؟.

والجواب فى نقطتين :

[١] لقد أحاط الصوفية رموزهم بهالة من التقديس ليظهروا اختصاصهم بعلم ليس عند غيرهم ، ليتعارفوا به من جهة ولينالوا به مكانة عند ضعاف الدين والعقل ؛ ليرحلوا إليهم ، ويتبركوا بهم من جهة أخرى .

[٢] ومنهم من قال تلك الرمز سياسة ؛ ليهرب بها من التصريح الذى قد يعرضه للعقوبة والطرد والبلاء ، يقول الدكتور زكى مبارك : بقى أن

نص على أن هذه المناورات التى اصطنعها محى الدين كان لها أثر بليغ فى عمق الثقافة الصوفية ، فلو أن هذا الرجل كان أفصح عن غرضه بمثل ما أفصح الحلاج ؛ لشفى الناس صدورهم منه بالقتل » . التصوف فى الأدب والأخلاق ٢٠١/١) .

وقد بين د / زكى مبارك حقيقة تلونه على طريقة الفلاسفة مستخدماً الصيغ الإسلامية ليوهم الناس بسلامة قصده حيث يقول فى كتاب التصوف ٢٠١/١ : تأثر ابن عربى بمذاهب الحكماء ظاهر جداً ، والواقع أننا لا نستطيع أن نتصور ابن عربى باحثاً ، يقف عند أصول الشرع أو عند وحى قلبه ، وهو بالفعل متأثر بالمذاهب الفلسفية ، لكنه لقوة عارضته ومرونة قلمه يكاد يقنعك بأن ما عنده هو ثمرة الكشف ، أو على الأقل من فيض العلم الإسلامى الصرف . (انتهى) .

حكم رموز الصوفية

لقد كانت رموز الصوفية وإشاراتهم كلمات أدبية بالغة الجمال ، رقيقة العبارة ولكنها فى حقيقة الأمر تخفى وراءها الكفر والزندقة ، وهذه الرموز لا يمكن أن تخرج من ألسنتهم وهم فى غيبة عن عقولهم لا أظن ذلك لأنهم بينوا علة الحاجة إليها .

يقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق – حفظه الله – : لا نسلم أن قائلى هذه العبارات قد قالوها كما زعموا وهم فى حالة هذيان وغيبة عقل ، وذلك أن هذه العبارات لها معان محددة ، وهى نسيج مؤلف مركب قصد به صاحبها أن يدل على عقيدة عنده ، ولم يقلها كلاماً غير منضبط ككلام السكران والغائب عن الوعى . (الفكر الصوفى ص ٤٧٤) .

ولا أظن أن أحداً من المسلمين عنده بقية من عقل ، ومسحة من فطرة سوية يسمع هذه الرموز وتلك الإشارات ويقبل منها شعرة ، فضلاً عن أن يمجها كما يمج بزاقه .

يقول الذهبى : **فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر ، لا يعرف عن العلم شيئاً سوى سور من القرآن يصلى بها الصلوات ، ويؤمن بالله واليوم الآخر خير له بكثير من هذا العرفان وهذه الحقائق ، ولو قرأ مائة كتاب أو عمل مائة خلوة** (لسان الميزان ٣١٢/٥) .

قال السيوطى : وأما كلام الصوفية فى القرآن فليس بتفسير ، والتفسير الذى لأبى عبد الرحمن السلمى المسمى بحقائق التفسير فإن اعتقد أنه تفسير فقد كفر ، قيل والظن بمن يوثق به منهم أنه لم يذكره تفسيراً ، وإلا كان مسلكاً باطنياً ، وإنما هو تنظير .

وقال النسفى : النصوص على ظواهرها والعدول عنها إلى معنى باطن إلحاد (انظر تذكرة الموضوعات للفتى باب العلم كتاب التفسير) .

ولقد نقل عن سيد الطائفة ما يدل على أن تلك الرموز الجميلة والإشارات الرقيقة لم تنفعه بشىء ، قال القاضى أبو يعلى الفراء فى طبقات الحنابلة (١٢٧/١) **قال الخلدى** : **رأيت الجنيد فى النوم فقلت له ما فعل الله بك ؟ قال** : **طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها فى الأسحار** . (انتهى) .

فانظر إلى إشارات الجنيد التى يمكن التطبيق بينها وبين ظواهر المعانى ، لم تنفعه بشىء ، فما بالك بما يفعله الله تعالى فى إشارات الملحدين ، وطلسمات المفترين ، الذين حرفوا الدين إلى معان فاسدة ، وأحكام مقلوبة !!! فالحذر الحذر من تلك الإشارات وهذه الرموز فهى من أعظم الفتن ، بل هى من علامات الساعة ، فلا هى كتب منزلة ، ولا هى علوم مأثورة ، روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **سيكون فى آخر أمتى أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم** » [(١)] .

قال سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز آل الشيخ – حفظه الله – فى خطبة عرفة لعام ١٣٩٨هـ : لا شك أيها المسلمون – أن الإسلام قد تلقاه أسلافنا عن ربنا على لسان رسوله محمد ﷺ تلقوه دين حق وفطرة ، قبلوه وآمنوا به إيماناً راسخاً وطبقوه عقيدة وعبادة – طبقوه معاملة وسياسة ودنيا وأخرى، تقبلوه بالصدق والإيمان والرضى فكانوا هداة مرشدين – قادة موجهين

---

(١) رواه مسلم فى المقدمة (٦) وأحمد فى المسند(٨٠٦٨).

ومنقذين من الظلم والطغيان وعبادة الإنسان ، على هذا النهج سار المسلمون الأولون فصلحوا وأصلحوا ، إله واحد ورسول واحد هو محمد رسول الله ﷺ ، مسلك واحد هو كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ الصحيحة الثابتة ، صراط مستقيم هو الإسلام ، وبعد مرور الزمن وتقادم العهد بالوحي والنبوة وبعد شيء من الإعراض عن هدى الله وشرعه تمكن الحاقدون على الإسلام وأهله من الكيد له ولأهله تسموا به لا رغبة فيه وإنما ليفسدوا على المسلمين دينهم ويدخلوا فيه ما ليس منه حتى يمتزج به ويقبل على أنه من الإسلام فقبل هذا المزيج تدريجياً وصار كل ما أدخله الموتورون وانقاد له الجاهلون من ضلالات ونحل وعبادات فاسدة جاء الإسلام بإبطالها صار كل ذلك لدى الكثير من المسلمين ديناً صحيحاً . فضعف بذلك الإسلام والمسلمون وانحرفوا عن الحق إلا مَنْ رحم الله ، اختلط الهدى بالضلال وابتعد الناس عن دينهم وإسلامهم الصحيح وصاروا - غثاءً كغثاء السيل - فهل أدرك المسلمون ذلك ؟ هل رجعوا إلى دينهم ؟ هل حاولوا فهمه من جديد كما أنزله الله ورضيه لهذه الأمة ديناً ؟ هل حاول المسلمون تجريده مما أدخل عليه وخلصوه من الزيف والضلال والفساد ؟ أسأل الله أن يهدى المسلمين وأن يردهم إلى الحق ويأخذ بنواصيهم إلى الخير . (انتهى) .

بغض الصوفية للفقهاء

المعارضون للدين كُثر ، وطرقهم فى معاداته لا حصر لها فمنهم من يعارض بالأذواق ، ومنهم من يعارض بالسلطان ، ومنهم من يعارض بالعقول ، ومنهم من يعارض بعلماء السوء ، وهكذا ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٢١] .

قال ابن أبى العز الحنفى فى شرح الطحاوية (ص ٢٢٠) : فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله ، وأحبار السوء وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله وتحريم ما أباحه ، واعتبار ما ألغاه وإلغاء ما اعتبره ، وإطلاق ما قيده وتقييد ما أطلقه ونحو ذلك ، والرهبان وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد ، والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله ، وإبطال دينه الذى شرعه على لسان نبيه ﷺ ، والتعويض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس . **فقال الأولون : إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة ، وقال الآخرون : إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل ، وقال أصحاب الذوق : إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف** (انتهى) .

وفى الصوفية من يصرح بتكذيب الفقهاء ولا يعبأ بعلومهم اعتماداً على ما يراه من الأوهام والخيالات الكاذبة ، **ومن هؤلاء المرسى أبو العباس فقد قال :** وقد دخل علىَّ الخضر مرة وعرفنى بنفسه ، واكتسبت منه معرفة أرواح المؤمنين بالغيب هل هى معذبة أو منعمة ، فلو جاءنى ألف فقيه يجادلوننى فى ذلك ويقولون بموت الخضر ما رجعت إليهم . (المرسى لعبد الحليم محمود ص ٤٥).

وقوله هذا مخالف لقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : ٨٣] .

والعلماء والفقهاء هم أولو الأمر ، قال الحسن وغيره : أولو الأمر هم أهل العلم والفقه (تفسير القرطبى ٥/ ٢٩١) .

قال ابن الجوزى : وبغضهم الفقهاء أكبر الزندقة لأن الفقهاء يحظرونهم بفتاواهم عن ضلالهم وفسقهم ، والحق يثقل كما تثقل الزكاة . (ت. ص / ٣٧٤) .

وما حمل الصوفية إلى معاداة علماء الشريعة والتوحيد ، والاستغناء عن علومهم إلا حب النفس والهوى والغرور ، وكيف لا يوصل الغرور إلى ذلك ، وقد عرف النبى ﷺ الكبر بأنه بطر الحق أى : ترفعاً وتجبراً وغمط الناس أى : احتقارهم وازدراؤهم ، وهذا هو منهج الصوفية مع الفقهاء .

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ : « **الكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وغَمْطُ النَّاس** »[1] .

وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية الحرانى والعلامة المجدد محمد بن عبد الوهاب من أكثر العلماء الذين تعرضوا لمفتريات الصوفية .

ابن تيمية والصوفية :

وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية النصيب الأكبر من ذلك العداء ، فلا تكاد تجد كتاباً ولا رسالة لهم إلا وفيها انتقاص من فضله ومكانته ، ولا مجلساً إلا وفيه ذم له وقدح فيه ، إما بتبديع أو تفسيق أو تكفير ؛ وهذا لأنه فضح دعاواهم

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان (٩١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) وأحمد فى المسند (٣٧٧٩) .

وأسقط حججهم فى الاستغاثة بغير الله تعالى ، وقال إنه من الشرك الأكبر ، ومنع التوسل بغير الإيمان والعمل الصالح والدعاء ، وبيّن أنه من البدع المحدثة .

وهكذا ما رأى بدعة إلا أنكرها انتصاراً للدين وحفظاً للملة ، وقد كان هؤلاء فى زمنه يرون الاستغاثة بالنبى ﷺ ، كما هو ثابت من صلوات ابن بشيش التى يرتلها الشاذلية صباح مساء وفيها : الصلاة والسلام عليك ياسيدى يارسول الله قد ضاقت حيلتى ، أدركنى يا رسول الله .

ولقد وجه ابن تيمية - رحمه الله تعالى - سهامه القوية وحججه الناصعة إلى الحلاج وابن عربى وابن الفارض والعفيف التلمسانى والصدر القونونى ، وبيّن أنهم صوفية الإلحاد والضلال ، ونقض مذهبهم فى الاتحاد والحلول ، وأظهر الله تعالى الحق على لسانه ، ورد عليهم شبهاتهم ، ونكس أعلامهم ، وأظهر السُّنة ، وقمع الله تعالى به البدعة .

وهكذا كان ابن تيمية فما من سبيل رأى فيه شراً وسوءاً وبدعة وإلحاداً إلا كان له بالمرصاد ، مظهراً لمنهج السلف ، فقد كان يعطى لخصومه المهلة عاماً أو عامين أو ثلاثة ليبحثوا فيما قال ، وفيما اعتقد ، ليأتوا من كتب الأئمة بخلاف ما قال - وذلك لأنه كان أعلم منهم بالسُّنة والآثار ، بل كان أعلم بمذاهبهم الضالة من علمهم بها ، فقال - رحمه الله تعالى - لهم : **قد أمهلت من خالفنى فى شىء منها « يقصد العقيدة الواسطية » ثلاث سنين ، فإذا جاء بحرف واحد من أحد من القرون الثلاثة يخالف ما ذكرت فأنا أرجع عن ذلك** . (الفتاوى ١٦٩/٣) .

وكان ابن تيمية داعياً إلى إخلاص العبادة لله تعالى ، وإخلاص الاتباع لرسول الله ﷺ ، وكان رحمه الله تعالى معظماً للأولياء والصالحين من غير إطراء ولا غلو ، وقد أدرك ابن تيمية زمن الرفاعية البطائحية ، وقد كان لهم فى الشعوذة والسحر مقام عظيم ؛ فأنكر عليهم هذه الضلالات وشنع عليهم

وبيّن لهم أن هذه الخرافات ليست من آثار النبوة ، ولا من مقامات التوحيد ، ولا من علامات الإيمان ، وأن من الواجب الوقوف على الشريعة واتباع آثار السلف ، وترك هذه البدع ، ولقد نصره الله تعالى عليهم نصراً مؤزراً كما سترى في المناظرة التي جرت بينه وبينهم .

وكان - رحمه الله - صاحب علوم جامعة ، ومكاشفات ساطعة ، ومع ذلك كانوا يحذرون منه ، وهو البحر الواسع والمعين الذاخر ، وهو الذي نال من تزكية العلماء والأكابر ومن المدح والثناء ما لم ينله أحد مثله في زمنه .

فقد كان - رحمه الله رحمة واسعة - آية من آيات الله تعالى في خلقه واستدلالاته وحججه ، وآية في عباداته وزهده وكرمه ، وآية في شجاعته وورعه ، وآية في حفظه واطلاعه وفراسته ، وقد أيده الله ونصره وأبقى علمه محفوظاً بعد وفاته ، ولا تكاد تجد لأحد حاربه أو نصب له العداء ذكراً أو علماً باقياً أو أتباعاً أو ناصرين كما أبقى الله تعالى له .

يقول علامة العراق الألوسي - رحمه الله - في غاية الأماني١٧٦/٢ : ومن أظهر كراماته أنه ما سمع بأحد عاداه أو تنقصه إلا وابتلى ببلايا غالبها في دينه ، وهذا ظاهر مشهور ، لا يحتاج فيه إلى شرح صفته (انتهى) .

ومن الواضح من خلال دراسة سيرة هذا الرجل أنه لولا معارضته للصوفية لكان سيداً معظماً عندهم يشار إليه بالبنان ، ولكنه الهوى فيرى الإنسان الذر في عين صاحبه بينما لا يرى الجذع في عينه .

فقد كان آخر ما قرأ من القرآن دليلاً على عظم جاهه وحُسن خاتمته ، نسأل الله أن يجمعنا به يوم القيامة .

يقول ابن العماد في الشذرات ٨١/٦ : واجتمع عند الشيخ خلق كثير من أصحابه يبكون ويثنون عليه ، وأخبرهم أخوه زين الدين عبد الرحمن أنه ختم هو والشيخ منذ دخلا القلعة ثمانين ختمة ، وشرعا في الحادية والثمانين ،

وانتهيا إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر : ٥٤ – ٥٥] .

الصوفية يشكون ابن تيمية للسلطان :

ومع علو ما ذكر من صفاته ، وثناء علماء عصره عليه ، فقد كان الصوفية يحذرون من مجالسته والاستماع إليه ، حكى الشعرانى فى الطبقات عن بعضهم (٦/١) قال : كما نرى فى زماننا هذا من إنكار ابن تيمية علينا وعلى إخواننا من العارفين ، فاحذر يا أخى ممن كان هذا وصفه ، وفر من مجالسته فرار السبع الضارى (انتهى) .

وما ذلك إلا لأنه كما ذكرنا كان يجرد التوحيد ، ويحقق فى دينه الإخلاص لله رب العالمين ، ويجرد التسليم لسيد ولد آدم أجمعين محمد ﷺ على طريقة السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ ، وهذا هو مقتضى قول الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

ولما قام ابن تيمية بفضح دعاوى ابن عربى صاحب الفصوص والفتوحات والتلمسانى وعمر بن الفارض وغيرهم من القائلين بوحدة الوجود تعصب الصوفية لأوليائهم ولم يتعصبوا لله رب العالمين ، وحنقوا عليه وشكوه إلى السلطان ، وكان قائدهم فى ذلك ابن عطاء السكندرى الشاذلى .

يقول ابن كثير فى (البداية ٤٥٥/١٤) عن الإمام الحافظ البرزالى : شكى الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقى الدين وكلموه فى ابن عربى وغيره إلى الدولة ، فردوا الأمر فى ذلك إلى القاضى الشافعى ، فعقد له مجلساً ، وادعى عليه ابن عطاء بأشياء فلم يثبت عليه منها شيء ، ولكنه قال : لا يستغاث إلا بالله ، لا يستغاث بالنبى (انتهى) .

وكان الشيخ صالح الأحمدى الرفاعى ممن ينقم على شيخ الإسلام التزامه بالشريعة والسُنة ، وقد ترجم له ابن كثير فى (البداية ٤٥٦/١٤) قائلاً عنه : شيخ المنيع ، كان التتر يكرمونه كثيراً ، ثم قال : وهو الذى قال للشيخ تقى الدين بن تيمية بالقصر : **نحن ما يتفق حالنا إلا عند التتر وأما عند الشرع فلا** (انتهى) .

وإن من العجب أن تستسلم أرواح الشيوخ المطلقة ، ويذعن أصحاب التصريف العام والمقامات العالية (أصحاب الغوثية المزعومة والقطبانية الموهومة) أمام شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فلم يستطيعوا إيذاءه أو أن يدفعوا عن أنفسهم آثار خصومته كما يزعمون بالغيب والتأثير ، عدلوا عن ذلك كله – لأنهم يعلمون أنه وهم – وذهبوا إلى السلطان يرفعون إليه شكايتهم منه ومن أصحابه ، ويستدفعون به خصومته لهم ، وهذا دأبهم مع أهل السُنة فى كل زمان لا يستطيعون فى وجودهم وجداً ولا صرفاً ولا كشفاً ولا إلهاماً .

ويعلق الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق – حفظه الله – على هذا الكلام قائلاً : وليس ذلك بالطبع إلا لأن الشيطان يهرب إذا رأى من يؤمن بالله حقاً كما قال النبى ﷺ لعمر : « **إيه يابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك** » (١) ، وهؤلاء الصوفية لا يأتيهم فى مكانهم موحد إلا انتهت أحوالهم ، واضمحلت أنوارهم المزعومة ، وانفض سامرهم الشيطانى (انتهى) .

قلت : **هذا حق فمن كانت له مكاشفات ، أو إشارات ، أو قدرة على التصريف فليأت به أمام العلماء والجهابذة الذين يميزون الحق من الباطل ،**

---

(١) متفق عليه ، انظر البخارى فى الأدب (٥٧٣٥) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٩٧) .

والخبيث من الطيب ، أما أن يخدع الجهلة والعوام من الصوفية وغيرهم مما لا علم لهم بالأمور ولا بالشريعة ، فهذا لا يحسب لهم ولا كرامة .

مناظرة ابن تيمية مع الرفاعية البطائحية :

ولما اشتد نفير الصوفية على شيخ الإسلام دعاهم إلى المناظرة فنصره الله تعالى وأيده ، وذلوا لأوامره ، وخضعوا صاغرين لحججه ، وقد كان من ثقته بالله تعالى ثم بعظيم علمه أن ضيق عليهم الطريق أمام السلاطين، وأوقف مساعيهم الشريرة بإعلانه الواضح الباهر ، واستعداده لمناظرتهم فى أى مكان ، ولو كان ذلك عند السلطان ، وقد كان وتحقق له ذلك فى مواقف عديدة مع الصوفية وغيرهم ، ومن أمثلة ذلك مناظرته الباهرة العظيمة مع الرفاعية البطائحية .

بداية المناظرة :

ولما أراد شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى– أن يظهر للصوفية الحجة ويبصرهم بدين الإسلام دعا شيخهم فى المسجد الجامع فأبى ، وخرج هو وأتباعه من المسجد ، واضطربوا وضجوا ، وخرج الزبد من أفواهم ، وتقلبوا فى الأحوال حتى بلغ خبرهم إلى الأمير ، وعلم أنهم يشتكون من شيخ الإسلام ، فقالوا له : **نحن لنا أحوال وطريق يسلم لنا ، وطلبوا من الأمير أن يساندهم ضد شيخ الإسلام ، فقال لهم الأمير** : لا ، **ولكن أشد من الحق سواء كان معكم أو معه** ، فاجتمعوا عند الأمير ، وكان من جملة من تكلم بين يديه شيخ من الرفاعية يقال له عبد الله الكذاب ، يقول شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – : فانتدب ذلك الشيخ « عبد الله ورفع صوته » وقال : نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها ، فقلت له – ورفعت صوتى وغضبت – : **الباطن والظاهر والمجالس والمدارس والشريعة والحقائق كل هذا مردود إلى كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ، ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ، لا من المشايخ والفقراء ولا من الملوك والأمراء ولا من العلماء والقضاة وغيرهم ،**

بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ .

فقال – ورفع صوته – : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا ، وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها واختصاصهم بها ، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها ، فقلت – ورفعت صوتي وغضبت – **أنا أخاطب كل أحمدى من مشرق الأرض إلى مغربها ، أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون ، ومن احترق فهو مغلوب ، وربما قلت فعليه لعنة الله ، ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار .**

فسألني بعض الأمراء عن ذلك ؟ ، فقلت : لأن لهم حيلاً في الاتصال بالنار ، يصنعونها من أشياء من دهن الضفادع ، وقشر النارنج ، وحجر الطلق ، فضج الناس بذلك ، فأخذ يظهر القدرة على ذلك .

فقال : أنا وأنت نلف في بارية بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت .

فقلت : لا حتى تغتسل في الماء الحار والخل .

فأظهر الوهم على عادتهم فقال : من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال حزمة حطب .

قلت : هذا تطاول وتفريق للجمع ولا يحصل به مقصود ؛ بل قنديل يوقد وأدخل إصبعي وأصبعك فيه بعد الغسل ، ومن احترقت اصبعه فعليه لعنة الله أو قلت فهو مغلوب ، فلما قلت ذلك تغير وذل ، وذُكر لي أن وجهه اصفرَّ .

ثم قلت لهم : **ومع هذا لو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة ، ولو طرتم في الهواء ، ومشيتم على الماء ، ولو فعلتم ما فعلتم ، لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع ، ولا إبطال الشرع ؛** فإن الدجال الأكبر يقول للسماء أمطري فتمطر ، وللأرض أنبتي فتنبت ، وللخربة أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه ، ويقتل رجلا ثم يمشي بين

شقيه ثم يقول له قم فيقوم ، ومع هذا فهو دجال ملعون ، ورفعت صوتى بذلك ، فكان لذلك وقع عظيم فى القلوب .

وذكرت **قول أبى يزيد البسطامى** : لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء ويمشى على الماء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهى ، **وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعى** : **أتدرى ما قال صاحبنا يعنى الليث بن سعد ؟ قال** : **لو رأيت صاحب هوى يمشى على الماء فلا تغتر به فقال الشافعى** : **لقد قصر الليث لو رأيت صاحب هوى يطير فى الهواء فلا تغتر به** ، وتكلمت فى هذا ونحوه بكلام بعد عهدى به ، ومشايخهم الكبار يتضرعون إلى الأمير فى طلب الصلح ، وجعلت ألح عليه فى إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة ، وهم لا يجيبون .

وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين فى البلد والفقراء المولهون منهم ، وهم عدد كثير ، والناس يضجون فى الميدان ، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها ، فذكر بعض الحاضرين أن الناس قالوا ما مضمونه : ﴿ **فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩)** ﴾ [الأعراف : ١١٨ ، ١١٩] .

وذكروا أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب وأنه قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهماً ، فقلت : ظهر لى حين أخذ الدراهم وذهب أنه ملبس ، وكان قد حكى عن نفسه حكاية مضمونها أنه أدخل النار فى لحيته قدام صاحب حماة ، ولما فارقنى وقع فى قلبى أن لحيته مدهونة وأنه دخل على الروم واستحوذ عليهم ، فلما ظهر للحاضرين عجزهم وتلبيسهم ، وتبين للأمراء الذين كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون رجعوا ، وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهم بصورة الحال وعرفوا حقيقة المحال وقمنا إلى داخل ودخلنا .

وقد طلبوا التوبة عما مضى وسألنى الأمير عما تطلب منهم ، فقلت : متابعة الكتاب والسُنة مثل أن لا يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمها ونحو ذلك ، فقالوا : نحن ملتزمون الكتاب والسُنة ، أتنكر علينا غير الأطواق نحن نخلعها .

فقلت : وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله ﷺ وأعيد الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسُنة ضربت عنقه ، وأعاد الأمير هذا الكلام ، واستقر الكلام على ذلك ، والحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده (بتصرف من الفتاوى ١١/٤٦٤ - ٤٧٥) .

أمر عجيب !! :

وأعجب كثيراً بعد ذلك الحوار وتلك المناظرة البديعة لشيخ الإسلام مع الرفاعية البطائحية أن أجد الشيخ سعيد حوى وقد كان من أكبر منظرى جماعة الإخوان المسلمين يقول فى كتابه تربيتنا الروحية (ص ٢١٨) : إن هذا الشيء الذى يجرى فى طبقات أبناء الطريقة الرفاعية « يقصد ضرب الرجل نفسه بالشيش الحديد فى ظهره فيخرج من صدره ، ثم سحبه منه بلا ضرر ولا أثر » ويستمر فيهم هو من أعظم فضل الله على هذه الأمة ، ثم قال : إن الحجة الرئيسية لمنكرى هذا الموضوع هى أن هذه الخوارق قد تظهر على يد فساق من هؤلاء ، كما تظهر على يد صالحين ، وهذا صحيح ؛ والتعليل لذلك هو أن الكرامة ليست لهؤلاء ، بل هى للشيخ الأول ، الذى أكرمه الله عز وجل بهذه الكرامة ، وجعلها مستمرة فى أتباعه من باب المعجزة لرسولنا محمد ﷺ فهى كرامة للشيخ الذى هو الشيخ أحمد الرفاعى - رحمه الله - (انتهى) .

وفى الحقيقة من كثرة ما يعقب عليه فيما قال ينتاب المرء شيء من الأسى أن يسمى كتابه الذى حشاه بهذا الكلام المشين تربيتنا الروحية ، فياللحسرة ،

كم من أرواح فسدت بهذا الهراء ، الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع ! .
وأى تربية هذه التى تزكى بالدجل والشعوذة !! .

فقوله الآخير : « إن الكرامة ليست لهؤلاء بل هى للشيخ الأول » قول مردود إذ الأولى أن يقع للأمة الإسلامية بوجه عام نصر مؤزر على أعدائهم - الذين تداعوا عليهم من كل مكان - كرامة للرسول محمد ﷺ ، وقد مرت الأمة بمحن كثيرة تعجز عن حملها الجبال الرواسى ولا زالت فلم تظهر بين أهلها صالحين وفساقاً كرامات لأجل النبى محمد ﷺ ، وإنما الكرامات لأجل الإيمان والتقوى » .

وقد وعى الصحابة الدروس فى ذلك حتى فى وجود النبى ﷺ بينهم ، وفى غزوة أُحد لما تركوا الجبل أصابهم ما أصابهم ، ولما قالوا يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة ، أصابهم ما أصابهم، ولو أنهم انتصروا مع أخطائهم لقالوا: فرطنا وانتصرنا ، فلا يبقى بعد ذلك للصلاح ولا للتقوى كرامة ولا فضل .

الأمر الثانى : أن ما يحدث من الرفاعية كما تبيّن من المناظرة فى دخولهم النار وخروجهم منها سالمين ليس لأجل كرامة الشيخ ، كما توهم الشيخ سعيد حوى ، وإنما لأجل أن « لهم حيلاً فى الاتصال بالنار ، يصنعونها من أشياء من دهن الضفادع ، وقشر النارنج وحجر الطلق » ، أما ما يصنعونه من ضرب الشيش فى الظهر وإخراجه من الصدر فللشعبذة والسحر والاتصال بالجن دور لا ينكر فى مثل ذلك ، فلا هى كرامة ولا معجزة كما ظن الشيخ سعيد رحمه الله تعالى وغفر له .

الأمر الثالث : أن فائدة الكرامة المنفعة التى تعود على صاحبها فى المقام الأول من جهة حفظ الدين والتوحيد فى القلوب والثبات على ذلك ، فغاية الكرامة الاستقامة ، وهؤلاء من أصحاب الطريقة الرفاعية يتقلبون فى شرك القبور ، والغلو فى الصالحين ، وأكل أموال الناس بالباطل ، فقد اشتهروا

بالنصب على الناس فى جمع الثعابين من البيوت بعزائم شركية معلومة ، فأين هى الاستقامة ؟ وكيف يتجاوز عن ذلك كله بحجة أن هذه الخوارق تجعلنا لا نستغرب دخول إبراهيم النار وخروجه منها سالماً ، وشق صدر النبى ﷺ وغير ذلك ، هذا كلام مردود بل إن فى خلق السموات والأرض وما بث الله تعالى فيهما من دابة آيات باهرات ، لا يستعظم من رآها أن يصدق معجزات الأنبياء ، حتى ننتظر التصديق بها على طريق الرفاعية البطائحية .

الأمر الرابع : إن تناول تلك القضايا بهذه الكيفية عند منظرى الإخوان أدى إلى تهوين مسائل التوحيد والشرك والسنة والبدعة فى نفوس كثير منهم ، نسأل الله السلامة .

شيخ الإسلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمى وصراعه مع عباد القبور والمستغيثين بغير الله تعالى

وكما نصر الله تعالى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى - رحمه الله تعالى - وأيده على المبتدعة والغلاة من الصوفية ، نصر كذلك شيخ الإسلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - وأسكنه فسيح جناته .

وذلك أنه لم تنتفع أمة فى العصر الحديث برجل من رجالاتها مثلما انتفعت بلاد الحرمين بهذا الرجل المجاهد (صاحب العزيمة الراشدة والدعوة المباركة) بل وقد انتفع بدعوته جميع المسلمين فى شتى أقطار الأرض ، وما نحن وغيرنا ممن اتخذوا طريق السلف شرعة ومنهاجاً إلا بسبب بركة دعوة هذا الرجل وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى وإخلاص التوحيد له ، فقد كان دالاً عليه مجدداً له بينما لم يلتفت غيره إلى ذلك .

وما كان لتلك الدعوة أن تبلغ ذلك إلا بتوفيق الله تعالى وفضله ، وبسبب ما أوتيت من قوة حجة وحسن بيان - فلا تنطع ولا تكلف - وبما اشتهرت به من الحنين إلى سلف الأمة المبارك قولاً وعملاً واعتقاداً ، كما هو ظاهر البيان.

ولقد رأيت فى رسائله ، ورسائل أبنائه العلماء ، ومن تلقى منهم قوة حجة ، وصدق بيان ، وذكاءً خارقاً فى فهم العقيدة وتجريد التوحيد ، وإخلاص الاعتقاد لله تعالى ، وإسلام الاتباع لرسول الله ﷺ ما لم يكن مثله عند غيرهم، خاصة هؤلاء الذين هجروا مسائل التوحيد وجعلوا الصراع على تحقيق موضع « فى » و « حتى » فى اللغة أعظم الغايات بل أعظم من تحقيق التوحيد لله رب العالمين - وإن كان ضبط اللغة من الدين - وهى وسيلة من وسائله ولكنها

ليست هى غاية الدين – وأولئك الذين تربوا على أعتاب المشاهد حتى آنسوا الشرك والضلال فلم يفرقوا بين إيمان أبى جهل وإيمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

لقد جاء هذا الرجل بتلك الدعوة المباركة فى وقت حمى فيه وطيس البدعة ، واشتعل فيه لهيب الشرك حتى إنه لم يترك بيتاً ولا داراً فى بلاد العرب قاطبة إلا وقد دخله بسبب العبيديين الزنادقة الذين طردوا من بلاد المغرب ، ونشروا شركهم فى مصر ، وغيرها من بلاد المسلمين ، ولم ينج من ذلك إلا طائفة من المؤمنين وهكذا فى كل زمان .

يقول المؤرخ حسين بن غنام وهو يصف حال الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب : فى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى كان أكثر الناس قد انهمكوا فى الشرك ، وارتدوا إلى الجاهلية ، وانطمست بينهم أنوار الإسلام والسُّنة لذهاب أهل العلم والبصيرة ، وغلبة أهل الجهل ، واستعلاء ذوى الأهواء والضلال ، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم من الضلال ظانين أنهم أدرى بالحق وأعلم بطريق الهدى ، عدلوا عن عبادة الله وحده إلى عبادة الأولياء والصالحين من الأحياء والأموات ، يستغيثون بهم فى النوازل والكوارث ، ويقبلون عليهم فى الحاجات والرغبات ، ويعتقدون النفع والضر فى الجمادات ، كالأحجار والأشجار ، ويعبدون أهل القبور ، ويصرفون لهم الدعاء والنذور فى حالتى الضراء والسراء سواء ، زائدين على مشركى الجاهلية الأولى ، كانوا إذا مسهم الضر لا يدعون إلا الله مخلصين له الدين ، أما إذا نجاهم الله فهم مشركون .

كان فى بلدان نجد من ذلك أمر عظيم يأتون عند قبر زيد بن الخطاب فى الجبيلة فيدعونه لتفريج الكربات ، وكشف النوب ، وكان عندهم مشهوراً بذلك ، ومذكوراً بقضاء الحوائج .

وأما ما يفعل فى الحرم المكى الشريف – زاده الله رفعة وتشريفاً – فهو يزيد على غيره كثيراً ، ففى تلك البقاع المطهرة تأتى جماعات الأعراب من الفسوق والضلال والعصيان ما يملأ القلب أسى وحزناً .

وأما ما يفعل عند قبره عليه الصلاة والسلام من الأمور العظيمة المحرمة – كتعفير الخدود ، والانحناء والسجود خضوعاً وتذللاً ، واتخاذ ذلك القبر عيداً – فهو أعم من أن يخفى ، وأعظم من أن يذكر لشهرته وشيوعه ، وقد لعن الرسول فاعله ، وكفى بذلك زجراً ووعيداً ، ونهى عما يفعل عنده غالب العلماء ، وتغلظوا فى ذلك تغليظاً شديداً .

وأما ما يفعل فى جدة فقد عمت به البلوى ، وبلغ من الضلال والفحش الغاية ، فعندهم قبر طوله ستون ذراعاً ، عليه قبة يزعمون أنه قبر حواء ، وضعه بعض الشياطين من قديم وهيأه ، فيجىء عنده السدنة من الأموال كل سنة ما يكاد أن لا يخطر على بال (عقيدة الشيخ للعبود ص ٣٦ – ٣٨) .

ولقد جاهد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب جهاداً عظيماً لا نظير له فى زمانه ، ينشر التوحيد ويفرد الله تعالى بالعبادة والحكم والملك ، ويسترشد بالسُّنة ، ويوحد الاتباع لرسول الله محمد ﷺ ، ويقمع البدعة وأهلها وينفر الناس من مذاهب المتكلمين ، وآراء ذوى الأهواء والمتعالمين ، وما كان يتوانى عن إظهار الحق فى موضعه ، وإرسال الرسائل وكشف الشبهات ، وتعرية حجج الضالين المنحرفين ؛ حتى قاموا عليه قومة قساوسة هرقل لما أظهر لهم تعظيم الإسلام ولكن الشيخ لم يداهنهم ليستميل قلوبهم كما فعل هرقل مع القساوسة لأجل عرض من الدنيا ، وإنما جهر بالدعوة بأعلى صوته ، ولم يخش فى الله لومة لائم .

يقول المؤرخ حافظ وهبة : عندما رجع الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى وطنه جد به العزم أن ينقذ نجداً مما حل بها ، فبدأ يدعو الناس أن يعودوا إلى دين الله الصحيح ، ويتركوا ما جد من البدع وغيرها ، مما يتنافى مع نصوص الكتاب والسُّنة ، وفى الوقت نفسه طلب إلى الأمراء ذوى الشأن أن يطبقوا أحكام الشرع ، وقد قام بدعوته مسالماً لا يدعو إلى شدة أو عنف ، وراسل علماء عصره فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وأظهر ألمه لما أصاب المسلمين وحضهم على أن يكونوا من زمرة المصلحين الدينيين ، فكان ذلك سبباً طبيعياً لبغض خصومه ، أولئك الذين خافوا على سلطانهم من دعوته (عقيدة الشيخ السلفية للعبود – ص ٤٨٥) .

وكان – رحمه الله تعالى – يزن كل شيء بميزان الكتاب والسُّنة ، ولا يخلط الحقوق بعضها ببعض ، فلله تبارك وتعالى حقه فى العبادة لا يشاركه فيه غيره ، وللرسول حقه فى الاتباع والتصديق فيما أخبر والانتهاء عما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله تعالى إلا بما شرع ، وللصحابة حقوقهم فنذكر محاسنهم ولا نخوض فيما اختلفوا فيه ، ونحفظ اللسان عنهم ، ونترضى عنهم ونحبهم حباً يفوق حب الآباء والأبناء وذلك من علامات الإيمان .

ولقد كان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – يتمثل شعر ابن القيم – رحمه الله تعالى – فى النونية :

لله حق لا يكون لغيره ... ولعبده حق هما حقان

لا تجعلوا الحقين حقاً واحداً ... من غير تمييز ولا فرقان

فهذا هو ميزان التحقيق الذى جاهد من أجل إعلانه وإظهاره ؛ وقد لاقى من خصوم التوحيد وأعوان الشرك العنت والإيذاء الشديد بسبب تمسكه بهذا الميزان ، الذى هو أصل دعوة الأنبياء من لدن نوح عليه السلام إلى رسولنا محمد

ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ [النحل : ٣٦] .

فمن أجل هذه الآية أوذى شيخ الإسلام إيذاءً شديداً ، لم يتعرض لمثله فيما أعلم أحد من أهل زمانه فى حياته أو بعد مماته ، ولعل الله تعالى أراد أن يجرى له الثواب ويضاعف له الحسنات بعد موته وانقطاع عمله ، بما يقوله هؤلاء فى حقه من الأكاذيب والمفتريات ، فيأخذ من حسناتهم لتضاف إلى سجلات حسناته يوم القيامة « اللهم آمين » وذلك كما يجرى الله تعالى حسنات الصحابة – رضوان الله تعالى عليهم – بعد موتهم من جراء ما يتعرضون له من سباب الرافضة الشيعة الذين لا ينقطعون عن سبهم وتكفيرهم ليل نهار .

سهام خصوم التوحيد تُرَدُّ فى نحورهم والشيخ محمد يفند دعاواهم

قالوا عنه :

إنه مذهب خامس وأنه جاء بما لم يأت به العلماء من قبل :

وهذا كلام حاقد ونزع مفلس ؛ إذ ليس من دعا إلى الله تعالى وتوحيده يكون كمن نحا فهما فى حكم من الأحكام أو اختار عملاً حسب مقتضى الدليل الذى يسوغ فيه الاجتهاد .

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله تعالى - : رداً على من قال ذلك : وقوله مذهب خامس يبين جهله ، وأنه لا يعرف العلم ولا العلماء فإن الذى قام به شيخ الإسلام لا يقال له مذهب ، وإنما يقال له دين وملة فإن التوحيد هو دين الله وملة خليله إبراهيم ، ودين جميع الأنبياء والمرسلين .

ثم قال : وأما ما جرى على ألسن العلماء من قولهم مذهب فلان أو ذهب إليه فلان ؛ فإنما يقع فى الأحكام لاختلافهم بحسب بلوغ الأدلة وفهمها ، وهذا لا يختص بالأئمة الأربعة - رحمهم الله - بل مذاهب العلماء قبلهم وبعدهم فى الأحكام كثيرة (الدرر السنية ١/ ٤٤٠) .

أما مذهبهم فى الأحكام فهو مذهب الإمام أحمد إمام أهل السُنة - رحمه الله تعالى - .

قال الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد - رحمه الله تعالى - : وأما مذهبنا فمذهب الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السُنة والجماعة ، ولا ننكر على أهل المذاهب الأربعة إذا لم يخالف نص الكتاب والسُنة وإجماع الأمة وقول

جمهورها . (انظر عقيدة الشيخ للعبود ص ٢٢١) .

ويقول الشيخ - رحمه الله تعالى - : « **فنحن ولله الحمد متبعون غير مبتدعين ، مقلدون للكتاب والسُنة وصالح سلف الأمة على مذهب أهل السُنة والجماعة الذى هو على أمر الله ورسوله محمد ﷺ ، وعليه الرسول ﷺ وصحابته والتابعون وأتباعهم ، وإجماع علماء المسلمين وأئمة الدين ممن أجمع أهل الحق على هدايتهم ودرايتهم مثل الأئمة المقتدى بهم من أهل الحديث والفقه كالأئمة الأربعة أبى حنيفة النعمان بن ثابت ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس وأحمد بن حنبل - رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين -** .

وكذلك ما درج عليه الأعلام من أتباع هؤلاء الأئمة فنحن على ذلك ، وإن خالفنا غالب الناس فى ما أحدثوا فى دينهم من الحوادث ، لأننا على ما كان عليه أهل السُنة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية ، وهم سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وإن صرنا غرباء فطوبى للغرباء . (مؤلفات الشيخ الشخصية ، انظر عقيدة الشيخ للعبود ص ٢٢٠-٢٢١) .

قالوا عنه : إنه يدعى الاجتهاد المطلق :

يقول الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد : ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق ولا أحد لدينا يدعيه إلا أننا فى بعض المسائل إذا صح لنا نص جلى من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه وقال به أحد الأئمة أخذنا به وتركنا المذهب ؛ فإنا نقدم الجد بالإرث وإن خالف مذهب الحنابلة . (الدرر السنية ١٢٦/١) .

قالوا عنه إنه : يكفر عموم الناس إلا من كان معه فى جماعته :

وهذا كذب واختلاق يراد منه تنفير الناس منه، وصدهم عن دعوته ، وقد كذبهم الشيخ فيما نسبوه إليه أنه يكفر بالعموم ، فقال - رحمه الله تعالى - :

وأما الكذب والبهتان فمثل قولهم إنا نكفر بالعموم ، ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه ، وأنا نكفر من لم يكفر ومن لم يقاتل ، ومثل هذا وأضعافه من الكذب والبهتان الذى يصدون به الناس عن دين الله ورسوله ، وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذى على عبد القادر ، والصنم الذى على قبر أحمد البدوى وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم ، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل ؛ ﴿ سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٦] . (انظر الدرر السنية ١/٦٦] .

قالوا عنه : إنه يسب الأولياء ويبغض الصالحين :

يقول الشيخ : أشاعوا عنا أنا نسب الصالحين، وأنا على غير جادة العلماء ، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب ، وذكروا عنا أشياء يستحى العاقل من ذكرها (مؤلفات الشيخ انظر عقيدة الشيخ للعبود ص ٢٠٦) .

فقال رداً على ذلك : ﴿ سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ ولكن قبله بهتوا محمداً ﷺ أنه يسب عيسى بن مريم عليه السلام ويسب الصالحين ، تشابهت قلوبهم ، وبهتوه بأنه يزعم أن الملائكة وعيسى وعزيراً فى النار ، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] . (المصدر السابق ص ٢٠٦) .

قالوا عنه : إنه يكفر من يزور المقابر :

وهذا غير صحيح وقد رد ذلك عنه العلامة محمد شكرى الألوسى فى غاية الأمانى فقال – رحمه الله تعالى – : فإنه لم يقل إن زيارة قبر النبى ﷺ أو قبور سائر الأنبياء والصلحاء الزيارة المشروعة شرك ، بل ندبها واستحبها ، نعم إن الزيارة المخالفة لما ورد ليست بمقبولة ، كما أنها كذلك عند المحققين من الأئمة . (غاية الأمانى ١/٣٠٥) .

قالوا : إنه يكفر من يتوسل بالصالحين :

وهذا ليس من دأبه ولا من دأب أولاده وتلاميذه ، فهذه رسالة إسحاق بن عبد الرحمن إلى المحب المكرم عبد الله بن أحمد وفيها يقول له : فقد عرفت - سلمك الله - كلام الناس فى مسألة سؤال الله بالمخلوق والإقسام على الله به ، وقد ذاكرتك فيها بأن الذى نعتقده أنا لا نكفر بها أحداً ، بل نقول : هى بدعة شنيعة نهى عنها السلف ، وقد قال مالك رضي الله عنه : لن يصلح حال آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وقوله ﷺ : « **دَع ما يريبك إلى ما لا يريبك** »(١) ، وإن لم يكن هذا من الشرك فهو وسيلة إليه ، لابد أن يقوم بقلب صاحبه شىء من الاعتماد . (انظر الدرر السنية ١/٥٤١) .

(١) رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٨) والنسائى فى الأشربة (٥٧١١) وأحمد فى المسند (٢٧٨١٩) والدارمى فى البيوع (٢٥٣٢) . انظر صحيح الترمذى (٢٦٥٠) .

عقيدة الإمام محمد بن عبد الوهاب
- رحمه الله تعالى -

قال شيخ الإسلام العالم الربانى محمد بن عبد الوهاب – أجزل الله له الأجر والثواب ، وأسكنه الجنة بغير حساب – لما سأله أهل القصيم عن عقيدته:

أُشهد الله ومن حضرنى من الملائكة وأشهدكم أنى أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهلَ السُنة والجماعة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره .

ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، فلا أنفى عنه ما وصف به نفسه ، ولا أحرف الكلم عن مواضعه ، ولا ألحد فى أسمائه وآياته ، ولا أكيف ولا أمثل فى صفاته تعالى بصفات خلقه ؛ لأنه تعالى لا سمى له ، ولا كفء له ، ولا ند له و لا يقاس بخلقه ، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلاً ، وأحسن حديثاً فنزه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتمثيل ، وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل فقال : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] .

والفرقة الناجية : وسط فى باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية ، وهم وسط فى باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية ، وهم وسط فى باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية ، وهم وسط فى باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض والخوارج .

وأعتقد أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ، وأنه تكلم به حقيقة ، وأنزله على عبده ورسوله ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بين عباده نبينا محمد ﷺ .

وأومن بأن الله فعَّال لما يريد ، ولا يكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته ، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره ، ولا يصدر إلا عن تدبيره ولا محيد لأحد عن القدر المحدود ، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور .

وأعتقد الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت ، فأومن بفتنة القبر ونعيمه ، وبإعادة الأرواح إلى الأجساد ؛ فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلاً تدنو منهم الشمس ، وتنصب الموازين ، وتوزن بها أعمال العباد ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾ [المؤمنون : ١٠٢ - ١٠٤] ، وتنشر الدواوين فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله .

وأومن بحوض نبينا محمد ﷺ بعرصة القيامة ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، آنيته عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وأومن بأن الصراط منصوب على شفير جهنم ، يمر به الناس على قدر أعمالهم .

وأومن بشفاعة النبي ﷺ وأنه أول شافع وأول مشفع ، ولا ينكر شفاعة النبي ﷺ إلا أهل البدع والضلال ، ولكنها لا تكون إلا بعد الإذن والرضى كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾ [النجم : ٢٦] ، وأما المشركون فليس لهم من الشفاعة نصيب كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) ﴾ [المدثر : ٤٨] .

وأومن بأن الجنة والنار مخلوقتان ، وأنهما اليوم موجودتان ، وأنهما لا يفنيان ، وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون فى رؤيته .

وأومن أن نبينا محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ، ويشهد بنبوته ، وأن أفضل أمته أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ثم على المرتضى ثم بقية العشرة ثم أهل بدر ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان ثم سائر الصحابة رضى الله عنهم .

وأتولى أصحاب رسول الله ﷺ ، وأذكر محاسنهم ، وأترضى عنهم ، وأستغفر لهم وأكف عن مساوئهم ، وأسكت عما شجر بينهم ، وأعتقد فضلهم عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ [الحشر : ١٠] وأترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات من كل سوء .

وأقر بكرامات الأنبياء وما لهم من المكاشفات إلا أنهم لا يستقون من حق الله تعالى شيئاً ، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله ، ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا بنار إلا من شهد له رسول الله ﷺ ، ولكنى أرجو للمحسن وأخاف على المسئ ، ولا أكفر أحداً من المسلمين بذنب ، ولا أخرجه من دائرة الإسلام .

وأرى الجهاد ماضياً مع كل إمام براً كان أو فاجراً ، وصلاة الجماعة

خلفهم جائزة ، والجهاد ماضٍ منذ أن بعث الله محمداً ﷺ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال ، لا يبطله جور جائر ، ولا عدل عادل .

وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم ما لم يأمروا بمعصية ، ومن ولى الخلافة واجتمع عليه الناس ، ورضوا به وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته ، وحرم الخروج عليه .

وأرى هجر أهل البدع ومباينتهم حتى يتوبوا ، وأحكم عليهم بالظاهر ، وأَكِلُ سرائرهم إلى الله ، وأعتقد أن كل محدثة فى الدين بدعة .

وأعتقد أن الإيمان قول باللسان ، وعمل بالأركان ، واعتقاد بالجنان ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، وهو بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، وأرى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على ما توجبه الشريعة المحمدية الطاهرة ، فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندى والله على ما نقول وكيل . (الدرر السنية ٢٩-٣٣) .

وبعد :

فهذه عقيدة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - فاقرأها بإنصاف ثم إنى أسألك بالله تعالى ، وهو المراقب على أقوالك وأفعالك ، هل رأيت فى عقيدته ما يخالف ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه - رضوان الله عليهم - ؟ هل رأيت فيها ما يخالف أحمد والشافعى ومالكاً وأبا حنيفة - رحمهم الله تعالى - ؟ .

إن لم تر ذلك فلم لا تؤنس قلبك ، وتفسح صدرك لما كان عليه هؤلاء من حسن الاعتقاد ونبذ الشرك والخرافة والدجل ، وحسن الاتباع والاستقامة والعمل ؟ .

قد يتردد لسانك عند الإقرار أو يقف قلبك عن التسليم ، وتقول : كيف أخالف دينْ الأولين ؟ وكيف أخطئ السابقين ؟ .. ولكنى أقول لك : هذه دعوة سيد المرسلين وتلك حقيقة التوحيد وهذا أساس الدين ، فكيف تتولى عنه بنفس حجج المشركين ؟!! ..

أيها الراجى رحمة ربك تفكر بصدق نفس وأفصح بحسن عبارة ، واهجر ما خالف شريعة الإسلام ، لعل ذلك ينصفك غدا بين يدى الرحيم الرحمن ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء : ٨٨ - ٨٩] ، ولا تجعل رسول الله ولا صحبه الكرام ولا علماء التوحيد ولا معتنقيه خصماء لك يوم القيامة .

تقسيم التوحيد

التوحيد هو علم العبد وإقراره واعتقاده بتفرد الرب سبحانه وتعالى بصفات الكمال ، لا شريك له فى ذلك ، فله الربوبية والألوهية على جميع خلقه ، وعلى ذلك قسم علماء السلف التوحيد ثلاثة أقسام : قسم يتكلم عن ربوبية الله تعالى ، والثانى عن ألوهيته ، والثالث عن أسمائه الحسنى وصفاته العليا .

النوع الأول : توحيد الربوبية :

أما توحيد الربوبية فهو إفراد الله تعالى بالخلق والأمر والملك والتدبير لا يشاركه فى ذلك أحد ، والإيمان بذلك مما فطر عليه كل مخلوق ، وشهدت به كل نسمة ، والمنكرون لهذا النوع من التوحيد قلة شاذة فى تاريخ الأمم .

النوع الثانى : توحيد الألوهية :

أما النوع الثانى من التوحيد فهو توحيد الألوهية : وهو إفراد الله تعالى بالعبادة ويشمل ذلك إفراده بالخوف والرجاء والحب والتعظيم ، والإخلاص له فى ذلك كله ، لا ينازعه فيه ملك ولا نبى ولا ولي ، وهذا التوحيد من لوازم توحيد الربوبية فمن أيقن بتفرد الله تعالى بالأمر والخلق والتدبير فلا يرجو غيره ، ولا ينادى ولا يخاف أحداً سواه ، ومن أقر بعظمة الله تعالى فلا يبدل شرعه ، ومن أقر بمحبته فليطع أمره ، قال تعالى :﴿ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر : ٣] ، وتوحيد العبادة هو مبلغ دعوة الرسل جميعاً ، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل : ٣٦] .

وهو الذى كانت فيه الخصومة ، وهو الذى ترتب على مخالفة كفار قريش له استحلال أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ، وهو المعنى الدقيق المفسر لكلمة التوحيد لا إله إلا الله ، وإن كانت تلك الكلمة تجمع جميع معانى التوحيد

وأقسامه بالتضمن والالتزام ، فتوحيد العبادة أصل دعوة الرسل ، وما من رسول إلا دعا قومه إلى ذلك .

النوع الثالث : هو توحيد الأسماء والصفات :

والنوع الثالث من التوحيد هو توحيد الأسماء والصفات ، ويراد به تقديس ذات الرب جل وعلا ، وتنزيهه من كل نقص ، ووصفه بكل كمال ، وإثبات أسمائه تعالى وصفاته على وفق ما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[الشورى : ١١] ، فقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ ينفى التشبيه والتمثيل ، وقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ ينفى الإلحاد والتعطيل ، وتثبت أسماء الله تعالى وصفاته أيضاً على وفق ما وصف به محمد ﷺ ربه تعالى ذكره ، فالله تعالى ليس كخلقه ، وأهل السنة يقرون ذلك بلا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تجهيل ، بل ويعظمون هذه المسألة ويقدرونها ولا يهملونها كشأن المتهافتين الذين يجعلونها من مسائل الفروع ، التى لا تؤثر فى مسائل الاعتقاد ولا فى تقدم المسلمين ، وقولهم هذا مردود ولا كرامة ؛ وذلك لأن من لم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته ، ولم يحقق معانيها ويبلغ آثارها فلن يحقق شريعة ؛ ولن تستقيم له عبادة . وأهل السنة يثبتون معانى الأسماء كما أراد الله تعالى ؛ ولا يفوضونها ولا يجهلونها . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)** ﴾ [يوسف : ٢] ، ويثبتون الكيف ولا يسألون عنه التزاماً بقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا (٣٦)** ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

قال الإمام مالك – رحمه الله – لمن سأله عن الاستواء : الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . (انظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ١١٦) .

وهذه القاعدة تجرى على جميع صفات الله تبارك وتعالى ، وأهل السُنة لا يمثلون الله تعالى بخلقه (ومن فعل فقد كفر) ، ولا يحرفون المعانى عما أراد الله تعالى كما فعل الأشاعرة فى بعض الصفات ، ولا يعطلونها ولا ينكرونها كما فعل المعتزلة والجهمية فى كل الأسماء والصفات ، قال تعالى : ﴿ **وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

ويقصد من معرفة أسماء الله تعالى وصفاته الوقوف على ما يراد من معانيها وأحكامها وحفظها ، ودعاء الله تبارك وتعالى بها ، ولذلك ينبغى معرفة أسماء الله تعالى جيداً ، ومعرفة آثارها ودلالاتها على مراد الله تعالى ورسوله ، إذ لا يصح للمرء أن يعبد إلهاً مجهولاً اسمه وصفته وفعله ؛ فهذا يرمى به إلى التخبط وسوء الظن بالله تعالى ، وإهمال الشرائع والأحكام ، بل إن الظالم لا يقع فى المعصية إلا بسبب جهله بأسماء الله تعالى وصفاته علماً ومعنى وأثراً ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)** ﴾ [فصلت : ٢٢ ، ٢٣] .

التوحيد عند الصوفية

أما التوحيد عند الصوفية فهم يجعلون توحيد الربوبية هو الغاية فى التوحيد يقول ابن أبى العز الحنفى فى الطحاوية : وهذا التوحيد هو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية (ص ٢١) .

ولذلك يرون أن من عرف الله ربا فقد عرف الله إلهاً ؛ فالربوبية عندهم هى الألوهية ، وأغلب تفسير الصوفية للتوحيد يدور حول توحيد الربوبية .

قال الجنيد بن محمد : التوحيد : علمك وإقرارك بأن الله فرد فى أزليته ولا ثانى معه ، ولا شيء يفعل فعله . (الرسالة ٣١/١) .

وقد أثر هذا المفهوم ولا شك على تحقيق العبادة والشريعة فكثر بين غلاة الصوفية وعامة مريديهم الوقوع فى أنواع الشرك الأكبر والأصغر - من الاستغاثة بغير الله تعالى وطلب المدد من غير الله ، وسؤال الأموات وندائهم ، والذبح لهم والنذر ، والطواف بقبورهم والتبرك بهم والتوسل ، والخوف منهم والغلو فى مدحهم ، وغير ذلك من أمور البدع التى لم تنتشر فى أمة مسلمة إلا من قبلهم ، وسيتضح لك ذلك فى باب البدع .

وأهل السنة يقرون بجميع أنواع التوحيد ، ويؤمنون به ، أما غيرهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض .

وللصوفية فى باب توحيد الأسماء والصفات ثلمات كثيرة : فبعضهم يذكرون الله تعالى بترديد ضمير الغيبة هو هو هو ، وهو هذه ليست من أسماء الله ، إنما هى من مخترعات الصوفية ، وينصرف معناها إلى ما يتحقق فى الذهن عند ذكرها ، فقد تدل على الله تعالى أو على غيره ، وعند الصوفية نوع من الذكر ليس له أى تصريف ولا معنى ، ومنه قول أحدهم : أه أه أه أه ،

ويعتبر بعضهم ذلك من أسماء الله تعالى ، ويرون من جرب الذكر بهذا فقد بلغ مقاماً عالياً .

وللملاحدة الصوفية فى الأسماء مشارب ضالة ما أنزل الله بها من سلطان.

قال الشيخ عبد الرحمن الوكيل فى دعوة الحق (ص ٣٧/ – ٣٨) : أما أسماء الإله عندهم فهى العماء أو الوجود المطلق والحقيقة المحمدية عند التعيين الأول ، وهو اسم الله الأعظم و « الحق » إذا نظرت إليه من حيث باطن الذات ، والخلق إذا نظرت إليه من حيث ظاهر الذات ، أو من حيث تعييناته . (انتهى) .

ويرى بعض الصوفية أن بعض الآيات والأذكار إذا ذكرت فى مقام غير مناسب أضرت من تكلم بها ، يقول ابن عطاء : اسمه تعالى « المتين » يضر أرباب الخلوة وينفع أهل الاستهزاء بالدين . (أنظر مفتاح الفلاح ص ٢٣) .

أما فى باب الصفات فكثير من الصوفية الذين تبعوا أبا القاسم القشيرى أشاعرة فى هذا الباب ، بينما هذا لم يكن فى الذين من قبلهم من الصوفية الأولين من الاستنان بمذهب أهل السنة والجماعة من سلف الأمة .

حتى إن عبد القادر الجيلانى لما سئل : هل كان لله ولى على غير اعتقاد أحمد بن حنبل ؟ فقال : ما كان ولا يكون . (الاستقامة ١ / ٨٦) .

وقد اعترض الصوفية على تقسيم التوحيد إلى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات كما فعل أئمة السلف ، بل قالوا : إن هذا التقسيم مبتدع.

يقول الشيخ أحمد بن دحلان فى الدرر (ص ٨٣) : وأما جعلهم التوحيد نوعين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فباطل أيضاً ، فإن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، ولم يقل ألست بإلهكم فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية ، ومن المعلوم أن من أقر لله بالربوبية فقد أقر له بالألوهية ، إذ ليس الرب غير الإله بل هو الإله

بعينه . (انتهى) .

وهذا الكلام فيه نظر ، وذلك لأن من يستقرئ أدلة القرآن والسُنة يرى أن هذا التقسيم ثابت غير مخترع ، فقد دل القرآن على أن قوماً أقروا بربوبية الله تعالى ، واعترفوا بوجوده ، وأثبتوا ذاته ، ومع ذلك كفرهم الأنبياء وعادوهم وحاربوهم واستحلوا أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، ورتبوا على ذلك خسرانهم فى الدنيا والآخرة ، فلو كان توحيد الربوبية الذى آمنوا به هو نفسه توحيد الألوهية أو متضمن له ففى أى شىء كانت الخصومة لما قالوا : ﴿ **أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا** ﴾ [ص : ٥] .

وقد كان أئمة السلف على حق فى بيان تقسيم التوحيد وأن هناك فرقاً بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وليس هذا التفريق فى الذات حاشا وكلا، فالله هو الرب بمعنى أن اسم الله يدل على ذات الرب جل وعلا ، كما أن اسم الرب يدل على ذات الله جل وعلا ، إنما يقولون فى توحيد الربوبية إنه اختصاص الله تعالى بالفعل الكونى القدرى مثل الخلق والإحياء والملك التدبير فلا يستطيع أحد أن يفعل كفعله تبارك وتعالى ولا أن يخلق كخلقه ، قال تعالى : ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهذا الاعتقاد يؤمن به المؤمن والكافر ، أما توحيد الألوهية فهو إفراد الله تعالى بالعبادة الواجبة على العبيد شرعاً والمطلوب منه ديناً ، من دعاء وخوف وحب وتعظيم وغيرها ، واستحقاق الله تعالى لذلك دون سواه ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر : ٣] .

قال شيخنا العلامة سعد عبد الرحمن ندا – حفظه الله تعالى – : ففعل الله تعالى خاص بتوحيد الربوبية ، وإفراد الله تعالى بالعبادة هو توحيد الألوهية ، وهذا التوحيد لا نصيب للكفار فى الإقرار به ، وأما المؤمنون فلهم بحمد الله منه النصيب الأوفى . (انتهى) .

والأنبياء جاءوا بتوحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية ، وأهل السُنة يقولون : إن الألوهية من لوازم الربوبية والألوهية متضمنة للربوبية أى : لأجل أنه رب استحق أن يُعبد ، ولكن ليس كل من آمن بربوبية الله تعالى على خلقه يكون مقراً بألوهيته بل قد يعبده أو يعبد غيره .

يقول ابن أبى العز الحنفى - رحمه الله تعالى - فى شرح الطحاوية (٢٥٢) : والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد ، وبيانه وضرب الأمثال له ، ومن ذلك أن يقرر توحيد الربوبية ويبين أنه لا خالق إلا الله ، وأن ذلك مستلزم أن لا يُعبد إلا الله ، فيجعل الأول دليلاً على الثانى ، وإذ كانوا يسلمون الأول وينازعون فى الثانى ، فيبين لهم الله سبحانه : أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده وأنه هو الذى يأتى العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له فى ذلك ، فلم تعبدون غيره وتجعلون معه آلهة أخرى ؟ (انتهى) .

وقد تكلم فى بيان أقسام التوحيد كثير من أهل العلم ، وهذه عقيدة الإمام أبى جعفر الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١هـ من أتباع أبى حنيفة وقد قال : نقول فى توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : أن الله واحد لا شريك له ، ولا شىء مثله ولا شىء يعجزه ولا إله غيره (ص / ١٧) فقد قسم - رحمه الله تعالى - التوحيد إلى نوعين : توحيد المعرفة والإثبات ، يثبت فيه ربوبية الله تعالى وأسماءه وصفاته ، وهو قوله : (لا شىء مثله ولا شئ يعجزه) وتوحيد الطلب والقصد وهو قوله : « ولا إله غيره » ، وهو ما يشار به إلى توحيد العبادة والإلهية .

وهذا الرجل عاش فى القرون الثلاثة المفضلة ، وأوائل القرن الرابع كما ترى قبل ابن تيمية وغيره - رحمهم الله جميعاً - فقد كانت عقيدتهم واحدة .

وقال ابن جرير الطبرى المولود سنة (٢٢٤ هـ المتوفى ٣٣١ هـ)فى تفسير قول يعقوب لبنيه : ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي** ﴾ [البقرة : ١٣٣] أى شئ تعبدون من بعدى ، أى : من بعد وفاتى ؟ قالوا : نعبد إلهك يعنى به قالوا بنوه له : نعبد معبودك الذى تعبده ومعبود آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ، أى : نخلص له العبادة ، ونوحد له الربوبية ، فلا نشرك به شيئاً ولا نتخذ دونه رباً (١/٥٦٢) .

وفى رد هدهد سليمان على شرك مملكة سبأ دليل على علمه بأقسام التوحيد ، فقد استنكر عليهم عدم توحيدهم الله تعالى بالعبادة وقال : ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ** ﴾ [النمل : ٢٥] ، وبين لهم أن الله تعالى يستحق ذلك ؛ لأجل أنه الرب الجليل الخالق العظيم ﴿ **الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [النمل : ٢٥] ، فهو الذى يُخرج الماء من السماء وينبت البذور فى الأرض أو فهو الذى يقدر المقادير فى السماء ، ويخلق لكم ما تعملون فى السماء وفى الأرض ، وهذا هو توحيد الربوبية ، ثم أثبت العلم لله تعالى بجميع دقائقه وتفاصيله فهو ﴿ **يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** (٢٥) ﴾ [النمل : ٢٥] ، يعلم سركم ونجواكم ويحاسبكم على أعمالكم ، فهو رب العرش العظيم المالك المهيمن على أعظم المخلوقات ؛ فكيف يعجزه أمركم وهو مهيمن على أعظم المخلوقات ؟ وهذا هو توحيد الأسماء والصفات ، فإيمان الهدهد أكمل من إيمان دحلان وأمثاله .

وبالرغم أن الصوفية أنكروا ذلك على أهل السُنة فإنهم أى الصوفية قسموا التوحيد تقسيماً عجيباً ، ما أنزل الله به من سلطان ، وليس له أصل فى دين الإسلام ، ولم يقل به أحد من أئمة أهل السنة على الإطلاق ، فلا إله إلا الله عندهم : توحيد العامة ، ولا إله إلا هو توحيد الخاصة ، ولا هو إلا هو توحيد خاصة الخاصة ، وهذان النوعان محل اعتبار عند الاتحادية والحلولية ،

وعليهما يدور مفهوم الفناء .

وقد صرح بذلك الغزالى فى (مشكاة الأنوار ص ١٢٤)وقال: لا إله إلا الله توحيد العوام ، ولا هو إلا هو توحيد الخواص . (انتهى) .

قال ابن أبى العز - رحمه الله تعالى - فى شرح الطحاوية (ص ٨٩) ولا شك أن النوع الثانى والثالث من التوحيد الذى ادعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة ينتهى إلى الفناء ، الذى يشمر إليه غالب الصوفية ، وهو درب خطر يفضى إلى الاتحاد . (انتهى) .

وتأتى أهمية هذا التقسيم الذى أثبته أهل السُنة فى معرفة حقوق الله تعالى التى لا ينبغى أن تصرف لأحد سواه ، والجهل بهذه الحقوق جهل بصفات الله تعالى وأسمائه .

فالخلاف ليس فى إثبات الذات كما فهم دحلان ، وإنما الخلاف فى إثبات الصفات والحقوق اللازمة لها ، فاسم الرب يتضمن اختصاص الله تعالى بالخلق والملك والأمر والتدبير ، واسم الإله أو الله يدل على اختصاص الله بالعبادة والتأله ، وهما فى نفس الوقت يدلان على ذات الله تعالى بالمطابقة ، فالله هو الرب نفسه تبارك وتعالى ، ولكن لاسم الرب صفة الربوبية ولاسم الله صفة التأله ، هذا هو الفارق بينهما .

ومن هنا يتبين خطأ دحلان وأمثاله من الصوفية ، فى فهم أقسام التوحيد كما فهمها السلف الصالح رضوان الله عليهم ، ويتبلور هذه الخطأ فى أمرين :

الأول : أنه ظن أن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

وهذا الفهم غير صحيح ؛ لأن اسم الرب ذكر فى الآية مفرداً ، وهذا يدل

على اشتمال معناه على نوحى التوحيد معاً الربوبية والألوهية ، وينطبق ذلك أيضاً على معنى الله أو الإله إذا ذكر مفرداً ، فإنه أيضاً يدل على نوعى التوحيد معاً ، أما إذا اجتمعا معاً فى جملة واحدة فاسم الرب كما تقدم يدل على الربوبية ، واسم الله يدل على توحيد الألوهية .

الثانى : أنه ظن أن الإقرار بتوحيد الربوبية يتضمن الإقرار بالألوهية ، وهذا غير صحيح كما تبين من اعتقاد السلف ، بل الصحيح أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية ، ويلزم من الإيمان بتوحيد الربوبية الإيمان بالألوهية .

الباث الثاني
مصادر التصوف ووسائله

تشرب الصوفية من الفرق والملل المخالفة للإسلام :

لم يعد يخفى على الناظر فى الفكر الصوفى أن يراه نسيجاً مؤلفاً من الفلسفات الباطنية واليونانية والرومانية ، وهذه أصولهم ومناهجهم النظرية والعلمية تبوح بذلك ، ومما يتداول من ألفاظهم تتضح لك مشاربهم ، فعندهم واجب الوجوب ، والعلة الفاعلة ، والهيولى ، والهباء ، وعلم المعاملة ، والمكاشفة ، وعلم الباطن ، كل هذه المصطلحات من نتاج تلك الفلسفات .

قال ابن تيمية فى (الفتاوى ٤/ ١٦٤) : وأبو حامد يميل إلى الفلسفة ، ولكنه أظهرها فى قالب التصوف والعبارات الإسلامية ؛ ولهذا رد عليه علماء المسلمين ، حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربى فإنه قال : **شيخنا أبو حامد دخل فى بطن الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منها فما قدر** ، وقد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجب تصديق ذلك فى كتبه ، ورد عليه العلماء المذكورون قبل . (انتهى) .

وإن المتأمل فى النظريات والمقامات والأحوال التى غشيت الفكر الصوفى لا يمكن أن يفصلها أيضاً عن العقيدة النصرانية والعقائد الوثنية القديمة ، فقد كانت فى الأصل العمود الذى ارتكن عليه الصوفية لبناء مذاهبهم ومعتقداتهم.

يقول ابن أبى العز الحنفى فى شرح الطحاوى (ص ٤٤٥) : **وأكثر المنحرفين من العباد من الصوفية ونحوهم فيه شبه من النصارى ، ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك** . (انتهى) .

وهذا نيكلسون المستشرق الصليبى يقول : إن أثر المسيحية والفلسفة

الأفلاطونية الحديثة والفلسفة البوذية عامل لا سبيل إلى إنكاره فى تكوين التصوف الإسلامى ، وقد كانت هذه المذاهب والفلسفات متغلغلة فى الأوساط التى عاش فيها الصوفية ؛ فلم يكن بد من أن تترك طابعها فى مذاهبهم ، ولدينا أدلة كافية توضح أثرها فى التصوف ومكانتها منه . (انظر تاريخ التصوف الإسلامى ص — ٤٥ د . عبد الرحمن بدوى) .

فلم يكن تشرب الصوفية من الفرق الباطنية والديانات الوثنية أمراً غائباً عن الباحث فى الفكر الصوفى ، فضلاً عن المتعمق فى علوم الاجتماع والنفس ، وكل عامىّ فى أمور الدين يستطيع أن يلحظ حقيقة ذلك ، ومن الواضح أن أدلة التشرب والمحاكاة والتقليد بدون مسألة توارد الخواطر ثابتة بين الصوفية فى شتى أنحاء العالم سواء صوفية الفلسفات أو صوفية الحقائق والآداب أو صوفية الرسوم .

ومن الأدلة على ذلك :

١ — أن الرسول ﷺ بيّن أن طائفة من أمته ستتبع سنن من كان قبلهم من اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة ، يأخذون منهم الأهواء والبدع ، وهذا يدل على قوة المحاكاة والتشرب ، وهذا أكثر ما وقع فى هذه الأمة عن طريق الصوفية والشيعة ، روى البخارى عن أبى سعيد رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جُحر ضبٍّ لسلكتموه** قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ، **قال : فمن** »[1] .

٢ — أن كثيراً من الصوفية صرحوا أنهم تعلموا على أيدى رهبان النصارى فقد حكى الغزالى فى الإحياء (٣٣٤/٣) عن إبراهيم بن أدهم أنه قال : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان (انتهى) .

---

(١) متفق عليه : انظر البخارى باب أحاديث الأنبياء (٣١٦٩) ومسلم باب العلم (٢٦٦٩) .

وهذا أبو حامد نفسه يفتح أبواب معالجة القلوب عن طريق عباد الهند فيقول : وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طوال الليل ، على رجل واحدة لا يتنقل عنها ، وضرب مثلاً بتجربة أحد شيوخ الصوفية فى ذلك فيقول : وبعض الشيوخ فى ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام ؛ فألزم نفسه القيام على رأسه طوال الليل ؛ ليسمح بالقيام على الرجل على طوع ثم قال : فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . (الإحياء ٣/ ٦٢) ، وقد شهد شاهد من أئمة الصوفية على ثبوت تشرب الصوفية ، وتأثرها بمذاهب المعتزلة والفلاسفة . يقول الشعرانى فى الطبقات (١/ ١٠) : **وكان سيدى أفضل الدين يقول : كثير من كلام الصوفية لا يتمشى ظاهره إلا على قواعد المعتزلة والفلاسفة** . (انتهى) .

ويوضح الشيخ محمد المغربى المثل على ذلك قائلاً فى (الطبقات ١/١٠) **اعلم أن طريق القوم مبنى على شهود الإثبات ، وعلى ما يقرب من طريق المعتزلة فى بعض الحالات وهى : حالة شهود غيبة الصفات فى شهود وحدة جمال الذات حتى كان لا صفات** . (انتهى) .

وهذا مثل تقريبى يدل على مدى تشابه الصوفية وتأثرها بالمذاهب الكلامية والعلوم الفلسفية حتى إنهم لم يجدوا ما يشبه تصوراتهم فى علوم المكاشفات إلا فى أفكار المعتزلة الذين ينكرون صفات الله تعالى ، وهذا هو حال الجمع فى التصوف ، وهو الحال الذى يشهد فيه الصوفى الوحدة الكلية ، التى لا يتميز فيها الخالق من المخلوق وهو نفس مفهوم الهباء أو العماء ، الذى لا أسماء فيه ولا صفات .

٣ - **أنه ثبت تزكية كثير من غلاة الصوفية لدين اليهود والنصارى والأديان كلها غير الإسلام** ، ذكر عبد الله الأزدى قال : كنت أخاصم يهودياً فى سوق بغداد ، وجرى على لفظى أن قلت : يا كلب . فمر بى الحسين بن

منصور ونظر لى شزرا ، وقال : لا تنبح كلبك ثم قال لى : اعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان هى ألقاب مختلفة ، وأسامى متغايرة ، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف . (أخبار الحلاج ص / ٣٩) .

دفاع الصوفية والرد عليه :

لم يكن هذا الكلام الذى قاله ابن أبى العز الحنفى وابن خلدون ونيكلسون المستشرق الصليبى وغيرهم فى بيان نسبة الأفكار الصوفية إلى مصادر بوذية ونصرانية وفلسفات أفلاطونية وغيرها يروق لأصحاب الفكر الصوفى ، بل أنكروه أشد الإنكار ، وعنفوا القائلين بذلك بأشنع العبارات ، ولما اقترب سامرهم من الزوال كان لابد لهم من الخروج من هذا المأزق وتبرير هذا الموقف فقالوا : إن التصوف هو السر الذى أسرَّ به النبى ﷺ لأخص أصحابه أبى بكر وعليّ وأنس ، ومنهم انتقل إلى الأئمة والأولياء .

يقول الشيخ أبو بكر الجزائرى – حفظه الله – : إن بدعة التصوف قامت على أساس أن النبى ﷺ أسرَّ لعلي وأبى بكر وأنس بعلم الحقيقة ، فكانوا يعرفون الحقيقة والشريعة ، وعامة الصحابة لا يعرفون إلا الشريعة ؛ ومن هنا جاء علم الظاهر والباطن ، وضرب الإسلام على أيدى غلاة الروافض والباطنية والزنادقة من اليهود والمجوس المنتسبين إلى الإسلام لهدمه وتقويض أركانه . (إلى التصوف ص ١٨) .

وبناء على ذلك فنحن إزاء أمرين اثنين نكشف بهما زيف الصوفية :

أحدهما : أن إقرار الصوفية بأن هذا العلم كان سراً لم يطلع عليه من الصحابة إلا هؤلاء الثلاثة يبطل دعاوى من قال إن التصوف كان معروفاً ومنتشراً فى عهد الصحابة ، ويفسد دعاوى الشعرانى فى الطبقات وغيره ، ممن زعم أن عمر وعثمان وطلحة وسعداً والزبير وعبد الله وأُبي وتميماً الدارى كانوا

من الصوفية .

الثــانى : أن ثبوت هذا التخصيص بتلك العلوم وهذه الخرقة لعليّ وأبى بكر وأنس لم يثبت عليه دليل من الكتاب ولا من السنة الصحيحة ، أما بالنسبة لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلم يسر إليه النبى ﷺ بشيء وهذا يبطل التصوف من أساسه ، ويفسد قول القائلين بتقسيم الدين إلى شريعة وحقيقة ، وهذا عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يبطل تلك الفرية التى افتراها عليه الشيعة فى العراق ، روى البخارى عن عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : « **ما عندنا شيءٌ إلا كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبى ﷺ المدينة حرمٌ ما بين عائر إلى كذا من أحدث فيها حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يُقبل منه صرفٌ ولا عدلٌ .. إلخ** » (١)

(١) متفق عليه : انظر البخارى فى كتاب الحج (١٧٧١) ومسلم فى الحج (١٣٧٠) .

أسس البناء الصوفي

زهد الصوفية فى الدنيا والآخرة والعلم ، وزعموا أن ذلك تهذيب للنفس ، وهم فى الحقيقة لم يهذبوها إنما عذبوها وأهانوها برياضات ومجاهدات ، وبسماع ورقص ، وبجوع وخلوة ، وبأذكار بدعية ومعان شركية ، وهم يأملون من وراء ذلك فناء الصفات البشرية ليحل محلها الصفات الإلهية ، ويرجون من ذلك أن تقترب الأرواح ، وتنكشف الحجب، ويجتمعون مع الرسول ﷺ يقظة ، ويطلعون على الأسرار والغيوب ، ويملكون تصريف الأقدار فى الدنيا والآخرة ، ويحظون بمقام الفناء ورؤية الله تعالى فى الدنيا ... هكذا أرادوا وتلك هى مقاصدهم . فهذا هو محور البناء الصوفى الذى أدى إلى الانحراف الواضح عن منهج الله تعالى الذى اختاره واصطفاه لخير أمة أُخرجت للناس .

وينقسم هذا البناء إلى وسائل متبعة ، وآمال منتظره ، ونتائج منحرفة .

يقول أبو عبد الله الرملى : **ليكن خدنك الخلوة ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة ، فإما أن تموت ، وإما أن تصل إلى الله سبحانه وتعالى** . (الرسالة ص ٢٧٤) .

أولاً : الجوع والسهر :

يرى الصوفية أن الجوع والسهر قربة إلى الله تعالى أعظم من العبادات المفروضة ، ووسيلة إلى الصفاء ، وطريق لاستجلاب العلم الباطن ، وسبيل للوصول إلى حضرة الحق ، فالشبلى يكتحل بالملح حتى لا ينام (الطبقات ٨٩/١) وأبو طالب المكى يجعل الجوع طريق المكاشفة فقال : فالجوع ينقص دم الفؤاد فيبيضه ، وفى بياضه نور ، ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رقته ، وفى رقته مفتاح المكاشفة . (تلبيس إبليس ص / ٢١٠) .

وأبو على الروزبارى يقول : إذا قال لك الصوفى بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ، وأمروه بالكسب . (الرسالة للقشيرى ص / ٢٠٩) .

ويرد ابن الجوزى ذلك ويقول : **وما هذه طريقة الرسول ﷺ ولا طريق أصحابه وأتباعه ، وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا شيئاً ، فإذا تسلط الجد أكلوا** . (انتهى) .

فالجوع من أعظم ما يؤدى إلى اعتلال الصحة والجنون ؛ ولذلك لم يسترح العلماء ولا غيرهم من العقلاء والأطباء إلى ما مال إليه أهل هذا الفن ، من مدح الجوع ورفعه إلى تلك الدرجة ، **فقد ابتلى الله تعالى كفار قريش بالجوع ، فلم يكن سبيلاً إلى أن يصلوا إلى شىء إنما رأوا الدخان بينهم وبين السماء** .

وفى المدينة النبوية كان أبو هريرة رضي الله عنه يسقط على الأرض مغشياً عليه من شدة الجوع ، وليس به جنون ، ولو كان الجوع باباً إلى الله تعالى وسبيلاً للمكاشفات والكرامات لمدحه الله تعالى فى كتابه ، ولما اشتكى منه مؤمن ، ولكن الجوع كما ترى له أثر مؤلم على كل نفس ، سواء كانت صاحبة رياضة ومجاهدة أو مؤمنة تقية .

ثانياً : الخلوة :

وقد جعل الصوفية للخلوة شروطاً وسُننا ، فأكثر أوقاتها أربعون يوماً ، وأقلها عشرة أيام ، وعند الرفاعية أسبوع من كل عام ، ومنهم من يشذ عن ذلك وتكون الخلوة له عادة لا ينفك عنها ، **ولا تكون الخلوة إلا بإذن من شيخ الطريقة ، وبذكر معين** ، لا يزال يردده صاحب الخلوة ، حيثما يجعل صورة شيخه نصب عينيه ؛ لأنه وسيلته إلى الله كما يزعمون ، وقد ذهب إلى ذلك صاحب الرماح (٢ /١٧٧) فيما نقله عن شيخه التيجانى أنه قال فى شروط الخلوة : أن يدخلها كما يدخل المسجد مستعيناً مستمداً من أرواح مشائخه

بواسطة شيخه ، وقال : ثم يجعل خيال شيخه بين عينيه ؛ فإنه رفيقه في طريقه ، وهو معه بمعناه وبروحانيته . (انتهى) .

وهذا من الشرك الأكبر وذلك لأن توجه القلب وتوكله لا ينبغي أن يكون إلا على الله تبارك وتعالى ؛ فهو الذي يعلم السر وأخفى ، وهو الذي يمد الخلائق جميعاً بعونه ، ورعايته لا الشيخ ولا غيره ، والعبد في كل أحواله في معية الله تعالى - إما معية رحمة ورعاية وإما معية إحاطة وعلم ، إما معية عامة وإما معية خاصة - وليس في معية مخلوق .

ويرى أئمة الصوفية أن المريد أثناء خلوته لا ينبغي أن يشغل نفسه بقراءة القرآن ولا بالتفسير ولا بالحديث ، ولا يؤدي السُنن ، فهذا لا ينفعه فيما قصده من العزلة ، إنما يشغل نفسه بترديد الذكر المأذون له من شيخه دون غيره ، حتى يرى صورته في فؤاده ؛ عند ذلك تتجلى له الأنوار ، وتنكشف له الحجب ؛ هكذا زعموا .

يقول أبو حامد الغزالي في الإحياء (٣ / ١٩) : ويخلو نفسه في زاوية ، ويقتصر على الفرائض ، ولا يقرن همه بقراءة القرآن ، ولا بالتأمل في التفسير ، ولا يكتب حديثاً ولا غيره . (انتهى) .

ويؤكد على ظلمة المكان الذي يخلو فيه السالك ، ويجعله شرطاً لها فيقول : وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم ، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه ، أو يتدثر بكساء أو إزار ؛ ففي مثل هذه الحالة يسمع نداءً الحق ، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . (الإحياء ٣/ ٧٦) .

قلت : وهذا من أعظم أسباب المس الشيطاني .

قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٣٩/١١) : وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح التي يزعم صاحب الفتوحات إنه ألقى إليه ذلك الكتاب ، ولهذا يذكر

أنواعاً من الخلوات بطعام معين وشيء معين ، هذا مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين . (انتهى) .

والعجب فيما ذكره هؤلاء وأكدوا عليه أن القرآن والسُّنة لا يصلحان فى الخلوة طريقاً للذاهب إلى الله تعالى .

قال أبو حامد فى (الأربعين ص ٤٦) : اعلم أن قراءة القرآن أفضل للخلق كلهم إلا للذاهب إلى الله عز وجل . (انتهى) .

فكيف راق لأبى حامد - رحمه الله - أن يقول هذا الكلام ويصدقه ، ويخالف به جمهور المسلمين ، وهو من علماء الشريعة ؟!! .

إن العزلة المرسومة فى المعتقد الصوفى بصورتها المعهود غير شرعية الوسائل والمقاصد ؛ إذ أنهم يرجون منها اللقاء مع أرواح الأنبياء والملائكة ، بل ورؤية الله تعالى ومخاطبته فى الدنيا ، وما هذا كله إلا أوهام وخيالات تعيش فى الصوفى حتى يموت .

ولم تشرع العزلة فى الإسلام إلا فى وقت شيوع الفتنة ، أو كما فعل النبى ﷺ من الاعتكاف فى رمضان بصيام وقيام وذكر وتلاوة قرآن ودروس علم ونصح للإخوان ، وقد يشرع فيها الخروج للحاجة كما خرج النبى ﷺ لتوصيل زوجه صفية بنت حيى رضى الله عنها إلى بيتها كما فى الحديث المشهور ، أما أن تكون كالتى عند الصوفية بهذه الصفات السابقة فهذا ليس من الإسلام فى شيء .

من الواضح أن هناك تشابهاً بين رهبان النصارى والصوفية من جهة العزلة ، إلا أن العزلة لم تمنع الأحبار والرهبان أن يقوموا بواجبهم تجاه مجتمعاتهم فى وقت الأزمات ، بينما تجد هؤلاء الصوفية فى خلواتهم نائمين لا يتكلمون كلمة ، ولا يكتبون حرفاً واحداً لحقن دماء المسلمين ، فضلاً عن

المشاركة معهم فى قتال أعداء الله تعالى .

يقول د / زكى مبارك فى كتابه (الأخلاق ص ٢٥) : بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره فى إعداد الخطب ، وتحبير الرسائل ؛ لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين ،كان الغزالى غارقاً فى خلوته ، منكباً على أوراده ، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد ، ويكفى أن نذكر أن الإفرنج قبضوا على أبى القاسم الرملى الحافظ يوم فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليفتدى ، فلم يفده أحد ثم قتلوه ، وقتلوا معه عدداً من العلماء لا يحصيه إلا الله ، كما ذكر السبكى فى طبقاته . (انتهى) .

ولم يكن الغزالى بمفرده فى ذلك الأمر ، بل إن ابن الفارض وابن عربى أيضاً عاشا فى عهد الحروب الصليبية ، ولم يتكلما فى هذا الأمر من قريب أو من بعيد، ويرجع ذلك إلى مفهومهما فى وحدة الوجود ، فالكون عندهم عين الله ، فمن قاتل العدو فقد قاتل الله .. !! - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - فالتربية الصوفية فهم خاطئ من مفاهيم المدرسة الجبرية ، وعمالة رخيصة من عمالات المدرسة الاتحادية .

والحقيقة تكشف عن فساد التصور الصوفى فى التربية ؛ لما فيه من سلبية ، وفردية ، وتجارب وضعية ، وهذا هو الذى أدى بهم إلى الالتقاء مع الفلسفات المنحرفة والمناهج الشاذة ، حتى هجروا سبل الحياة السوية ووصلوا إلى درجة من الضعف والهوان يسرت السبل لأعداء الله تعالى أن يستعمروا بلاد المسلمين ، ويغزوهم فى أفكارهم ، ويستنفذوا ثرواتهم ، وهذا هو السر الذى يدفع بأمراء الجور والظلمة من السلاطين إلى تأييد التصوف ، ونشره بين فئات المجتمع ، كى يشغلوا الناس عنهم ، وعن سياستهم المنحرفة ، والصوفية يرضونهم بذلك .

فهذا الشيخ صالح الأحمدى الرفاعى كان ممن يوالى التتار على المسلمين وقد ترجم له ابن كثير فى البداية ١٤ / ٤٥٦ قائلاً عنه : شيخ المنيع ، كان

التتر يكرمونه كثيراً ، ثم قال : وهو الذى قال للشيخ تقى الدين ابن تيمية بالقصر : نحن ما يتفق حالنا إلا عند التتر وأما عند الشرع فلا . (انتهى) .

من شطحات الخلوة :

حكى الشعرانى فى الطبقات أن يوسف العجمى الكورانى كان إذا خرج من الخلوة يخرج وعيناه كأنهما قطعة جمر تتوقد ، فكل من وقع نظره عليه انقلبت عينه ذهباً خالصاً ، وعنه أيضاً قال : ووقع له مرة أخرى أنه خرج من خلوة أربعين يوماً ، فوقع بصره على كلب ؛ فانقادت إليه جميع الكلاب ، وصار الناس يهرعون إليه فى قضاء حوائجهم ، فلما مرض ذلك الكلب اجتمع حوله الكلاب يبكون ، ويظهرون الحزن والعويل ؛ وألهم الله تعالى بعض الناس فدفنوه ؛ فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتوا . ثم يعلق الشعرانى قائلاً : فهذه نظرة إلى كلب فعلت ما فعلت ، فكيف لو وقعت على إنسان ؟ (الطبقات للشعرانى ٢ / ٦١) ، فانظر كيف غضب الكوراتى على كلب مشت الكلاب خلفه دون طلب منه ولم يغضب لأن الناس استغاثوا بكلب ولجئوا إليه !! .

ثالثاً : السماع والرقص :

السماع : قد يطلق ويراد به الإدراك كما فى الإدراك بحاسة الأذن ، وقد يطلق ويراد به الانقياد والطاعة ، وقد يطلق بمعنى الفهم والإحاطة . (غاية المرام ٢/ ١١٠) .

أما السماع عند الصوفية فهو إما أن يراد به التواجد أو يراد به الغناء ، والصوفية يتواجدون بالشعر والغناء أعظم من تواجدهم بالقرآن بخلاف الأوائل منهم .

حكى أبو حامد الغزالى أن أبا الحسن الدارج زار يوسف الرازى ببلدة الرّى، فلما التقى به ألقى عليه بيتين من الشعر ، وكان هذا الرجل يقرأ القرآن ، فلما

سمع البيتين أطبق المصحف ، ثم قال يا بنى : تلوم أهل الرّى يقولون يوسف زنديق هأنذا من صلاة الغداة أقرأ فى المصحف لم تقطر من عينى قطرة وقد قامت القيامة على لهذين البيتين .

ثم يعلق الغزالى : فإذا القلوب وإن كانت محترقة فى حب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع . (الإحياء ٢ / ٣٠١) .

ورؤية الصوفية الشعر والغناء باب التواجد وطريق الوصول والفناء من آثار تضامنهم مع الشياطين ، فإن الشياطين لا تملى ولا تؤثر إلا فى نفوس تجدها مستعدة لما يتناسب معها ، وذلك لأن الغناء باب الشيطان ورقية الزنا ، فإذا طرب به هؤلاء فإن ذلك دليل على فساد قلوبهم وخفة عقولهم ، فما بالك إذا كان كثير منهم يتأثر به بينما لا يتأثر عند سماع القرآن .

وقد زعم الصوفية أن رسول الله ﷺ تواجد - حتى سقطت البردة من على كتفه - لبيتين سمعهما من أبى محذورة ، وهذا من جملة الكذب والقول بلا علم ، أما البيتان فهما :

لسعت حية الهوى كبدي	فلا طبيب لها ولا راقي
إلا الحبيب الذى شغفت به	فإنه علتي وترياقى

قال ابن تيمية كما فى المقاصد : ما اشتهر أن أبا محذورة أنشدهما بين يدى النبى ﷺ وأنه تواجد حتى وقعت البردة الشريفة عن كتفيه فتقاسمها فقراء الصفة ، وجعلوها رقعاً فى ثيابهم ، كذب بإتفاق أهل العلم بالحديث ، وما روى فى ذلك فموضوع ، منه ما رواه أبو طاهر المقدسى ، وصاحب العوراف عن أنس أنه عليه الصلاة والسلام أنشد بحضرته البيتان ؛ فتواجد عليه الصلاة والسلام ، وتواجد أصحابه الكرام ، وسقط رداؤه عن منكبية فلما فرغوا أوى

كل واحد إلى مكانه ، ثم قال ﷺ ليس بكريم من لم يهتز عند السماع ، ثم قسم رداءه على من حضر أربعمائة قطعة . فهذا موضوع ، كان واضعه عمار بن إسحاق ، فإن باقى إسناده ثقات ، هكذا قاله الذهبى وغيره فاعرفه . (انظر كشف الخفاء للعجلونى برقم ٢٠٤٢) .

وقد رأى الشافعى فى بغداد السماع فقال حينما دخل مصر : تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئاً يسمونه السماع (التلبيس ص ٣٧٠) .

وقد أخذ المتصوفة العزة بالإثم ، وصاروا يفتخرون بهذا الاسم ، ويعتبرونه علامة الوصول ومحط الرحل ، ذكر أبو حامد عن بعضهم قوله : من رآنى فى الابتداء رآنى صديقاً ، ومن رآنى فى الانتهاء رآنى زنديقاً (ميزان العمل ص ٩٨) .

وهذا مثل واضح بيِّن مكانة غلاة الصوفية عند الفقهاء وكيف أن الفقهاء كانوا لا يستبيحون الغناء ولا يحبون أهله فقد أنكروه غاية الإنكار ، وشددوا على متعاطيه وجعلوه من جملة الفُساق .

وأما السماع بمعنى التواجد فقد بدأ بين عُبَّاد الكوفة ، ولكن على صفة تسمو على ما عليه هؤلاء ، فقد كان الرجل منهم يصعق عند قراءة القرآن . فذكر أن زرارة بن أوفى قاضى البصرة قرأ فى صلاة الفجر ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ [المدثر : ٨] فخر ميتاً ، (ف ٧/١١٠) ومع ذلك اشتد نكير من لحقهم من الصحابة عليهم .

قال ابن عمر : إنا لنخشى الله ولا نسقط (التلبيس ص ٢٥٣) وكان مأخذهم عليهم مخالفتهم هدى النبى ﷺ وأصحابه ، فلم يكن لهم مع القرآن صراخ ولا غشيان ولا صعق ، إنما حنين وأزيز ودمع ووجل ، وذلك لقوة إيمانهم تجاه ما يرد على قلوبهم من الواردات ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾ [الزمر : ٢٣] .

وقد كان الأئمة يأخذون على هؤلاء التكلف فى الأمر والتصنع ، ولذلك كان ابن سيرين يقول : **ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط ، فإن خر فهو صادق** . (التلبيس ص ٢٥٥) .

ومن البدع أيضاً :

أن كثيراً من أئمة الصوفية يرى أن سماع الشعر والغناء أفضل من سماع القرآن ، لأن السماع يحرك القلب ، ويأخذ بالنفس إلى مقام المشاهدة والفناء ، بينما القرآن يسرح بالمرء فى الجنة والنار ، والأحكام بعيداً عن الله تعالى .

يقول أبو حامد الغزالى فى (الإحياء ٢٩٨/٢) : اعلم أن السماع أشد تهييجاً للوجد من القرآن . (انتهى) .

والعجب أن يأتى هذا الكلام من رجل كان عالماً بالشريعة ، وعلمه يقتضى أن يضع الشىء فى مكانه ، وأن يحفظ عظمة القرآن وهو كلام الله تعالى الذى منه بدأ وإليه يعود ، وقد علم أن القلب لا يحصل فيه نور ولا هدى ولا حياة ولا توحيد إلا به .

قال تعالى : ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)** ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وإلا فأين كان أصحاب القلوب قبل نزول القرآن ؟ لا يخفى أنهم كانوا منغمسين فى السماع والوجد والرقص والطرب

وغير ذلك من أنواع الضلال ، فلم يستقم لهم قلب ولم يهتدوا إلى طريق ، حتى هداهم الله بهذا القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : ٣٥] .

وقد رد الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٤٨٦/١) على أبى حامد وأنكر قوله قائلاً : أى إيمان ونور وهدى يحصل باستماع آيات مصحوبة بمزامير الشيطان ؟ ، وكيف يسوغ المرء لنفسه أن يفضل هذا السماع على كتاب الله ؟ إن رجلاً هكذا حاله هو رجل منكوس ممكور به ، لم ير فى آيات الله ما يحرك قلبه القاسى ؛ فأعرض عنه وأقبل على قرآن الشيطان . (انتهى) .

ولأبى حامد اعتراض آخر ذكره فى (الأربعين ص ٤٦) قائلاً : اعلم أن القرآن أفضل للخلق كلهم إلا للذاهب إلى الله عز وجل ، فما دام العبد مفتقراً إلى تهذيب الأخلاق ، وتحصيل المعارف فالقرآن أولى به ، فإن جاوز ذلك إلى الاستغراق فمداومة الذكر أولى به ، فإن القرآن يجاذب خاطره ويسرح به فى الجنة ، والمريد الذاهب إلى الله لا ينبغى أن يلتفت إلى الجنة ورياضاها ، بل ينبغى أن يجعل همه هماً واحداً ، وذكره ذكراً واحداً ، حتى يدرك الفناء والاستغراق به . (انتهى) .

وهذا كلام مردود جملة وتفصيلاً ، ذلك لأن القرآن يوجه المرء إلى الله تعالى بجميع أركانه وجوارحه ، ومن أراد سلامة الدين وعمارة القلب وصحة المعانى وجد ذلك كله فى القرآن ، دون الذكر بالاسم المفرد أو المضمر أو المبهم فتلك الآيات التى تتكلم عن النار ويزعمون أنها تفرق القلب إنما تملؤه هيبة وتعظيماً لله تعالى، وتلك الأحكام الشرعية تبين عدل الله تعالى وقوة سلطانه وعظمته وجبروته.

وتلك الجنة : بحورها وظلالها وقصورها وخمرها وعسلها وماؤها تملأ القلب رجاء فى الله وحباً فى طاعته لما يظهر فيها من عظيم رحمته وجليل

مغفرته وعفوه ، فهذه وتلك علامات دالة على آثار أسماء الله وصفاته ، وحكمها والعبادات الخاصة بها لو كنتم تعلمون .

أما « هو » « هو » و « أه » « أه » فلا تدل على معان واضحة ، ولا ترشد إلى مفاهيم نافعة ، ولا تدل على ذات الله ولا أسمائه ولا صفاته كما تظنون ، إنما تسرح في الخيال وترتع فى الوهم .

ولقد كان أحمد التيجانى شيخ الطريقة التيجانية أعتى القوم وأجرأهم على الدين إذ أنه فضل صلاة الفاتح لما أغلق على القرآن ، ففى كتاب الرماح وهو كتاب الطائفة التيجانية (٦٩/٢) يقول شيخ الطائفة : وأما صلاة الفاتح لما أغلق فإنى سألته ﷺ فأخبرنى أنها بستمائة ألف صلاة « انتهى » .

وفى جواهر المعانى (١٣٦١) قال التيجانى : **ثم أمرنى بالرجوع ﷺ إلى صلاة الفاتح لما أغلق ، فلما أمرنى بالرجوع إليها سألته ﷺ عن فضلها فأخبرنى أولا بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات** ، ثم أخبرنى ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع فى الكون ، ومن كل ذكر ، ومن كل دعاء كبير أو صغير ، ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار « انتهى » .

وهذا لا دليل عليه إلا الخيال ، ولا حجة فيه إلا الظن ، وغاية ما فيه صرف الناس عن القرآن وعن فهمه وتدبره وتلاوته والاعتبار بمعانيه ، وأخذ الأجر والثواب عليه ، ولم يكن دأب النبى ﷺ ، وقد أمره الله تعالى بقيام الليل بالقرآن كما فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤)** ﴾ [المزمل : ١ - ٤] ..

ولم يكن أيضاً دأب الزهاد الصالحين الأولين من قبلهم أمثال أحمد بن أبى الحوارى وغيره ، ممن كانوا يعظمون آيات الله تعالى ، ويسهرون عليها فى

تدبر وتذكر

نقل عنه ابن العماد قوله : إنى لأقرأ القرآن فى آية آية فيحار عقلى ، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بتدبير الدنيا وهم يتلون كتاب الرحمن ، أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحاً بما رزقوا ووفقوا (الشذرات ١١١/٢) .

فما كانوا يقولون : إنه يصرفهم عن حقائق المشاهدات ، ويلهيهم بالأحكام والقصص والجنة والنار عن الله كقول هؤلاء ، كيف وقد زكى الله القارئ والمستمع وأثاب على ذلك خيراً ، وهدى وبارك ورفع ، وكيف بعد ذلك تكون أذكار الصوفية خيراً من القرآن ؟ .

إن أذكار الصوفية فى الحقيقة صيغ معبرة عن دين الغلاة الذين يرفعون الرسول ﷺ فوق مستوى البشر ، ويجعلونه جزءاً من الله « تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً » فلا يخفى عليك وجوب هجران من كانت تلك عقيدته وهذا عمله . قال تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام ٦٨] .

رابعاً : الذكر :

للذكر آثار جليلة على القلب والنفس والبدن ، وهو علامة الإيمان والوصل ، ودليل الحب والقرب وهو منبع الصدق وباب البركات وأصل الفضائل والخيرات ، فهو خير الأعمال ، وأعظم ما يقرب من الرحمن ؛ لما فيه من الاستغراق والتعلق بالمحبوب جل وعلا ، وقد تختلف صور ذلك الذكر

حسب صورة الأمر والنهى ، والحال التى يكون عليه الذاكر ، فهو إما أن يكون ثناء بالقلب واللسان ، وإما أن يكون تفكراً واعتباراً وتدبرا بالقلب والجنان ، أو يكون امتثالاً لأمر أو انتهاء عن نهى ، ويكون ذلك على حسب ما يقع عليه التكليف إما على القلب أو النفس أو اللسان أو الجوارح .

وعلى ذلك فالذكر لا ينتهى أبداً ولا ينقطع لا فى السفر ولا فى الحضر ، ولا فى الصحة ولا فى المرض ، ولا فى الغنى ولا فى الفقر ، ولا فى القوة ولا فى الضعف ، ولذلك فهو أفضل الأعمال ، وذلك من جهة طول المجاهدة فيه ، بخلاف غيره الذى قد يكون محدوداً بزمن معين ينتهى بانتهائه ، قال الله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

قال ابن عباس : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ لها وجهان : الأول : ذكر الله أكبر مما سواه ، الثانى : ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه (انظر تفسير الطبرى ١١/١٥٨) .

قال ابن تيمية : فى الصلاة فائدتان إحداهما : نهيها عن الفحشاء والمنكر، الثانى : اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له ، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر . (انظر مدارج السالكين ٢ / ٤٤٣) .

ملامح الذكر الصوفى :

أذكار الصوفية مجموعة من الأحلام والمنامات ، فبعضهم يقول : حدثنى بذلك رسول الله ﷺ مناماً ، وبعضهم يفترى ويقول : حدثنى رسول الله ﷺ يقظة لا مناماً . كما عزى التيجانى ياقوتة الحقائق إلى الرسول ﷺ فقال : هى من إملاء رسول الله ﷺ من لفظه الشريف يقظة لا مناما . (انظر جواهر المعانى ١/٣٠ ، ٣١) .

وكما نسب ابن عربى فصوصه وفتوحاته إلى الله وقال : جميع ما كتبته وأكتبه إنما هو عن إملاء إلهى وإلقاء ربانى أو نفث روحانى فى روع كيانى (اليواقيت والجواهر ٢/ ٢٤) .

وهى صيغ مؤلفة تعبر عن فكر صاحب الطريقة ، قبل أن تكون عبادة يرجى بها وجه الله تعالى .

وليس ذلك كله دليل حب ولو كان السالك محباً؛ لوقف على ما وقف عليه الحبيب ، إنما ذلك افتراء وإتهام لرسول الله ﷺ بالخيانة وأنه لم يبلغ الدين كاملاً حتى جاء هذا الهزيل يخبر عن طريق المنامات ما لم يعرفه النبى ﷺ ولا أصحابه وخاصته ثم يقول: هذا ذكر الخاصة وهذا ذكر العامة . تعالى الله عما يقولون .

ومن المعلوم أن الأذكار والعبادات توقيفية ، فلا يجوز لأحد أن يشرع فى الدين ما ليس منه ، وهذا مقتضى شهادة « محمد رسول الله » فهى تشمل طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، ثم وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع . فمن أحدث أو ابتدع فى أمر الدين ما لم يكن منه فهو متعد على دين الله تعالى ، محتقر لسُنة رسوله محمد ﷺ ، مشرع فيما ليس من اختصاصه من أمور العبادة والقرب ، قال تعالى : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٢١﴾ ﴾[الشورى: ٢١]وهذا العمل مردود على صاحبه غير مقبول ، وصاحبه آثم ، وقد صح عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت أن النبى ﷺ قال: « **من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد** »[١] .

فمن بدع الأذكار أن المريد لا يحق له الذكر إلا بإذن من الشيخ ، وإلا

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى فى كتاب الصلح (٢٤٩٩) .

فلن يصل إلى شيء ، ففى رسالة (الحلوانى ص ٣٠) يقول : من آداب المريد مع شيخه أن يذكر ما لقنه له أستاذه فلا يتجاوزه إلى غيره . (انتهى) .

وقال صاحب الرماح : إن من نهض إلى دعوة الخلق إلى الله تعالى بالإذن العام وليس له شيء من الإذن الخاص لم يشفع بكلامه ، ولم يقع عليه إقبال ، فإن لسان الحق يقول له بلسان الحال فى بساط الحقائق ما أمرناك بهذا إنما أنت فضولى . (انتهى) .

وهذا كما ترى وهم وكذب على الله ورسوله ، فذكر الله تعالى لا يتوقف على إذن أحد من الشيوخ بعد أن أذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) ﴾ [الأحزاب : ٤١ ، ٤٢] .

وذكر الله تعالى لن يزيد فضلاً ولا بركة بإذن شيوخ الصوفية ولا غيرهم . وأما ما ذكروا عن عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه تلقى من النبى ﷺ الإذن بالذكر بالاسم المفرد ، وترديد لا إله إلا الله بإذن خاص ، فهذا لا أصل له فى كتب السُّنة ، وقد أنكر عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يكون النبى ﷺ قد خصه بشيء من الذكر كما تقدم.

كيفية الذكر الصوفى :

وبدعة أخرى تلك الكيفية التى يذكرون الله تعالى بها فيقول صاحب منحة الأصحاب (ص ٨٦) فى كيفية ذكر لا إله إلا الله : أن يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه ، وأن يبدأ « بلا » يميناً ويرجع بـ « إلـه » فيتوسط ويختم « إلا الله » يسار قبلة القلب . أما كيفية ذكر الاسم المفرد فيقول : فإن ذكر اسماً مفرداً « كالله » ، و« هو » ضرب بذقنه على صدره ، وأن يذكر مع جماعة مع رفع الصوت ، وينتع الكلمة من سرته إلى قلبه (هذه هى الصوفية

ص ١٤٤) .

ويزيد على ذلك ما كان من أمر هؤلاء الحمقى والسفهاء ، الذين لا يحلو لهم الذكر إلا بالرقص والسماع ودق الطبول ، فيتشابهون مع كفار قريش حين كانوا يطوفون بالكعبة بالغناء والصفير ، مع دقات الطبول والرقص والتصفيق ، وهل كان دينهم إلا ذلك ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً** ﴾ [الأنفال : ٣٥] ، وعن ابن عمر قال : المكاء : التصفيق ، والتصدية : الصفير ، قال الراوى : وأمال ابن عمر خده إلى جانب (انظر تفسير الطبرى ٩ / ٢٤١) .

عن ابن عباس قال : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ** ﴾ [الأعراف : ٣٢] فأمروا بالثياب (انظر تفسير الطبرى ٩/ ٢٤١) .

وهذا الصفير والنفخ وذاك التصفيق والرقص ليس من دين الله تعالى ، ولا من أوامره وصدق الشاعر إذ يقول :

أقال الله حين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٢٩٢٦) : فيه رد على الجهال من الصوفية الذين يرقصون ويصفقون وذلك كله منكر يتنزه عن مثله العقلاء ، ويتشبه فاعله بالمشركين ، فيما كانوا يفعلونه عند البيت . (انتهى) .

ولم يكن كفار قريش أول من ابتدع الرقص والغناء فى أمور التعبد ، بل سبقهم إلى ذلك أصحاب السامرى عباد العجل ، لما صنع لهم العجل رقصوا حواليه وطافوا به وغنوا .

وهذا هو الذى افتره اليهود على دين الله تعالى وسجلوه فى العهد القديم كما فى المزمور رقم (١٥٠) حيث قالوا : « سبحوا الله فى قدسه سبحوه فى

فلك قوته ، سبحوه على قواته ، سبحوه حسب كثرة عظمته ، سبحوه بصوت الصور ، سبحوه برباب وعود ، سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار .. إلخ « انتهى » .

للصوفية أذكار مخصوصة :

لكل طريقة ذكر مخصوص ، بل ولكل سالك ذكر ، فلعوام الطريقة والمبتدئين ذكر « لا إله إلا الله » !!! ، ويليق بهم ذكر الأسماء والصفات التى تتناسب مع الضعفاء والمذنبين كالغفور والعفو ، أما ذكر الخاصة فهو الاسم المفرد الله ، أما خاصة الخاصة فلهم الاسم المضمر هو هو هو ، ومن بالغ فى الضلال قال : أه أه ومن استشرى قال : أنا أنا أنا ، والواصل عندهم من خرس وسكت .

يقول الشيخ عبد القادر عيسى : لذا نرى المربين الكمل يأمرون مريديهم بذكر « لا إله إلا الله » فى بادئ أمرهم ، فإذا تمكن النفى والإثبات من قلوبهم نقلوهم إلى ذكر الاسم المفرد ، وأوصوهم بملازمته ومجاهدة النفس على تحمل مراراته . (حقائق التصوف ص ١٨٤) .

ويقول ابن عطاء فى كتاب القصد المجرد (ص ٥٧) : روى أن أهل التوحيد أربعة أصناف فى ذكر توحيدهم الواحد الصنف الأول « لا إله إلا الله » بين النفى والإثبات : نفى الأوهام عن الأفهام، وإثبات الواحد عن الضد والند ، والصنف الثانى قالوا : « الله » واقتصروا على ذكر الاسم المفرد من غير إثبات فى إثبات ، ورأوا أن الإثبات بعد النفى وحشة وجفاء ، الصنف الثالث قالوا : «هو هو » حق بحق إثبات الإثبات ، وهو الذكر الدائم الخفى عن اللسان وهو ذكر القلب ، الصنف الرابع « خرسوا » فلم ينطقوا وفنوا به عنه وغابوا على ذكر التوحيد بمشاهدة المذكور الواحد . « انتهى » .

وربما يرى الصوفية فى بعض الآيات والأذكار إذا ذكرت فى مقام غير مناسب أضرت من تكلم بها كما يقول ابن عطاء : اسمه تعالى « المتين » يضر أرباب الخلوة وينفع أهل الاستهزاء بالدين . (انظر مفتاح الفلاح ص ٢٣) .

ولا شك أن هذا التقسيم (ذكر العامة والخاصة وخاصة الخاصة) تقسيم مبتدع لا أصل له ، وهذه الأحوال التى يصل بها الصوفى إلى أن يقول : أنا أو يبهت فلا يذكر ولا ينطق لم يثبت ما يؤيده من كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ﷺ بل ثبت النهى عن الصمت التام كعبادة وقربة .

وثبت أن النبى ﷺ علم أصحابه موضع اسم الله الأعظم بين اسمين عظيمين جليلين هما الحى والقيوم ، وذلك حتى لا يدعى مدعٍ لنفسه التفرد بعلوم وأسرار وأذكار ليست عند غيره ؛ لينال لنفسه مكانة وشرفاً ليس له .

روى أحمد فى المسند عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] و ﴿ الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) ﴾ [آل عمران : ١, ٢] «**إن فيهما اسم الله الأعظم** » (١) ، وفى رواية الترمذى عن عبد الله بن بريدة الأسلمى عن أبيه قال : سمع النبى ﷺ رجلاً يدعو وهو يقول : « **اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب وإذا سُئل به أعطى** » (٢) .

---

(١) رواه الترمذى فى الدعوات (٣٤٧٨) وأبو داود فى الصلاة (١٤٩٦) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٥٥) والدارمى فى فضائل القرآن (٣٣٨٩) وأحمد فى المسند (٢٧٠٦٤) . انظر صحيح الترمذى (٢٧٢٣) .

(٢) رواه الترمذى فى الدعوات (٣٤٧٥) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٥٧) وأبو داود فى الصلاة (١٤٩٣) وأحمد فى المسند (٢٢٥٣٢) انظر صحيح الترمذى (٣٧٢٢) .

وليس بعد ذكر الله تعالى باسمه الأعظم مطلب يتغنى به الصوفية ، أما أن يقسم الناس طبقات فيكون لكل طبقة ذكر يتناسب معها ما لا يتناسب مع غيرها فلا .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : إن أفضل الذكر لا إله إلا الله كما رواه الترمذى وابن أبى الدنيا وغيرهما مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قال : « **أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله** » (١) .

وفى الموطأ وغيره عن طلحة بن عبد الله بن كثير أن النبى ﷺ قال : « **أفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له** » (٢)، ومن زعم أن هذا ذكر العامة وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد ، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر فهم ضالون غالطون . (انتهى) .

لكن قد ثبت أن الله تعالى يخص نبيه محمداً ﷺ يوم القيامة بنوع من الثناء والذكر والتمجيد ، لم يكن يعلمه هو أو غيره من قبل ذلك كما فى حديث الشفاعة الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وفيه : « **فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى عز وجل ثم يفتحُ الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبلى ثم يُقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تُشفع** » (٣) .

الذكر بالاسم المفرد :

ويصر كافة الصوفية على هذا النوع من الذكر « الله الله الله » أو « حق حق حق » أو « قيوم قيوم قيوم » أو غير ذلك من الذكر المفرد ، الذى لا يدل

---

(١) رواه الترمذى فى الدعوات (٣٣٨٣) وقال : هذا حديث حسن غريب ورواه ابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٠) انظر صحيح الترمذى (٣٦٢٣) .

(٢) رواه مالك فى الموطأ فى كتاب النداء (٩٦٣) انظر السلسلة الصحيحة للألبانى (١٥٠٣) .

(٣) متفق عليه : رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٣٥) .

على معنى مكتمل ، وليس لهم في ذلك سلف ، ولا أثارة من علم لا من الكتاب ولا من الحديث ولا حتى من اللغة .

يقول ابن تيمية : وأما الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة ، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر ، ولا أمر ولا نهى . ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ ولا يعطى القلب بنفسه معرفة مفيدة ، ولا حالاً نافعاً ، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً لا يحكم عليه بنفى ولا إثبات ، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد بنفسه ، وإلا لم يكن فيه فائدة ، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره . (الفتاوى الكبرى ٣٤٣/٢) .

النفى والإثبات :

ومن الصوفية من قال بجواز الذكر بالاسم المفرد دون « لا إله إلا الله » بحجة أن « لا إله إلا الله » نفى وإثبات ، وهو يخشى أن يموت بين النفى والإثبات ، وقد حكى عن أبى بكر الشبلى أن شاباً سأله : يا أبا بكر لم تقول الله ولا تقول لا إله إلا الله ؟ فقال الشبلى : **أستحى أن أوجه إثباتاً بعد نفى** ، فقال الشاب : **أريد حجة أقوى من هذه ؟** ، فقال : **أخشى أن أؤخذ بكلمة الوجود ، ولا أصل إلى كلمة الإقرار** . (تلبيس إبليس ص ٣٣٧) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وما يذكر عن بعض الشيوخ أنه قال : أخاف أن أموت بين النفى والإثبات حال لا يقتدى فيها بصاحبها ، فإن فى ذلك من الغلط ما لا خفاء به ؛ إذ لو مات العبد فى هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه ؛ إذ الأعمال بالنيات ، **وقد ثبت عن النبى ﷺ أمرّ بتلقين الميت لا إله إلا الله** ، وقال : **من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** ، ولو كان ما ذكره محذوراً لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت أثناءها موتاً غير محمود ، بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد. (الفتاوى الكبرى ٢ / ٣٤٢).

الذكر بالاسم المبهم :

ومنهم من يذكر الله تعالى بالاسم المضمر أو المبهم « هو » ، والذكر بهذا الاسم لا يدل على معنى مفيد أو تام ، إنما ينصرف إلى ما يتصوره القلب أو العقل حال الذكر ، ولفظة « هو » هذه ليست من أسماء الله تعالى ، إنما هى بدعة وضلالة تصرف المرء عن التوحيد لتوقعه فى الشرك والإلحاد ، وقد نهى سبحانه عن ذلك فقال : ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٨٠) ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

الذكر المجهول :

أما الذكر المجهول المعنى كقولهم فى ذكر الطريقة الدسوقية : اللهم آمنى من كل خوف وهم وكرب « كد كد كردد كردد كرده كرده ده ده ده » (ذكر ودعاء جمع عبد الله أحمد ص ١١٧) .

وذكر الطريقة البرهانية كما فى الحزب الصغير : أحمى حميثاً أطمى طميثاً وقوله : بها بها بها بها ، بهيات بهيات بهيات القديم الأزلى، يخضع لى كل من يرانى، لمقفنجل يا أرض خديهم: ﴿ **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** (٥٠) ﴾ [الإسراء : ٥٠] ، ﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ** (٢٤) ﴾ [الصافات : ٢٤] ، ﴿ **كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ** ﴾ [المنافقون : ٤٠] ولا حول ولا قوة إلا بالله ، طهور بدعق ، محببة صور محببة ، سقفاطيس سقاطيم أحون أدم حم هاء آمين (أوراد البرهانية ص ١٨ ، ٢١) .

فهذه هذرمات غير معلومة ، ولا مفهومة عند من تلاها ومن سمعها والذاكر بها سيكون لها تصوراً معيناً فى النفس ، وهذا التصور سيختلف باختلاف حاله ، ومهما كان هذا التصور فهو نوع من الوهم ، والله تعالى لم

يتعبدنا بالأوهام والظنون ، وإنما تعبدنا بكلام معلوم المعنى معقول الفهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف : ٢] .

الذكر الإلحادى :

أما ما ورد في أحزاب الطريقة الفاسية الشاذلية من كتاب مجموع الأوراد الكبير ص ٢٣ : وزج بى فى بحار الأحدية المحيطة بكل مركبة بسيطة وانشلنى من أوحال التوحيد ، إلى فضاء التفريد المنزه عن الإطلاق والتقييد ، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة ، شهوداً حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها نزولاً وسعوداً – اللهم صل على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ومظهر الأنوار – فهو ياقوته أحدية ذاتك الصمدية ، وعين مظهر صفاتك الأزلية فبك منك صار حجاباً عنك (انتهى) .

فهو كلام معلوم مقصود ، يعنى ببساطة أن التوحيد المراد تنزيه الله تعالى به عن مشابهة الحوادث ، وأنه تعالى فوق عرشه منفصل عن خلقه ، وأنه المعبود الحق والخلق كلهم عبيده ، وأنه لا مولود ولا ولد ، هذا كله عند هؤلاء ، وحل يطلبون الخروج منه والتنزه عنه ، أما ما يريدون الوصول إليه فهو بحار الأحدية ، والأحدية هى : أول التعينات الإلهية المشتقة من الهباء وهى عند الصوفية « محمد » كما قال الفاسى فى (الورد الكبير ص ٢٣) ، فهو ياقوته أحدية ذاتك الصمدية ، وعين مظهر صفاتك الأزلية . (انتهى) .

فالتوحيد الذى يدندنون عليه هو الاتحاد مع الوجود الكلى الأزلى الجامع لجميع المخلوقات ، أو الوحدة الكلية التى يسمونها العماء أو الهباء أو الأحدية أو الواحدية .

التنطع والتكلف :

ومن بدع الأذكار التكلف والتنطع ، وهذا غير مطلوب فى أمور التعبد على الإطلاق ، وذلك لأن التقعر والتنطع لا يتأتى منه خشوع ولا فهم ، ولا استقامة ولا صدق ، ويكفى ما فيه من مخالفة هدى النبى ﷺ .

وقد سئل **شيخ الإسلام العلامة عبد العزيز بن باز** – رحمه الله وأسكنه فسيح جناته – كما فى رسالة (إقامة البراهين ص ٤٤) عن قول بعض الصوفية فى المساجد وغيرها : اللهم صل على من جعلته سبباً لانشقاق أسرارك الجبروتية ، وانفلاقاً لأنوارك الرحمانية ، فصار نائباً عن الحضرة الربانية ، وخليفة أسرارك الذاتية ... إلخ ، فقال : الجواب أن يقال إن هذا الكلام وأشباهه من جملة التكلف والتنطع ، الذى حذر منه نبينا محمد ﷺ فيما رواه مسلم فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **هلك المتنطعون قالها ثلاثاً** » [1] ، قال الإمام الخطابى – رحمه الله – : المتنطع المتعمق فى الشيء ، المتكلف البحث عنه فى مذاهب أهل الكلام ، الداخلين فيما لا يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم . (انتهى) .

أعجب العجب :

إن الصوفية بعد اعتمادهم على الإذن الخاص ، وتعظيمهم للذكر بالاسم المفرد والمبهم ، كسبيل رئيسى للوصول والمشاهدة ، تخلوا عن ذلك كله وهدموه فى برهة وقالوا : إن الواصل إذا بلغ مقام المشاهدة يصبح الذكر عليه حراماً ، فلا يجوز له أن يذكر الله تعالى ، حتى إن الشبلى تمنى أن يصل الناس جميعاً إلى

---

(١) رواه مسلم فى العلم (٢٦٧٠) وداود فى السُّنة (٤٦٠٨) وأحمد (٣٦٤٧) .

هذا المقام ، الذى لا يذكر فيه الله تعالى ، فيقول : لا أستريح إلا إذا لم أر لله ذاكراً على وجه الأرض ، قال بعضهم : مراده لا أستريح إلا أن دخلت حضرة الشهود لأنه لا ذكر فيها . (ط ١ / ٩٠) وهذا هو المقام الذى يفقدون فيه عقولهم وقلوبهم ، ولذلك كان الشبلى يأخذونه إلى المارستان كثيراً !! .

لقد اختلط عليه الأمر فلم يعد يميز بين ما يجب عليه فى الدنيا وما يحظى به المؤمن حين يرى الله تعالى فى الجنة .

خامساً : الارتباط بالطريقة ونظامها والتعلق بشيخها :

فالطريقة والشيخ سبيلان ضروريان للوصول ، ومن تخلى عنهما ضل ، حيث لن يجد من يأخذ بيديه ، فالطريقة التزام بخط معين وزى معين وأذكار معينة ، والمريد يأخذ العهد على الشيخ بالحفظ والرعاية والنجاة فى الدنيا والآخرة ، فى مقابل أن يلتزم المريد بالطريقة ، هذا هو الفكر الصوفى .

يقول الشعرانى فى الميزان ص ٢٠ : إن طريق الوصول إلى الحقيقة هو السلوك على يد شيخ عارف بميزان كل حركة وسكون ، بشرط أن يسلمه نفسه يتصرف فيها وفى أموالها وعيالها كيف شاء ، مع انشراح قلب المريد لذلك كل الانشراح . (انتهى) .

والشيخ هو المخلص والموصل ، ولذا فهو يشترط على مريديه آداب الطريقة ، فلا ذكر إلا بعد إذنه ، ولا خلوة إلا باستحضار صورته ، ولا سفر إلا بمشورته ، ولا زواج ولا طلاق إلا بعلمه ، فهم يظنون أنه يضمن لهم السعادة فى الدارين.

ولهؤلاء بطانة من الدعاة على أبواب جهنم ، لهم ألسنة البلغاء والشعراء ، تسحر ببيانها البُلَّه والرعاع ، وتبهر بذوقها الوجهاء والكبراء ، ظاهرهم أدلاء وفى حقيقتهم قطاع طرق ، يزينون العمى ويحسبون أنهم على الهدى ، جعلوا

ظهورهم جسوراً لأهل الهوى ، وأسماعهم أوعية للهزل ، يبغضون السُنة وأهلها ، ويحبون البدعة ، ويهتفون للفتنة ، ويرجون للضلالة ، وصدق فيهم ما رواه الدارمى عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين** » [1] .

هؤلاء المضللون إذا ذكر التوحيد اشمأزت قلوبهم ، وإذا ذكرت السُّنة اصفرت وجوههم ، فهم أئمة فى تخريب المساجد ، أسياد فى تعمير المشاهد ، والسالك يقلد فى كل شىء فلا يشارك فى رأى ، ولا ينازع فى حكم ، إنما يعظم ويقدس ويقلد ، وإذا أهين من شيخه فلا يشكو ولا يرد ولا يعترض ، وإن رآه على بطن امرأة لا تحل له ؛ لأن الشيخ يتلقى عن الله مباشرة كما زعموا .

أما ما يراه فى ظاهر الأمر معصية فهو فى حقيقته طاعة ، ولكنه يخيل إليه ذلك امتحاناً من شيخه ، فيجب عليه أن يعظمه ويسلم له لينسج فيه الأحوال .

نتاج التربية الصوفية :

وكان من نتاج هذا النوع من التربية ما يلى :

أولاً : فراغ قلوب السالكين من كل شىء إلا من شيوخهم :

فالصوفية يتهللون فرحاً بذكر شيوخهم أكثر من تهللهم بذكر الله تعالى فإذا ذكر الله تعالى لا يتحرك لهم ساكن ، كما يتحركون لشيوخهم ، فإذا ذكر أحد شيوخهم امتلأت مجالسهم بـ « مدد مدد مدد » كحال أولئك الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** (٤٥) ﴾ [الزمر : ٤٥] .

ولذلك فهم يكرهون علماء التوحيد ، الذين يتكلمون فى إخلاص العبادة

---

(١) رواه الترمذى فى الفتن (٢٢٢٩) ، وأحمد فى المسند (٢٩٥) .

لله تعالى ، فالمريد الصوفى فى كل حال عابد والشيخ معبود ، وفراغ القلب دائماً لا يتولد إلا فى مثل هؤلاء ، الذين لا يعرفون إلا تعظيم البشر وتقديسهم من دون الله تعالى .

والشيوخ يقولون : « من بدل شيخه فهو مشرك » ! بل ومن أحب شيخاً غير شيخه فهو مشرك ، يقول الشيخ على وفا : الأشياخ لا يغفرون أن يشرك بهم ؛ تخلقاً بنظر مسمى أخلاق الله ، فإذا رأيت أيها المريد شيخك يتشوش منك إذا أشركت فى محبته شيخاً آخر فإياك أن تسيء به الظن ، بل اشهد أن ذلك من أخلاق الله الذى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ [النساء : ١١٦] . (الأنوار القدسية ١٢/٢) .

وذلك لأنهم يعتبرون الشيخ قائماً على رعاية مريده حياً وميتاً ، فهو دليل توفيق إن بدله فقد أشرك ، هكذا ظنوا .

يقول أحمد التيجانى فيما نقله عن صاحب (جواهر المعانى ص ٣) : وليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بلا حساب ولا عقاب ، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا ، وبلغوا من المعاصى ما بلغوا إلا أنا وحدى . (انتهى) .

ثانياً : قتل المواهب ودفن القدرات واحتقار النفس :

تدور التربية عند الصوفية على احتقار النفس وإذلالها ، وهذا مخالف لما عليه أهل السُنة أن النفس تحتاج إلى الضبط ولا تحتاج إلى القتل ، وقد اعتبر الصوفية أن النفس رجس ونجس ، ينبغى التطهر منها كما تتطهر المرأة من دم الحيض ، كما قال أبو يزيد البسطامى ، وهذا فهم باطل ، وبطلانه يستلزم فساد الطريقة التى يسلكها الصوفية فى تهذيب النفس وتقويمها .

كيف تتعلم الإخلاص عند الصوفية ؟ :

وفى الصوفية طائفة يرون أن التعرض لمواقف التهم وفعل القبائح والمنكرات وترك المباحات يعتبر طريقاً سديداً لتهذيب النفس ، وأساساً لتخليصها من النظر إلى الخلق ، كي تسلم من الرياء والسمعة .

وقد حكى أبو حامد الغزالى عن ابن الكرينى أنه قال : نزلت فى محلة فعُرفت فيها بالصلاح ، فنشب فى قلبى فدخلت الحمام ، وعينت على ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ، ثم لبست مرقعتى وخرجت ، فجعلت أمشى قليلاً قليلاً ، فلحقونى فنزعوا مرقعتى وأخذوا الثياب وصفعونى ؛ فصرت بعد ذلك أُعرفُ بلص الحمام فسكنتْ نفسى . (انظر التلبيس ص / ٣٥٥) .

كيف تتعلم التواضع عند الصوفية :

أراد صوفى أن يدرب نفسه فى مجلس الإمام الشافعى على التواضع فدهن شاربه بالقذر فلما كشفه الإمام الشافعى طرده وحبسه وجلده .

يقول عليّ بن يحيى الوراق : كان الشافعى - رحمه الله - رجلاً عطراً ، وكان يجيء غلامه كل غداة بغالية - الغالية نوع من الطيب مركب من المسك والعنبر والعود والدهن-فيمسح بها الأسطوانة التى يجلس إليها الشافعى ، وكان إلى جنبه إنسان من الصوفية ، وكان يسمى الشافعى البطال ، يقول : هذا البطال وهذا البطال، قال : فلما كان ذات يوم عمد إلى شاربه فوضع فيه قذرا ، ثم جاء إلى حلقة الشافعى فلما شم الشافعى الرائحة أنكرها ، وقال فتشوا نعالكم فقالوا : ما نرى شيئاً يا أبا عبد الله ؛ قال : فليفتش بعضكم بعضاً ، فوجدوا ذلك الرجل فقالوا : يا أبا عبد الله هذا . فقال له : ما حملك على هذا ؟ ، قال : رأيت تجبرك فأردت أن أتواضع لله عز وجل ، قال : خذوه

فاذهبوا به إلى عبد الواحد ، وكان عبد الواحد على الشرطة فقولوا له : قال لك أبو عبد الله اعتقل هذا إلى وقت ننصرف ، قال : فلما خرج الشافعى دخل إليه فدعا به فضربة ثلاثين درة أو أربعين درة ، قال : هذا إنما تخطيت المسجد بالقذرة ، وصليت على غير طهارة . (انظر العزلة للخطابى ص ٩٠ ، ٩١) .

انظر كيف اختار هذا الرجل دهن الشياطين طريقاً للتربية ؟ ، وكيف ألفه وترك الدهون الطيبة التى تنشط النفوس وتؤلف القلوب وتقرب الملائكة وتنفر الشياطين ؟ فهل تراه بلغ التواضع ؟! .

ثالثاً : تحميل المريد محالات لا يستطيع فهمها أو الوفاء بها :

للصوفية مفاهيم تربوية تدخل فى محالات العقل والدين ، ولا تمت إلى الواقع بصلة فالاستغفار عندهم ذنب يحتاج إلى استغفار ، والإخلاص عندهم ذنب يحتاج إلى إخلاص ، والتوبة عندهم ذنب تحتاج إلى توبة ، وقد تكلموا فى دقائق الخواطر والنفوس؛ حتى ضيعوا الأصول واتبعوا البدع وتركوا السنن ، وأحالوا إلى الخيال والظن وتركوا العلم والفهم ، وأخطر ما عند الصوفية من المفاهيم قولهم بتقسيم التوحيد إلى توحيد العامة ، والخاصة ، وخاصة الخاصة ، وجَعْل الفناء فى ذات الله تعالى أعظم درجاته ، حتى إن كثيراً منهم يصل إلى الجنون ، جراء ما يفكر فيه من تلك المحالات ، وهم يعتبرون هذا الجنون درجة من درجات الوصول .

ومن أعظم الأمور احتواء مصطلحاتهم على رموز وإشارات ، إن لم تكن هى الكفر بعينه فهى موهمة له ، وإلا فليس هناك على وجه الأرض كفر ، فكيف تصلح تلك المبهمات طريقاً للتربية ، وهى تحمل المرء على فوهة بركان إن فهمها على حقيقة مرادها الذى أرادوه ألحد ، وإن اتبع ظاهرها وخالف مرادها ضل عن سبيل الله تعالى .

هذا ويعيش المريد وسط من يرى أن الفناء عن المحسوسات أعظم مقامات الدين فهم قوم غائبون عن الحياة وعن الشرائع فأى تربية هذه التى سيحظى بها ؟! وأى علم هذا الذى سينهل منه ؟! .

وقد يكون طلب البلاء والسعى إليه من أعظم المحالات العملية التى يتصدر لها الصوفية ، ويجعلونها برهاناً على عظم التمكين وقوة الوصول ، وهذا اغترار بالنفس إن لم يكن عين هلاكها ، إذ كيف يضمن لنفسه أن يبقى على همته فلا تفتر وعلى نفسه فلا تجزع ولا تمل ، ومن هؤلاء الذين كانوا يطلبون ذلك سمنون بن حمزة ، ومما أنشده فى ذلك :

وليس لى فى سواك حظ ... فكيفما شئت فاختبرنى

فابتلاه الله تعالى بحبس البول فلم يصبر عليه .

قال القشيرى فى (الرسالة ص ١٢٢) : فأخذه الأسر « وهو احتباس البول » من ساعته ؛ فكان يدور على المكاتب ويقول : ادعو لعمكم الكذاب . (انتهى) .

وقد ثبت فى السُنة أن النبى ﷺ نهى عن تمنى البلاء ودعاء المرء على نفسه بتعجيل العقوبة لأنه لا يقدر على ذلك .

روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ فقال لـه رسول الله ﷺ : « **هل كنت تدعو بشىء أو تسأله إياه ؟** ، قال : نعم ، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، **فقال رسول الله ﷺ** : « **سبحان الله لا تُطيقه أو لا تستطيعه أفلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، قال : فدعا الله له فشفاه** » .

قال النووى فى شرح مسلم (٩/ ١٨) قوله : عاد رجلاً من المسلمين قد خفت مثل الفرخ « أى ضعف » ، وفى هذا الحديث النهى عن الدعاء بتعجيل العقوبة ، وفيه فضل الدعاء أن يقول « اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (انتهى) .

وأخيراً : فالتربية عند أهل السُّنة تعتمد على عبادات مشروعة ، ونظر بيقين وتدبر ، وفى المصاحبة والمذاكرة والسؤال تمام ذلك .

أما التربية عند الصوفية فهى رياضات سلبية - كترك الطعام والشراب وترك النوم وترك المخالطة - ومنكرات وبدع كالرقص والغناء وعمل بعض الطقوس كالموالد والاعتكاف حول القبور - مع شرك الغلو والتقديس ، هذه هى أسس الترويض النفسى والتهذيب الخلقى عند الصوفية ، التى أدت بهم إلى الالتقاء مع الفلسفات المنحرفة والمناهج الشاذة؛ حتى هجروا سبل الحياة السوية، ووصلوا إلى درجة من الضعف والهوان ؛ يسرت السبل لأعداء الله تعالى أن يستعمروا بلاد المسلمين ، ويغزوهم فى أفكارهم ويستنفذوا ثرواتهم ؛ وهذا هو السر الذى يدفع أمراء الجور والظلم من السلاطين إلى تأييد التصوف ، ونشره بين فئات المجتمع كى يشغلوا الناس عنهم وعن سياساتهم الجائرة .

بداية ظهور الطرق الصوفية

بدأ ظهور الفرق الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فقد نشأت الطيفورية في نيسابور نسبة إلى أبي يزيد البسطامي ، وأساس مذهبه يقوم على السُكْر ، وأنشأ أبو صالح حمدون القصار فرقة الملامتية ، وأساس مذهبه الملامة ، وكان قد سبقهما في الظهور فرقة المحاسبية ، وتنسب إلى الحارث المحاسبي ، وأساس مذهبه يقوم على الرضا ، وكان يهتم بدراسة الوساوس والخطرات ودقائق النفوس ، وقد ذمه الإمام أحمد على ذلك ، ثم نشأ بعد ذلك طائفة الجنيدية نسبة إلى الجنيد بن محمد ، وأساس مذهبه يقوم على الصحو ، عكس الطيفورية ، هذا هو الذي ذكره الصوفية في كتبهم ثم نشأت بعد ذلك فرق متعددة ، وهذه الفرق أقرب إلى أن تكون مدارس فكرية من كونها طرقاً ، وإن كانت قد جمعت بين الاثنين ، وأكثر المدارس الفكرية تأثيراً في الصوفية مدرسة ابن عربي الحلولي وتسمى الأكبرية .

وفي القرنين السادس والسابع انتشرت الطرق في بلاد المغرب ، وترعرعت في مصر وغيرها من بلاد المسلمين ، ووجدت لها أتباعاً من فئام الناس ، ومن الأمراء والسلاطين ، فنشأت الشاذلية المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي ، والأحمدية المنسوبة إلى أحمد البدوي ، والبرهامية المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقي ، والخلوتية وهي طريقة فارسية نشرها في مصر مصطفى كمال الدين البكري ، والمولوية المنسبة إلى جلال الدين الرومي الفارسي ، والبكتاشية التي أسسها حاج بكتاش وهاتان الأخيرتان يستخدمان الغناء والموسيقى معاً في مجالس الذكر .

وهذه الطرق عبارة عن فرق اجتمعت حول شيخ معين ، يخضع لنظام سلوكى محدد وزى معين وذكر معين وقالب اجتماعى متميز وهم وإن كان لهم فكر متميز إلا أنهم يتقلبون فى المدارس السابق ذكرها جميعاً . ومن كان له اختلاط بهم فسيسمع شيخه يوماً يقول أثناء غيبته : أنا البدوى أنا الدسوقى أنا الشاذلى أنا كذا ...

ولذلك تجد أفكارهم مختلطة مضطربة ، فيروى عنهم الحلول والاتحاد ، وتجد فيهم الغلو فى الأولياء والصالحين ، كما تجد فيهم البدع والخرافات .

ومن تقصى أذكارهم ، واطلع على أحوالهم ، ودرس صلواتهم وأورادهم وابتهالاتهم يراهم غرقى فى مفهوم الحقيقة المحمدية ، وهذا محصور فى كتبهم التى بين أيديهم ، وهو حقيقة أحوالهم ، ديدن شيوخهم، وإن كان هناك قلة من شيوخهم من ينكرون بعض الأحوال غير المرضية التى أثرت على الحلاج وغيره ، كما هو الحال فى الشيخ أحمد الرفاعى مؤسس الطريقة الرفاعية فقد اشتد نكيره على ما ذكره الحلاج فى مسألة الحلول .

وهذه الطرق لا تعالج قضايا الحرام والحلال ، ولا كيفية النهوض بالأمة ، ولا تبذل الجهد لحل مشكلاتها ، ولا إعادة عزها ومجدها ، لا يشغلها ذلك ولا يروق لها التفكير فيه ، وتلك الفرق لا تهتم بتصحيح العقيدة ، ولا مواجهة الغزو الفكرى الإباحى الذى تتعرض له الأمة ، ولا الرد على خصوم الدين فى الداخل ولا فى الخارج ، بل إنهم أول من أفسد العقيدة وفتحوا الأبواب للغزو الفكرى ما لم يفتح من قبل .

وليس عند تلك الفرق قواعد اقتصادية ولا سياسية ولا أسس اجتماعية ولا أفكار تربوية ولا زراعية ولا صناعية وتنحصر بحوث الصوفية وقواعدها فى تأويل

الأحلام والمنامات ، وذكر الوساوس والخطرات ، ونقل القصص والخرافات ؛ ولذلك يغلب على أتباع تلك الفرق تصديق الخرافات والأوهام ، وسيطرة الوساوس وأحاديث النفس ، فبها يتقدمون وبدونها يتأخرون .

فحياة الصوفية تجرى فى المنامات ؛ ونتائج الامتحانات فى المنامات ، والعمليات الجراحية فى المنامات ، وقطع المسافات الطويلة فى المنامات ، ومعرفة الصحيح من الضعيف فى المنامات ، وهكذا الحياة كلها منامات .

وتجد المبالغة كبيرة فى ذكر كرامات الشيوخ ، ومدح الأحوال الناقصة ، وتعظيم المجانين ، والتبرك بهم ، والأنس بصحبتهم ، والتفاؤل برؤيتهم ؛ على اعتبار أنهم يحملون أسرار الله تعالى ، وهذا مما لا شأن له فى إقامة الدين ، ولا نصرة الملة وهذا لم يعرف لأولهم من الزهاد الصادقين .

وتجد بين هذه الفرق من العداوة والبغضاء والسخرية ما لا تجده عند غيرهم ويرجع ذلك إلى تفاوت مقامات الشيوخ، وتعدد الكرامات ، وكثرة صيغ الصلوات والأسرار فى كل طائفة عن الأخرى ؛ ولأجل ذلك تجد كل سالك يؤكد أن شيخه أحق بالقطبية من شيخ الآخر ؛ بما له من عظم الحال والمقام .

أيضاً يتباهى بعضهم على بعض بكثرة زوارهم ، وعظم احتفالاتهم ، وهى ملاهٍ للرقص والغناء ، والأكل والشرب ، والشعبذة والسحر ، والاختلاط بين الرجال والنساء والمردان ، وجمع النذور الشركية .

ويفتخرون بحضراتهم ، وهى كمراقص السامرى وكفار قريش فى الصفير والتصفيق والغناء ، يضربون الأرض ارتفاعاً وانخفاضاً ، ويرددون « أه » « أه » «أه » أو « هو » « هو » « هو » .

ويغلب على تلك الفرق الإتيان بالشرك الأكبر على جميع صوره وأشكاله ، فتجد الاستغاثات بغير الله تعالى ، والتخويف من الغائبين والأموات ، والذبح والنذر لغير الله تعالى .

ومن أسس الاعتقاد أن يؤمن العابد أن كمال الحب وكمال الذل لا يكون إلا لله تعالى وحده ، وهذا تجده على أعتاب الشيوخ لغير الله تعالى .

وهم دائماً منقسمون ومتفرقون لأجل التهام الخلافة ، والفوز بالحظ الأوفر من صناديق النذور ، وأصبح تصوفهم نوعاً من الارتزاق أكثر منه منهجاً فكرياً ، فأوائل المتصوفة زهدوا وأواخرهم كسبوا .

طرق الدعوة إلى الشيوخ والطريقة

في بادئ الأمر يبدأ أتباع الشيوخ في عمل اجتماعات سرية منظمة في بيت أحد المريدين أو في أحد المشاهد المشهورة، وتكون هذه محل جذب للجدد من الراغبين في التدين والاستقامة ، وتبدأ تلك الاجتماعات غالباً بقراءة القرآن وتكون مرحلة أولية ، معبرة عن حسن القصد وصدق الطوية ، ويستعرض فيها السالك الكلام عن أسرار الحروف المقطعة على غرار تفسير الباطنية ، مدعماً بأدلة اختصاص الأولياء بذلك العلم ؛ لما لهم من اطلاع على الحقيقة ولكونهم محل استقبال المواهب اللدنية ، وهذا التفسير الذي يسمونه بالتفسير الإشاري لا يخضع لقواعد قرآنية أو حديثيه أو لغوية ولا يعضد بمأثورات عن الصحابة أو التابعين ، إنما هو مجرد نظر ووهم لا أساس له ، ومن أمثلته أي التفسير الإشاري ما ذكره الفتني في كتاب العلم باب التفسير من تذكرة الموضوعات قال : ذكر محمود بن حمزة الكرماني في كتاب العجائب أقوالاً منكرة لا يحل الاعتماد عليها ولا ذكرها إلا للتحذير منها : ألم معنى ألف ألف الله محمداً فبعثه نبياً ومعنى لام « لامه الجاحدون » ، وميم « ميم الجاحدين » .

ومنه ما ذكره ابن فورك في قوله : ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، أن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه ، ومنه قوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، أنه الحب والعشق (انتهى) .

فإذا لمح السالك أن أحد الجالسين أشرب من هذا الكلام ، وأعجب به دعاه إلى الحضرة الأسبوعية ، أو إلى مولد شيخ الطريقة ، أو حدد له موعداً مع الخليفة ، وألح عليه مراراً بالذهاب إليه ، وإن تأخر أخبره أن الشيخ بانتظاره ، وأنه يطلبه شخصياً ، وأن له عنده بشرى بالمكانة والوصول .

ترويج الشرك بمحبة أهل البيت

فإذا ذهب المدعو إلى الشيخ وجلس معه بشره بالقرب والوصول ، وأعلمه باتصال نسبه إلى آل بيت رسول الله ﷺ ، وأنه حامل رايتهم ؛ ومن ثم فلا يجب عليه أن يتأخر عن تلك الدعوة وإلا فهو غير محب لأهل بيته - وأهل السُّنة جميعاً يحبون أهل بيت رسول الله محمد ﷺ ، فحبهم من الإيمان وبغضهم من النفاق ، وهذا من أصول الاعتقاد التى أجمع عليها سلف الأمة وخلفها ، خلافاً لمن أبغضهم ونصب لهم العداء - فيقع المدعو فى الحرج ، ويدفعه جهله بمكر الداعى إلى الصمت ؛ وبذلك اتخذ الصوفية أهل بيت النبى ﷺ ذريعة كبرى إلى الشرك ، والغلو فى الصالحين ، والابتداع فى الدين .

فإذا رأى الشيخ أنه قد تمكن من قلب ضيفه ، أخبره أنه لا يستطيع أن يصل إلى ربه أو يدرك رضاه والقرب منه ومعرفته بمفرده ، بل لابد أن يسلم له أمره ، ويحط عنده آماله وأعماله ، ويمكنه من قلبه وجوارحه وأسراره ، بل وحياته كلها ، بل ومماته أيضاً ، ومن لم يسلم لشيخه فلن يرى السعادة أبداً ، هكذا زعموا .

وربما يستشهد بما ذكره القشيرى فى الرسالة : وقبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته ومن رده قلب شيخ فلا محالة يرى غب ذلك ولو بعد حين ومن خذل بترك حرمة الشيخ فقد أظهر رقم شقاوته وذلك لا يخطئ . (انتهى) .

عند ذلك يقع هذا البائس المسكين فى الاعتقاد فى الشيخ ، ويصير مسلماً له منقاداً لأوامره - بعد أن كان مسلماً لله تعالى - فيأخذ عليه العهد ، ويتلقى منه الإذن بالذكر الخاص ؛ فإذا بلغ ذلك الحد تحول من مجلس القرآن إلى

مجلس الذكر على الطريقة الصوفية ، وصارت الحضرة أحب إليه من أى شيء ، ولو كان ذلك الشيء هو القرآن الذى اجتمع من أجله ، فإن لم يستجب المدعو بهذه الكيفية ، ولم ينتسب إلى الطريقة أخبره السالك أن أصحاب الجاه والمناصب يترددون دائماً على الشيخ يلتمسون منه البركة والمكانة ويقبلون يديه ويطلبون منه الرضا عنهم ، بل إن الشيخ الفلانى الشهير يأتى إلى الحضرة والمولد ، فمن أنت من هؤلاء ؟ .

وإذا أراد أحدهم تأكيد مكانته ، وبسط سطوته ، وتمرير زلته ، وتحسين بدعته ، نسب نفسه إلى رسول الله ﷺ وآل بيته الكرام ، أو ادعى العصمة فى الدين ، ورأى نفسه فوق اجتهاد المجتهدين ونقد المحققين .

عند ذلك لا يجد المدعو المقلد الجاهل إلا الاستسلام والدخول فى الطريقة ، وأين هو من علم هذا الشيخ الكبير ومكانة صاحب الجاه حتى ينكر أو يعترض .

وهذا يا إخوانى من أعظم أبواب الفتنة خاصة فى هذا العصر ، عصر الغربة الذى انتشر فيه التقليد ، وتفشت فيه الأمية ، وهؤلاء هم المغروروں دعاة الفتنة ، ورءوس الجهالة ، فلا يغتر الناس بهم ، فالمعصوم من عصمه الله ، والممكور من مكر الله به ، والحق لا يعرف بالرجال ، وإنما يعرف الرجال بالحق ، والحجة ليست فى شخص ولى ولا عالم ، إنما الحجة فى كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ، فلا تعبأ بأمثال هؤلاء ولا تلتفت إليهم أبداً .

وكان من الواجب على كل من أعطاه الله منهم علماً أن يلتزم بالسُنة ، وأن يحذر أتباع طريقته من الضلالة والبدعة ، وهم الذين يتغنون بقولهم : « إذا رأيت الرجل يطير فى الهواء ويمشى على الماء فلا تغتروا به حتى تروا مكانه من القرآن والسُنة » ، ولكنهم خانوا الأمانة ، وضيعوا الرسالة ؛ وإلا فأين القرآن

والسُّنة من حضورهم الموالد ، ومباركتهم المنكرات ، ورضاهم بهذا الشرك ، وهذه الكهانات ؟ أهذه أمانة العلم ؟ أهذا هو ميراث الرسالة والنبوة ؟ ، أهذا هو التوحيد الذى كان عليه رسول الله ﷺ ؟ ، أتلك هى السُّنة التى اجتمع عليها أصحابه ؟ فمهلاً مهلاً ورفقاً بعوام المسلمين وعقيدتهم .

فاحذر يا أخى المسلم ممن كانت هذه صفته ، وفر منه فرارك من السبع ، وإياك أن تستجمع له فكرك ، أو تنصت له بعقلك وقلبك ، فالقلب ضعيف والبدعة مرض ، روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم** » (رواه مسلم فى المقدمة (٧) وأحمد فى المسند (٨٣٩٠) .

يقول السيوطى فى الجامع الصغير المجلد الرابع فى شرح هذا الحديث (رقم ٤٧٨٠) : ففيه إشارة إلى أن الحديث ينبغى ألا يتلقى إلا عن ثقة ، عرف بالحفظ والضبط ، وشهر بالصدق والأمانة ، عن مثله حتى ينتهى الخبر إلى الصحابى ، وهذا علم من أعلام نبوته ، ومعجزة من معجزاته ، فقد يقع فى كل عصر من الكذابين كثير ، ووقع ذلك لكثير من جهلة المتدينة المتصوفة ، وفيه إشارة إلى مراجعة والتزام أقوال السلف ، لا سيما العلماء المجتهدين فى شتى العلوم . (انتهى) .

فأمثال هؤلاء الدعاة الفاتنين أصحاب الرأى والهوى بانتسابهم إلى تلك الطرق فإنهم يروجون لنشرها ، ويفسحون لدعاتها ، ويمدون الأمراء والسلاطين بحبالها ، حتى يتيسر لها العسير ، ويفتح لها السبيل ، وتكون دعوة جماهيرية ، تجمع الوجهاء والكبراء وتشد إلى خدمتها الضعفاء والبؤساء ، ولقد بلغ بها الوهن حتى صارت مأوى كل آبق ، ومرتع كل عاطل ، وسبيل كل مريد

للشهرة والمناصب .

ولولا خوفنا عليهم ما حذرناهم ، ولو كان السلطان الشرعى قائماً بالمعروف آخذاً بزمامهم لتركناهم له، ولكن لما تداعت الفتن، وانتشرت البدع ، لزم إعلان النكير عليهم ، وإسماع القوم ألفاظ البراءة منهم ، وذلك إقامة للحجة عليهم ولعلهم يتوبون إلى الله تعالى ، كما قال أهل الإصلاح والتقوى : ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .

حكم الصلاة خلف غالطى الصوفية كالتيجانية وغيرهم :

فتوى رقم (٢٠٨٩) :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه وبعد :

الفرقة التيجانية من أشد الفرق كفراً وضلالاً وابتداعاً فى الدين لما لم يأذن به الله سبحانه ، فلا تصح الصلاة خلف من هو على طريقتهم وبإمكان المسلم أن يلتمس له إماماً غير متبع لطريقة التيجانية وغيرها من الطرق المبتدعة ممن لا تتسم عباداتهم وأعمالهم بالمتابعة لمحمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه، وإذ لم يجد إماماً غير متبع فيقيم له جماعة فى أى مسجد إذا أمن الفتنة والإضرار به من المبتدعة ، فإن كان فى بلد تسلط فيه مبتدع فيقيم الجماعة فى أهله أو بأى مكان يأمن فيه على نفسه ، ومتى أمكنك الهجرة إلى بلد تقام فيه السُنة وتُحارب البدع وجب عليك ذلك .

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء .

عضو	عضو	عضو	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفى	عبد العزيز بن باز

فتوى رقم (٢٠٨٩) :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه وبعد :

لا تصلِّ مع هؤلاء الصوفية في زاويتهم ، واحذر صحبتهم والاختلاط بهم لئلا يصيبك ما أصابهم ، وتحرَّ الصلاة في مسجد جماعة يتحرون السُّنة ، ويحرصون عليها .

وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء .

عضو	عضو	عضو	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفي	عبد العزيز بن باز

الباب الثالث
مقاصد الصوفية

إذا كان أهل السُّنة يبتغون من وراء الطاعات والعبادات الفوز بالجنة، والتلذذ بنعيمها ورؤية وجه الله تعالى ، والنجاة من النار ، فإن الصوفية يبتغون فى المقام الأول إزالة الحجب والعلائق التى تحول بين الروح والسباحة فى ملكوت الله تعالى ؛ لتلتقى بالملائكة والأنبياء ، ورؤية الله تعالى فى الدنيا والفناء فى ذاته ، ورؤية النبى ﷺ يقظاً ومناماً ، والقدرة على التصرف - إلى الحد الذى يقولون فيه للشىء كن فيكون - والإطلاع على الغيب والنظر فى اللوح المحفوظ .

هذه علامات ضرورية يرى فيها الصوفى أن الإيمان لا يثبت ولا يصح إلا بها ، وأنه لا يحظى بمقام القرب فى الآخرة إلا إذا بلغ تلك المنزلة فى الدنيا .

أولاً : اللقاء مع الخضر عليه السلام :

اللقاء مع الخضر أول أمنية يتمناها الصوفية فى بداية هذا الطريق ، فمن لم يرق إلى تلك المنزلة فلا يحدث نفسه بالتى بعدها ، وذلك لأنهم يعتبرون أن الخضر عليه السلام هو الباب الأول لتلقى العلوم اللدنية والمواهب الربانية والأسرار العلوية فمن فتح له فما بعده أهون . **وهذا لا دليل عليه ولا برهان إلا الظن والوهم . فالخضر عليه السلام نبى من أنبياء الله تعالى ، وذلك لأن أفعاله لا تبرر بمجرد الولاية .**

قال ابن كثير فى البداية (١/٣٦٩): الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام ؛ وما ذاك إلا للوحى إليه من الملك العلام ، وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولى لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى فى خلده ؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة ؛ إذ

يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . (انتهى) .

والخضر عليه السلام لم يكن له اطلاع على الغيب من جهات كثيرة منها : أنه لم يعرف موسى إلا بعد أن عرفه موسى بنفسه ، فقال : « **أنا موسى ، فقال : موسى بنى إسرائيل قال : نعم** » (١) .

وإذا كان هذا غيباً نسبياً لم يستطع الخضر عليه السلام أن يعرفه فكيف ينسب إليه الغيب المطلق وهو أعظم ، حتى يكون ممداً للصوفية بالعلوم اللدنية ؟ .

لقد شهد الخضر على نفسه بقصور علمه بجوار علم الله تعالى ، وأن علمه بالنسبة لعلم الله تعالى لا شئ ، لذا قال لما رأى عصفوراً ينقر نقرة أو نقرتين فى البحر : « **ياموسى ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور** » (٢) .

والخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام :

قال شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى– فى الفتاوى (٢/٢٣٤) : إن قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة ، بل الأمور التى فعلها تباح فى الشريعة ؛ إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر ؛ ولهذا لما بين أسبابها لموسى وافقه على ذلك ، ولو كان مخالفاً لشريعته لم يوافقه بحال . (انتهى) .

وإن قدر جوازاً استغناء الخضر عليه السلام عن شريعة موسى عليه السلام فى زمنه فهذا لا يحق لأحد فى زمن النبى محمد ﷺ نبياً كان أو ولياً ، وذلك لأن الله تعالى أتم لنبيه الديانة ، وأقام به الرسالة ، ولا نبى بعده ، ولا ولى فوقه .

لكن الصوفية زعموا أن علم الظاهر للأنبياء والعوام ، وعلم الباطن لهم ،

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى فى باب العلم (١٢٢) .
(٢) متفق عليه : رواه البخارى فى باب العلم (١٢٢) .

فلا حاجة بهم إلى هذه الشريعة ولا إلى تلك الظواهر ، وهذا ولا شك إلحاد وزندقة ، وهو مدخل القول بأن الولى فوق النبى ، وهم يعتبرون أن الخضر ولي وليس بنبى ! فاعلم مرادهم تسلم .

الخضر عليه السلام وأدلة مماته :

من المفترض أن الصوفية لا يهمهم حياة الخضر عليه السلام من مماته ، لأن ذلك لا يمنعهم من اللقاء به ، إذا كانوا يزعمون اللقاء مع النبى ﷺ يقظة ، وقد ثبت لديهم وفاته ، ولكنهم يناضلون نضالاً عجيباً لإثبات حياته ولقائه بهم وهذا وهم لا أساس له ولا دليل عليه ، وذلك من عدة أوجه منها :

[١] لو كان الخضر عليه السلام حياً لكان تابعاً للنبى ﷺ ناصراً له ، وهذا هو الواجب عليه وعلىٰ من هو أعلى منه كما قال الرسول ﷺ فى حق موسى عليه السلام : « **لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى** » (١) ، وقد أخذ الله تعالى العهد على الأنبياء إن أدرك أحدهم النبى ﷺ أن يؤمن به وينصره ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** (٨١) ﴾ [آل عمران : ٨١] .

قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٤٢٢٠) والدارمى فى المقدمة (٤٣٥) . قال ابن حجر فى الفتح (٣٤٥/٣) : أخرجه أحمد وابن أبى شيبة والبزار من حديث جابر أن عمر أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضب وقال : « **لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى** » ورجاله موثوقون إلا أن فى مجالد ضعفاً . (انتهى) .

على أمته الميثاق ، لئن بُعِثَ محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . (انظر تفسير ابن كثير ٣٧٨/١) فلو قدر وجود الخضر عليه السلام فى ذلك الزمان فلا يمكن أن يتخلف عن ذلك العهد ليسبقه من هو دونه ليعطى العهود والمواثيق .

[٢] لا يمكن أن يكون الخضر قائماً بتلك الوظائف التى ينسبها إليه الصوفية ثم يغفل الشرع المبارك ذكر ذلك ويذكر ما دونه من الأمور .

[٣] أن عموم الأدلة تفيد أن الموت مكتوب على كل مخلوق ، لا مفر منه ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

ولم يستثن من ذلك لا الخضر عليه السلام ولا غيره ، ومثل هذه المسائل لا يعتمد فيها على الظنون والأوهام ، فيبقى الأصل معتمداً على عدم بقائه حياً إلى الآن ، خاصة إذا تبين أن كل الآثار التى ذكرت حياة الخضر عليه السلام تعتمد على أسانيد منقطعة ممتلئة بالمجاهيل لا يصلح الاستدلال بها على الإطلاق ، خاصة فى مثل هذه المسائل المتصلة بالاعتقاد .

[٤] أن موسى عليه السلام أعظم حالاً من الخضر ، وقد فارقه الخضر لأجل أنه تعجل سؤاله وخالف الشرط الذى وضعه فيما بينه وبينه ؛ لتمام الصحبة وحُسن الاتباع ، فكيف تقدرون أن يصبر الخضر على صحبة هؤلاء الضالين ويتعجل فراق نبى الله موسى عليه السلام ؟ وقد كان يستفسر عن أفعال لا يستطيع أحد أن يصبر عليها ، فهل يرى هؤلاء أنهم أعظم حالاً من موسى ؟ .

[٥] لو قدر أنه حى كما يزعمون لكان الأولى به أن يعيش فى المدينة أو مكة، بدلاً من أن يتجول فى الصحارى ، والقفار ليبلغ هذا وذاك سلامه على النبى ﷺ إذا ورد المدينة ، ولكان الأولى به أن يكون مرشداً وصاحباً لأبى بكر وعمر ، فيحارب مع أبى بكر المرتدين ، ويحذر عمر من المجوسى الذى

أضمر لقتله حتى قتله دون أن يشعر بذلك أحد من الصحابة ، فهذا أولى من دفع الشرور عن أصحاب السفينة الكفار ، الذين وصف الخضر أرضهم بأنها لا سلام فيها .

ولو قدر أنه حى كما يقولون لذب عن سُنة رسول الله ﷺ تأويل المنحرفين ودسائس الحاقدين ، وبدع الضالين ، ولفصل فى المتشابهات ، ولقضى بين الخصوم ، ولعلّم الجهال، وهذا أفضل بكثير من أن يسكن القفار ، ويتجول فى البحار ؛ ليسلم على هذا أو ذاك ؛ أو يرشد هذا أو ذاك كما يزعم الصوفية .

وأخيراً :

فنسبة العلوم إلى من لا يعرف نوع من الوهم والخرافة ، وصدق فى ذلك قول الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - حين ذكر له الخضر عليه السلام من أحالك على غائب فما أنصفك ؛ وما ألقى هذا على ألسنة الناس إلا الشيطان . (انتهى) .

وقد كانت قوة الدين من أقوى الموانع ، التى حالت دون تلبيس الشياطين على الصحابة رضوان الله عليهم فى مثل ما لبّسوا به على الصوفية ، فى مسألة ظهور الخضر عليه السلام ، فلم ينقل أن أحدهم قابله الشيطان ، وقال له أنا الخضر أو غيره ، فما كان يجرؤ على لقائهم بهذا التلبيس .

هل أمة محمد ﷺ فى حاجة إلى علوم الخضر ؟ :

أنزل الله تعالى على أمة محمد ﷺ القرآن وهو مهيمناً على كل الكتب التى جاءت من قبله ما فرط فيه من شيء ، قال تعالى : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقد أكمل النبى ﷺ موضع اللبنة فى هذا البناء الكبير ، ولم يعد هناك موضع فارغ لغيره كى يأتى ويتمه ، قال الله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] ، وروى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زواية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » (١) .

قال ابن عباس – رضى الله عنهما –: أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً . (التفسير العظيم ١٢/٢) .

قال أبو ذر : لقد تركنا محمد ﷺ وما يُحرك طائر جناحيه فى السماء إلا أذكرنا منه علما (٢) .

ثانياً : رؤية الرسول ﷺ فى اليقظة :

يعتقد كثير من الصوفية أن النبى ﷺ يخرج من قبره ليلقاهم فى الحضرات والأمصار والخلوات ، ويغيثهم من الكربات والشدائد ، ويمدهم بالعطايا والمواهب ، ويعلمهم الأذكار والصلوات ، ويسلمهم الخرق ، ويورثهم العلوم الصوفية حتى اعتبر بعضهم أن من لم يبلغ هذا المقام فليس مسلماً .

يقول المرسى أبو العباس : لي أربعون سنة ما حُجِبْتُ عن رسول الله ﷺ ولو حُجِبْتُ عنه طرفة عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين (جامع كرامات الأولِياء ١/٥٢٠) .

وقد كان هذا الأمر مشهوراً عند قدماء الصوفية كما بين ابن حجر العسقلانى فى « لسان الميزان ١/٣٢٠» عن أحمد بن هلال الحسانى الصوفي: أحد زنادقة الوقت ثم قال : زعم أنه يجتمع بالأنبياء كلهم فى اليقظة ، وأن

(١) متفق عليه : البخارى فى المناقب (٣٣٤٢) .
(٢) رواه أحمد فى المسند (٢٠٨٥٤) ، مسند أبى يعلى (٤٦/٩) ، والمعجم الكبير (١٥٥/٢) ومسند أبى داود والطيالسى (٤٧٩) وصحيح ابن حبان (٢٦٧/١) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

الملائكة تخاطبه فى اليقظة ، وأنه عُرِجَ به إلى السموات . (انتهى) .

وأعظم من غلا فى هذا الأمر أبو العباس أحمد بن المختار التيجانى شيخ الطريقة التيجانية فقد زعم التيجانى كما فى كتاب جواهر المعانى لعلى حرازم الباب الأول أنه : لقى النبى ﷺ يقظة لا مناماً ، وأنه أَذِنَ له فى تربية الخلق على العموم والإطلاق ، وأخذ عنه الطريقة الصوفية مشافهة ، وأمره أن يترك كل طريق أخذه عن مشايخ الطرق الصوفية اكتفاء بما أخذه عن رسول الله ﷺ مشافهة . (انظر فتاوى اللجنة الدائمة ٢/٢٣٠) .

وتنتشر تلك الحكايات بين الصوفية بأسانيد واهية ، ومتون مضطربه ، وقد علمت أنهم يقبلون القصص على حالتها ، ويشربون من تلك الأكاذيب تعظيماً لشيوخهم وتقديساً لهم ، ومن ذلك ما حكاه النبهانى أن النبى ﷺ مد يده من القبر ليسلم على أحمد الرفاعى عند زيارته له ، وهذا لم ينقله أحد من الثقات إنما هو من حكايات الكذابين المضللين .

يقول الألوسى : إن الدجالين الذين رووا هذه القصة المكذوبة ادعوا أن من كان حاضراً هناك ، ورأو اليد ، وسمعوا رد السلام نحو مائة ألف أو يزيدون ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، كيف يمكن أن يكون هناك هذا العدد الكثير ؟ أى محل فى المسجد يسعهم أو يسع عشر معشارهم ؟ ، ثم إن القبر قد أحاطت به الجدران ، فمن أى شباك خرجت اليد ؟ ، ومن المعلوم إذا كان أمر عجيب وشئ غريب يتهاجم على رؤيته الراؤون ، فلا يمكن الرؤية إلا للقريب ، وكذلك سماع رد السلام كيف أمكن للجميع ؟ فانظر إلى هذه الأكذوبة التى لا تروج على ضعفاء العقول ، ومع ذلك فقد تمسك بها قوم سلب الله منهم الحياء ، واتخذوها حبالة من حبائل مصائدهم ، وأغراهم الله على مثل هذه الدعاوى الكاذبة ؛ ليفضحهم بها فى الدنيا والآخرة انتقاماً لأهل الحق منهم . (غاية الأمانى ١/٢٢٢ ، ٢٢٤) .

فساد قول من زعم رؤية النبى ﷺ فى اليقظة بعد موته :

من الممكن أن يقابلك رجل مجنون يزعم مقابلة رسول الله ﷺ ، هذا غير بعيد خاصة فى تلك الأزمنة . حكى شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهى فى كتابه المستطرف (ص ٣٥) وقال : خرج المهدى يتصيد فغار به فرسه ، حتى وقع فى خباء أعرابى ، فقال : يا أعرابى هل من قرى ، فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلةً من لبن فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ فى ركوة فسقاه، فلما شرب قال أتدرى من أنا ؟ ، قال : لا ، قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : بارك الله لك فى موضعك ، ثم سقاه مرة أخرى فشرب ، فقال له : يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : لا . أنا من قواد أمير المؤمنين ، قال : رحبت بلادك وطاب مرادك ، ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال : يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين . قال : لا ، ولكنى أمير المؤمنين . قال : فأخذ الأعرابى الركوة فوكأها ، وقال : إليك عنى ، فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله ، فضحك المهدى حتى غشى عليه ، ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف فطار قلب الأعرابى . فقال له : لا بأس عليك ولا خوف ، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل . (انتهى) .

ومن الممكن أيضاً أن يقابلك شيطان له القدرة على التصور فى صورة بشر ، ويقول لك : أنا رسول الله ﷺ ، أو أنا الخضر أو أنا شيخك فى الطريقة ، هذا قد يقع ، وقد وقع لكثير من الأئمة أكثر من ذلك ، كما حكى عن عبد القادر فقد قال له : أنا ربك ، وليس ببعيد أن يدعى له ولغيره ما دون ذلك .

يقول عبد القادر الجيلانى : أنه عطش عطشاً شديداً فإذا سحابة قد أقبلت وأمطرت عليه شبه الرذاذ حتى شرب ثم نودى من سحابة يا فلان أنا ربك وقد

أحللت لك المحرمات ، فقال : اذهب يا لعين فاضمحلت السحابة ، وقيل له بم عرفت أنه إبليس ؟ ، قال : بقوله : قد أحللت لك المحرمات . (الموافقات ٢٠٩/٢ ، ٢١٠) .

وحكى عياض عن الفقيه أبي ميسرة المالكي أنه كان ليلة بمحرابه يصلي ويدعو ويتضرع ، وقد وجد رقة فإذا المحراب قد انشق ، وخرج منه نور عظيم ثم بدا له وجه كالقمر ، وقال له : تملأ من وجهي يا أبا ميسرة ، فأنا ربك الأعلى ، فبصق في وجهه ، وقال : اذهب يا لعين عليك لعنة الله . (الموافقات ٢٠٩/٢ ، ٢١٠) .

ونحن لا نكذب الرائي أنه رأى شيئاً ، وإنما نقول له لم لا تسأل نفسك عن ماهية تلك الحاجة التي تجعل رسول الله ﷺ يقطع هذه المسافات ليلقاك ويكلمك ؟ ولو تبصرت أيها السالك لأدركت أن الذي لقيك ما هو إلا شيطان ، وذلك لأن الله تعالى أتم لنبيه الدين وأكمله في أحسن صورة وأجمل بيان ، وأشهد النبي ﷺ على ذلك صحابته الكرام فقال لهم فيما رواه أبو داود : « **وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون ، قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ثم قال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد** » (١) .

٢ – أن النبي ﷺ لم يخرج من قبره لخواص أصحابه مع وجود الضرورة إلى ذلك فلم يخرج ليفض الخصومة التي بين أبي بكر وفاطمة لما سألته ميراث أبيها وأصرت على ذلك وأصر أبو بكر على الرفض للحديث وكلاهما من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ، ولم يخرج ليفض النزاع بين عبد الله بن الزبير

---

(١) رواه أبو داود في المناسك (١٩٠٥) ، انظر صحيح أبي داود (١٩٠٥) .

وطلحة وعائشة من جهة وبين عليّ من جهة أخرى ، وقد وقعت بينهما معركة الجمل ، ولم يخرج ليفض النزاع بين عليّ ومعاوية ، وقد حدث بينهما نزاع مات بسببه خلق كثير من الصحابة ، ولم يخرج يوم الثقيفة ليفصل الأمر بين المهاجرين والأنصار فى اختيار الخليفة من بعده حتى تُرِكَ جسد النبى ﷺ ثلاثة أيام ولم يدفن ؛ فكيف يخرج لمن هو دونهم في المرتبة ، ولمثل ما يزعمون من هذه التفاهات التي ينسبونها إليه كذباً وزوراً .

٣ – أن النبى ﷺ قد خُير بين الدنيا وبين الآخرة فاختار الرفيق الأُعلى ، وقد ولى وجهه عن أحب الناس إليه زوجه عائشة رضى الله عنها رضا به فكيف يتولى عن الدنيا وعن أحب الناس إليه ليلقى أولئك القائمين على البدع والضلالات ؟!! .

٤ – أن هذا أمر عظيم ومع ذلك ليس عليه دليل ثابت من الكتاب ولا من السُنة فكيف يكون ذلك معتقداً للمسلمين ؟ .

النبى ﷺ لا يخرج من قبره إلى يوم القيامة :

إن خروج رسول الله ﷺ من قبره أمر عظيم ، لا يمكن أن يكون واقعاً ويغفله الشرع ، إنما الثابت خلاف ذلك ، ونفند أراءهم فيما يلى :

١ – الثابت فى السُنة أن النبى ﷺ يحيا فى قبره حياة فضلٍ ورحمة ، ونعيم دائم من الله تعالى ، لا حياة عمل وتكليف ، وفيها تُعَرضُ عليه صلاة من صلى عليه من أمته ، ينقل ذلك له الملائكة ، حين يرد الله تعالى عليه روحه روى أحمد عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام** » [1] .

---

(١) رواه أبو داود فى المناسك (٢٠٤٠) وأحمد فى المسند (١٠٤٣٤) صحيح أبى داود (١٧٩٥) .

وروى النسائى عن أوس بن أوس عن النبى ﷺ قال: « **فإن صلاتكم معروضة عليّ** » [١] ، وعليه فلا حاجة به لأن يتنقل إلى من هو دونه من الناس ، إذا كان السلام يعرض عليه ، ولو كان يخرج ويرتحل كما يزعمون فلا ضرورة لأن يوكل الله تعالى له ملائكة تنقل إليه سلام الناس .

٢ - أن النبى ﷺ أخبر أنه لن يخرج من قبره ولن تنشق عنه الأرض إلى يوم القيامة ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ: « **لا تُخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض** » [٢] .

٣ - أن النبى ﷺ صرح فى حديث الدجال أنه إن خرج الدجال وهو حى فسيكفيهم بمفرده إقامة الحجة عليه ، وإلا فعلى من أدرك الدجال أن يعد الحجج اللازمة لإبطال مزاعمه والاستعانة بالله تعالى عليه ، روى مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **غير الدجال أخوفنى عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم** » [٣] ، ومعلوم أن فتنة الدجال أعظم فتنة فى الأرض ، فإن كان غائباً عنها مع شدة الحاجة إليه فغيبته عن غيرها آكد وأعظم .

٤ - أن النبى ﷺ صرح بأمنيته أن يرى إخوانه ، وبين أنهم قوم يأتون من بعده ولم يرهم ، ثم عزّى نفسه بلقائهم على الحوض يوم القيامة ، وأنه سيعرفهم من بين الأمم بآثار الوضوء لا بغيرها وذلك قوله : « **فإنهم يأتون**

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الصلاة (١٥٣١) ، والنسائى فى الجمعة (١٣٧٤) وابن ماجه فى الجنائز (١٦٣٦) .

(٢) متفق عليه البخارى فى تفسير القرآن (٣٢٤٥) .

(٣) رواه مسلم فى الفتن (٢٩٣٧) والترمذى فى الفتن (٢٢٤٠) وأبو داود فى الملاحم (٣٤٢١) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٧٥) وأحمد فى المسند (١٧١٧٧) .

يوم القيامة غُراً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض فليذادن رجالٌ عن حوضى كما يُذادُ البعير الضَّال أناديهم ألا هلُمَّ ألا هلمَّ ألا هلمَّ ، فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك ، **فأقول : فسُحقًا فسُحقًا فسُحقًا »** [(١)] .

٥ - أنه ﷺ بين لهم فى خطبة الوداع أن يسمعوا ويحفظوا عنه وصيته لعله لا يلقاهم بعد عامهم هذا ، وهذا دليل على أن عام الوداع كان آخر عهد النبى ﷺ بالصحابة فى الدنيا ، وأنه لا يلقاهم بعدذلك حتى يموتوا ، ولذا قال لهم فى حجة الوداع : « **إنى والله لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد يومى هذا** » [(٢)] .

ولما مات الرسول ﷺ فزع الصحابة فزعاً عظيماً حتى أن منهم من دعا على نفسه بالموت ، ومنهم من دعا على نفسه بالعمى ، وظن بعضهم أنه لم يمت وليس إلا أنه ذهب للقاء الله تعالى كما ذهب موسى وسوف يعود ، فثبتهم أبو بكر رضي الله عنه وأكد لهم موته ، ولو كان الرسول ﷺ أعلمهم أنه سيلقاهم فى المحافل والمساجد والخلوات لما كان هناك ضرورة لهذا الفزع وهذا الاضطراب ، ولما دعا أحد على نفسه بالموت ولا بالعمى .

ثالثاً : معرفة الأسرار والإطلاع على الغيوب :

الغيب لله :

الغيب خلاف الشهادة ، وكل ما غاب عنك فهو غيب ، سواء كان غيباً مطلقاً أو نسبياً ، يقال فى اللغة: غاب غيبا وغيبة وغيابا ، خلاف شهد وحضر ،

---

(١) رواه البخارى فى المساقاة (٢٢٣٨) والنسائى فى الطهارة (١٥٠) وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣٧) وابن ماجة فى الزهد (٤٣٠٦) وأحمد فى المسند (٧٩٣٣) ومالك فى الطهارة (٦٠) .

(٢) رواه الدارمى فى المقدمة (٢٢٧) ، رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات قاله الهيثمى فى مجمع الزوائد المجلد الثالث الحديث رقم (٥٤٥٤) .

ويقال : غابت الشمس وغيرها غربت ، والشيء في الشيء توارى فيه ، ويقال غاب عنه الأمر : خفى . (المعجم الوجيز . ص ٤٥٨) .

والغيب المطلق هو : هو ما استأثر الله بعلمه من الآجال والأرزاق ، ومن أمور الشقاء والسعادة ، وإنزال الغيث وعلم الساعة ، فهذه الأمور لا يطلع عليها نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا ولي مكرم .

قال الله تعالى : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وروى البخاري عن سالم عن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « **مفاتح الغيب خمس** : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)** ﴾ [لقمان : ٣٤] [(1)] .

فالغيب من أسرار الله تعالى ، قد يشاء أن يُطلع عليه رسله وأنبيائه ، تأييداً لهم ونصراً ، قال تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] ، ولكنهم بهذه العلوم لا يكتسبون هذه الصفة ، فهي باقية لله تعالى وحده لا يشاركه فيها أحد من خلقه ، والأدلة على اختصاص الله تعالى بها كثيرة جداً منها قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ** ﴾[هود :١٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)** ﴾ [الحجرات : ١٨] .

وعن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : من زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول : ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي**

---

(١) رواه البخاري في تفسير لقرآن (٤٣٥١) .

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] .

وفى حياة الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين أحوال ومقالات تدل على أنهم لا يعلمون الغيب ، وأن الغيب كله لله كما حكى الله تعالى عنهم ، فهذا إبراهيم عليه السلام أوحى إليه أن يذبح ولده إسماعيل ، كما حكى تعالى فى كتابه ، فتجهز إلى السكين وبادر إلى تنفيذ أمر الله تعالى بلا تردد ، فلم يعلم لا هو ولا ولده إسماعيل أن الله تعالى سينسخ هذا الحكم ويفديه بذبح عظيم .

وقد نفى النبى ﷺ عن نفسه كمال العلم والمعرفة ، وبين أنه لو كان يعلم الغيب لتزود من الخير وما مسه السوء ، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

فلم يكن النبى ﷺ يعرف جميع الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – الذين من قبله ، وطرد ذلك أنه لم يكن ممداً له بشىء من علوم الغيب والرسالة كما يزعم الصوفية ، قال تعالى : ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ [النساء : ١٦٤] .

ولما ضاع عقد أم المؤمنين عائشة – رضى الله تعالى عنها – أرسل بعض أصحابه فى طلبه والبحث عنه ، ولم يكن يعلم مكانه ، روى البخارى عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : « **خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء** » (١)

وقد بين ﷺ أنه لا يعرف أصحابه يوم القيامة إلا من آثار الوضوء ، فأنى له

---

(١) متفق عليه : البخارى فى المناقب (٣٤٦٩) .

أن يصرف أمورهم وهو فى القبر وهو لا يعرف حالهم وقد قيل له : إنك لا تدرى ما أحدثو بعدك . (تقدم تخريجه) .

وقد بين الله تعالى لنبيه محمد ﷺ المنافقين اللابثين حوله المشاهدين له ، وأنه لم يكن يعرفهم أو يستطيع أن يطلع على ما فى ضمائرهم ، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر ، وإظهار الإخلاص ، قال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

قال ابن الجوزى فى الآية وجهان أحدهما : لا تعلمهم أنت حتى نعلمك بهم ، والثانى : لا تعلم عواقبهم (انظر زاد المسير ٤٩٢/٣) .

وقد بين الله تعالى أنه لا سبيل له إلى معرفتهم بشق القلب والاطلاع على ما فى الضمائر كما يدندن الصوفية ، إنما يعرفون بعلامات وظواهر يكشفها الله تعالى على وجوههم وفلتات ألسنتهم شاءوا أم أبوا . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد : ٣٠] .

قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه (انظر تفسير ابن كثير ٣٨٥/٢) .

أما قوله ﷺ فى حجة الوداع : « **ليبلغ الشاهد منكم الغائب** » [(١)] .فهو دليل كاف على أن الغائب جاهل حتى يتعلم ، فكيف يكون مؤثراً أو مصرفاً بالغيب وهو لا يدرى ؟!! .

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى فى كتاب العلم (٦٧) .

الصوفية والغيب

لا يشك مؤمن أن علم الغيب علم مجهول ، لا ينبغى طلبه ولا البحث عنه كما يفعل الصوفية ، فذلك ولا شك نوع من الضلال من ادعاه فقد كفر ومع ذلك فللصوفية فى علم الغيب صولات وجولات ، فالعارف من أخبرك عما فى ضميرك ، واطلع على أسرارك .

حكى ابن العماد فى الشذرات (٢٧٩/٤) عن الشاذلى قوله : لولا لجام الشريعة على لسانى لأخبرتكم بما يحدث فى غد وما بعده إلى يوم القيامة . (انتهى) .

وحكى ابن عطاء عن المرسى أبى العباس كما فى لطائف المنن : قد يطلع الله الولى على غيبه إذا ارتضاه ، بحكم التتبع للرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ ومن هنا نطقوا بالمغيبات وأصابوا الحق فيها . (انظر المرسى لعبد الحليم محمود ص ١٤٣) ، ويقول التيجانى : « ومما أكرم الله به قطب الأقطاب أن يعلمه علم ما قبل وجود الكون ، وما وراءه وما لا نهاية » (جواهر المعانى ٧٩/٢) .

ويرى أكثر الصوفية أن ذلك العلم أى علم الغيب يتأتى من آثار المجاهدات والرياضات ، وفيه أن النفس البشرية مستعدة لتلقى العلوم الغيبية ، بعد إزالة تلك الحجب ، التى تتمثل فى الذنوب والمعاصى ، والمكدرات ، والعلائق التى تحول بين القلب والنظر فى اللوح المحفوظ ، فإذا زالت تلك الحجب تفجرت العلوم فى القلب وفتحت الأبواب على الغيب مباشرة بلا واسطة ، هكذا زعموا ، ولكن هاهنا يتلقى إبراهيم الدسوقى علم الغيب بلا مجاهدات ولا رياضات .

حكى الشعرانى فى الطبقات عن إبراهيم الدسوقى أنه قال عن نفسه : أشهدنى الله تعالى ما فى العلى وأنا ابن ست سنين ، ونظرت فى اللوح المحفوظ

وأنا ابن ثمان سنين ، وملكت طلسم السماء وأنا بن تسع سنين ورأيت في السبع المثاني حرفاً معجما حار فيه الجن والإنس ففهمته ، وحركت ما سكن ، وسكنت ما تحرك ، بإذن الله تعالى ، وأنا ابن أربع عشرة سنة . (الطبقات ١/ ١٥٨) .

وما حكاه الشعراني عن إبراهيم الدسوقي يستلزم أن يكون الدسوقي قد عرج به إلى السماء ، ليطلع على اللوح المحفوظ ، وينظر فيه ، أو أن اللوح المحفوظ قد عرض بين يديه في الأرض ، وهذا وذاك بعيدا المنال ، وكلام الدسوقي من التخاريف العالية ، وهو فوق الجنون بدرجات عالية ، وقوله هذا من أعظم الافتراءات على دين الإسلام ، وقد تبين لك أنه نسب ذلك إلى نفسه بلا مجاهدات ولا رياضات فقد كان دون البلوغ .

قلت : وهذا مناف تماماً مع ما قاله الشاذلي أنه كان يتلقى من ابن مشيش فقط ثم لما وصل بدأ يتلقى من أبحر أخرى هذا بلا وسائط وهذا بوسائط .

قيل لأبي الحسن الشاذلي : من شيخك ؟ قال : كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام مشيش وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد بل أعوم في عشرة أبحر محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل والروح الأكبر . انظر الطبقات للشعراني (٢/ ٦) .

وهذا من فيض الافتراء على الله ورسله وأوليائه .

تعقيب مهم :

١ - إذا كانت المجاهدات طريقاً مفتوحاً لمعرفة الغيب ؛ فلماذا لم يكن ذلك هو الباب الذي يدخل منه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمعرفة ما جهلوه عن طريق الوحي ؟ وهم أعظم دنيا وعبادة من غيرهم .

٢ - إذا كان الصوفية يعلمون الغيب ؛ فلماذا لم يدفعوا عن أنفسهم تلك

المهالك التى تعرضوا لها ؟ فهذا أبو بكر النابلسى خرج من المغرب مقيداً ولما جاءوا به إلى مصر قتلوه ثم سلخوه ، وهذا الحلاج ضرب وقطعت يده ورجلاه وصلب ثم أحرق بالنار ، وأخرجوا أبا الحسن الشاذلى من المغرب بجماعته ، ثم كاتبوا نائب الإسكندرية بأنه سيقدم عليكم مغربى زنديق (الطبقات ١/١٤ ، ١٥) .

أما ابن مشيش فقد قتله ابن أبى الطواجن فى بلاد المغرب ، وأما الشاذلى كما تقدم فقد مات فى صحراء عيذاب الجرداء (الطبقات ٢ / ٤ ، ٦) .

لم تنفعهم القطبية ولا الغوثية ، فقد ضلت عنهم بسبب إفكهم ، وافترائهم على الله تعالى فكيف تنفع غيرهم ؟ ... فلا التصريف بقى ولا ادعاء الغيب نفع .

ولماذا لم يبلغ الصوفية درجة الكمال فى المقامات والأحوال ؟ :

يقول الجنيد بن محمد : **أدركت سبعين عارفاً كلهم يعبدون الله على ظن ووهم ، حتى أخى أبى يزيد لو أدرك صبياً من صبياننا لأسلم على يديه** (انظر طبقات الشعرانى ٢ /١٥) .

وقد فسر قوله : « يعبدون الله على ظن ووهم » بمعنى أنهم يظنون أنه ليس بعد المقام الذى وصلوا إليه مقام وهذا ظن ووهم ، فإن كل مقام فوقه مقام إلى مالا يتناهى كما قاله المرسى .

وعلى تقدير أن كلام الجنيد لا يراد به أن هؤلاء الذين يعبدون الله على ظن ووهم خارجون عن الإسلام ويحتاجون إلى صبيان الجنيد ليصححوا إسلامهم ، فإن قوله على تفسير المرسى يدل دلالة لازمة على نقص العلوم والمعارف بلا شك ، ومن قال بغير ذلك فهو واهم .

ومن ثبت عليه نقص العلوم والمقامات والأحوال لا يجوز أن يزعم أنه مطلع

على الغيب ، أو يدعى النظر فى اللوح المحفوظ ، أو يزعم أن علمه هو علم الله تعالى ، وقد علم أن علم الله تعالى لا يزيد ولا ينقص ، أما هذا الشيخ وذاك الولى فعلمهما يزيد وينقص ، سواء كان علماً نظرياً أو علم مكاشفات ، والكمال كله لله تعالى وحده .

الوصول عند ابن سبعين :

كان ابن سبعين يريد النبوة على طريقة الفلاسفة – فهم يرونها تتأتى بالاكتساب – ولما لم يبلغ ذلك قال مقولته الشنيعة : « لقد ضيق ابن آمنة واسعاً » يقصد النبوة .

قال الإمام الذهبى – رحمه الله تعالى – فى ترجمته لابن سبعين : اشتهر عنه أنه قال : لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله : « لا نبي بعدي » وجاء من وجه آخر أنه قال : لقد زرب ابن امنة على نفسه حيث قال: لا نبى بعدى (انتهى). قلت : وقوله ﷺ : « **لا نبى بعدى** » (حديث متفق عليه . انظر البخارى فى أحاديث الأنبياء ٣٢٦٨ ، ومسلم فى الإمارة ١٨٤٢) .

فعاقبه الله على تلك المقولة بأن حرمه أن يدخل المسجد النبوى الشريف يقول الفأسى المكى : **ولقد لقى ابن سبعين فى الدنيا عذاباً ، وعذابه فى الآخرة مضاعف ، فمما لقى فى الدنيا على ما ذكره بعض المغاربة أنه قصد زيارة النبى ﷺ ، فلما وصل إلى باب المسجد النبوى أهراق دما كثيراً كدماء الحيض ، وذهب وغسله ، ثم دعا ليدخل فاهراق الدم كذلك ، وصار دأبه ذلك حتى امتنع عن زيارة النبى ﷺ** . (انظر التصوف فى ميزان البحث والتحقيق للسندى ص ٢٠٥ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفأسى المكى (٣٢٦/٥) .

الصوفية والأسرار !!

ينحى الصوفية فى هذا الباب منحى الباطنية والشيعة فهم يعتقدن أن الإمام المعصوم مخصوص من الله تعالى بأسرار وعلوم ليست لعوام البشر .

يقول شيخ الإسلام : ويجعل كل منهم ذلك من الأسرار المخزونة والعلوم المصونة التى تكون لخواص أولياء الله المتقين ، ومن أمثلة ذلك أنك تجد الرافضة والمتشيعة ومن أخذ عنهم من دعوى علوم الأسرار والحقائق ، التى يدعون أخذها عن أهل البيت ، إما من العلوم الدينية ، وإما من علم الحوادث الكائنة ، ما هو عندهم من أجل الأمور التى يجب التواصى بكتمانها ، والإيمان بما لا يعلم حقيقته من ذلك ، وجميعها كذب مختلق وإفك مفترى . (الفتاوى ٤/ ٧٧) .

وهذا أيضا منحى فلاسفة الإسماعيلية والقرامطة أمثال الفارابى وابن سينا يريدون أن يجعلوا أنفسهم قِبلةً للعوام دون غيرهم ، فيتوجه إليهم الناس ، ويتبركون بهم ، ويستفتونهم فى المسائل والعلوم ، وهذا هو نفس مقصد كثير من الصوفية .

وقد ذكر ابن خلدون فى المقدمة عن ابن سينا فى كتاب الإشارات فى فصول التصوف . قال : جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد . (المقدمة / ٨٧٥) .

وقال أبو حامد فى (مشكاة الأنوار ص / ١) : « ليس كل سر يُكشف ويفشى ، ولا كل حقيقة تُعرض وتُجلى ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، ولقد قال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . (انتهى) .

ونحن نقول لهم موتوا بأسراركم لا نفعنا الله بها ، إذا كان من قبلنا من سادة السلف وأشرافهم قد مات وهو مستغن عنها ، ودخل الجنة ولم يسمع بها .

وإيمان الصوفية بمبدأ الأسرار جعلهم يفسرون القران تفسيراً رمزياً أو إشارياً على غرار تفسير القرامطة والشيعة ، الذين يبطلون ظاهر النصوص ويسقطون الحكم بها والعمل بمقتضاها ، بحجة أن لها باطناً آخر لا يطلع عليه إلا أئمتهم وهذا هو حقيقة التحريف والتعطيل والزندقة .

قال ابن الجوزى فى التلبيس (ص/ ٦٥) : وجاء أبو حامد الغزالى فصنف لهم كتاب الإحيَاء على طريقة القوم ، وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها ، وتكلم فى علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه ، وقال : أن المراد بالكواكب والشمس والقمر التى راهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هى حجب الله عز وجل ولم يرد هذه المعروفات ، وهذا من جنس كلام الباطنية . (انتهى) .

وعلى غرار ذلك فلكل شيء عند الصوفية سر ، فللأولياء سر ، وللقرآن سر ، وللحروف المقطعة فى أوائل السور سر ، وللصلاة على النبى سر ، وللأسماء الإلهية أسرار ، فالدين عند الصوفية أسرار مودعة فى قلوب أوليائهم لا يطلع عليها غيرهم ، ولذلك فهم يستحوذون على قلوب السذج والغافلين من هذه الجهة . وقد أفضى بهم القول بالأسرار إلى هدم الأحكام والشرائع ، وجعلها معان مظنونة ظاهرها التمويه ، وباطنها الضلال والجهالة ؛ ففتحوا الباب لكل آبق أن يقول فى دين الله ما يشاء ، وليس فى الدين أسرار ، ومن المعلوم عند كل ذى بصيرة من أمر الدين أن النبى ﷺ لم يكتم شيئاً من أمر الدين .

قالت عائشة : ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه

الآيـــة : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

رابعاً : القدرة على تصريف شئون الكون :

زعم كثير من الصوفية بلوغ مرتبة القطبانية ، فيقول ابن عربى فى الفصوص (١٢٩/١) عن أبى السعود : « إن الله أعطانى التصرف منذ خمس عشرة سنة وتركناه تظرفا » ويرد ابن عربى قائلاً : وأما نحن فما تركناه تظرفا ، إنما تركناه لكمال المعرفة . (انتهى) .

ويروى الشعرانى عن البدوى فى الطبقات (١٦٢/١) أنه قال : وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته ، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار ، وأحميهم من بعضهم بعضا ، أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى . (انتهى) .

هذا هو معتقد القطب الغوث وهو مصطلح من مصطلحات الصوفية يريدون به من دار عليه الأمر وصار سيداً على أهل زمانه وهذا هو أعظم مفتريات الصوفية .

قال الجرجانى فى (التعاريف ٢٢٧/٢) القطب : قد يسمى غوثاً باعتبار التجاء الملهوف إليه ، وهو عبارة عن الواحد الذى هو موضوع نظر الله فى كل زمان . (انتهى) .

ومن ملاحدة الصوفية من يدعى أن الأقطاب مستقلون بالربوبية والملك والتدبير كما قال الجيلى فى كتابه الإنسان الكامل (١/ ٢٢) :

لى الملك فى الدارين لم أر فيهما	سواى فأرجو فضله أو فأخشاه
وإنى رب للأنام وسـيـد	جميع الورى اسم وذاتى مسماه

وقد شاركهم فى ذلك أئمة الشيعة فهذا الخمينى فى كتابه الحكومة الإسلامية تحت عنوان (الولاية التكوينية ص ٥٢) يقول : إن للأئمة مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل . (انتهى) .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ :

وهؤلاء الذين يعتقدون أن شيوخهم أقطاب الكون وأغوات الخلائق والأمم استقلالاً عن الله تعالى ملاحدة كملاحدة النصارى والمجوس والفراعنة ، أما الذين يزعمون أن الله تعالى وكلهم بالقيام بشئون الخلائق فقد برعوا فى الافتراء على الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى لا يعطى بواسطة ، ومن اعتقد ذلك فقد كفر أو أشرك ، فليس لله وزراء ولامعاونون فهو وحده مغيث المستغيثين ، لاند له ولا شريك ، فالله تعالى لم يوكل أحداً من الأنبياء بشىء من أمور الخلق ، فنبى الله تعالى محمد ﷺ الذى انفجر الماء من بين أصابعه حتى سقى الجمع الغفير من الناس هو نفسه رسول الله ﷺ الذى كسرت رباعيته وشج رأسه يوم أحد ، ففى صحيح مسلم « **أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد ، وشج فى رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول** : « **كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته ، وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله عز وجل** ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] [(١)].

يقول الإمام القرطبى – رحمه الله – فى (التفسير ١٥٤٦/٢) : نبه الله تعالى على نبيه أن الأمر ليس إليه ، وأنه لا يعلم الغيب إلا ما أعلمه الله ، وأن

(١) متفق عليه : انظر البخارى فى المغازى (٣٨٤٧) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩) .

الأمر كله لله ؛ يتوب على من يشاء ويعجل العقوبة لمن يشاء . (انتهى) .

وإذا كان الله تعالى قد وكل بعض ملائكته بشيء من أمور الخلق فإنه تعالى لا يعطي العالمين بواسطتهم حاشا وكلا ، ولا يستطيع أحد منهم أن يتصرف في شيء لم يؤمر به ، وذلك لأنهم لا يملكون شيئاً إنما هم ينفذون أوامر الله تعالى وفقط ، قال تعالى : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء : ٢٧] .

فهم لا يستجيبون لأمر أحد غير الله تعالى ، ولا يقدر أحد منهم أن يفعل بغير إذن وتقدير من الله تعالى ، وقد جعل الله تعالى منهم الموكل بالقطر ، ومنهم الموكل بإنزال المطر ، ومنهم الموكل بالنبات والحيوان وهكذا ، ومع ذلك لم نؤمر بدعائهم ولا ندائهم ولا عبادتهم من دون الله تعالى فكيف لغيرهم حتى ينادوا ويسألوا ويعبدوا من دون الله تعالى ؟ .

الصوفية والكرامات

يثبت أهل السُنة كرامات الأولياء ، وتلك من معجزات النبى ﷺ خلافاً لأهل البدع من المعتزلة والجهمية وغيرهم المنكرين لها ، والكرامة أمر خارق للعادة لا يتحدى به .

يقول الشيخ عبد العزيز السلمان - رحمه الله تعالى - فى تعريف الكرامة : هى أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ، ملتزم المتابعة لنبى كلف بشريعته ، مصحوباً بصحة الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم ، ولا تدل على صدق من ظهرت على يديه ، ولا ولايته ولا فضله على غيره ، لجواز سلبها وأن تكون استدراجاً ومكراً . (انظر الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٣٤٨) .

وقد عُلم أن غاية الأمر فى مقاصد الدين الاستقامة وليس الكرامة ؛ لأنها قد تكون عطاءاً دنيوياً قد ينتفع الإنسان به وقد يُضَر ، ولهذا لم يكن هؤلاء يفرحون بها إلا من الجهة التى يثبتون بها على الدين ، ويستقيمون بها على الطاعة ، وإلا فقد كانوا يخافون على أنفسهم من نقصان الأعمال والعبادات بعدها .

وليست الكرامات غاية للمؤمن ؛ يستيقن بها صحة الدين وصدق العقيدة ، إنما هى نوع من التثبيت لزيادة اليقين والإيمان ، وإذا أراد المرء أن يستيقن صحة الدين وسلامة العقيدة فيكفيه عرض نفسه على ما نزل من القرآن والسنة . قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

وإذا أراد المرء أن يجعل الكرامة دليلاً على القبول والوصول فليس هذا بصحيح ؛ لأنها قد تكون استدراجاً أو عطاء دنيوياً يُمتحن به العبد المؤمن كما

يمتحن به غيره ممن لا دين له .

وإذا استعمل الله تعالى عبده فى طلب العلم والعبادة ، وصار يتقلب فى الخوف والرجاء فإن ذلك دليل خيرية يغنيه عن طلب الكرامة ، التى لا يغتر بوجودها ولا ينقص إيمان المرء بفقدها ، ولا شك أن هناك فرقاً بين أن يبحث الإنسان عن حظ نفسه من الكرامة ، وبين أن يدور مع مراد ربه تعالى ذكره فى الاستقامة .

يقول أبو على الجوزجانى : **كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة فإن نفسك منجلبة على طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة** . (فتاوى شيخ الإسلام ١١/ ٣٢٠) .

الشاهد مما تقدم أن خوارق العادات من معجزات وكرامات ليست دليلاً على أن الله تعالى وكل أصحابها بالتصريف ، إنما هى أمور مقيدة محصورة فى وقائع مشهودة مؤقتة بأزمنة معلومة ، لا قصد لهم فيها ولا إرادة ، ولو كان هذا التصريف مكتوباً لهم على وجه الكمال كما يزعمون لما مات منهم من مات مقتولاً أو طريداً أو مريضاً دون أن يدفع عن نفسه شر شىء من ذلك ؛ فكيف إذن يدفعون عن العالمين باختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وحوائجهم ؟ ، **إن الخوارق عموماً سواء كانت كرامات رحمانية أو شعبذات شيطانية لا تحقق لأصحابها مهما كان قدرهم نوعاً من العبادة ، فالعبادة حق الله وحده** .

أعجب كرامات الصوفية :

وأعجب كرامة نقلها الخفاجى فى النفحات الأحمدية (ص ٣٦ ، ٣٥) قال : ومنها أن أحدهم غطس فى النيل ، فرأى أنه تزوج فى بغداد ، وعاش هناك سبع سنين ، وأنجب أولاداً ، ثم خرج من تلك الغطسة ، فرأى ثيابه على شاطئ النيل بجهة مصر العتيقة ، فلبسها ، والمؤذن يؤذن لصلاة الجمعة ، ولم يلبث أن أتى بأولاده وأمهم من بغداد ، فعرفهم وعرفوه ، وأقره العلماء على

ذلك النكاح . (انتهى) .

لا أدرى من هؤلاء العلماء الذين أقروه على ذلك ؟ .

وماذا حدث فوق قبة البدوى ؟ :

يحكى الشعرانى فى (الطبقات ١٦١/١) عن علاقة البدوى به فيقول : ولما دخلت بزوجتى فاطمة أم عبد الرحمن ، وهى بكر ، مكثت خمسة شهور لم أقرب منها ، فجائنى وأخذنى وهى معى ، وفرش لى فرشاً فوق ركن القبة ، التى على يسار الداخل ، وطبخ لى حلوى ، ودعا الأحياء والأموات إليه ، وقال : أزل بكارتها هنا ، فكان الأمر تلك الليلة . (انتهى) .

الشعرانى صاحب كلمة : « اعرف زمانك » يشير بالنصيحة لمن يحبون التلون ولكل جاهل زائف أن يتعلق بغير الله ولو لأجل أن يزال غشاء البكارة ، يا لها من تفاهة وخفة عقل ، ثم وأين يزال ؟ ثم وأين كان هذا الفرن الذى طبخ فيه الحلوى أكان داخل القبر أم على يسار الداخل ؟ .

يقول شيخ الإسلام : الخارق إذا حصل به فائدة مطلوبة فى الدين كان من الأعمال الصالحة ، المأمور بها ديناً وشرعاً ، إما واجب وإما مستحب ، وإن حصل به أمر مباح كان من الأمور التى تقتضى شكراً ، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهى عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض ، كالذى أوتى الآيات وانسلخ منها بلعام بن باعور (الفتاوى ٣١٩/١١) .

وقال -رحمه الله تعالى- أيضاً : إن الدين ينفع صاحبه فى الدنيا والآخرة ، ويدفع عنه مضرة الدنيا والآخرة ، من غير أن يحتاج معه إلى كشف أو تأثير .

ويقول أيضاً : فاعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لا تضر المسلم فى دينه ، فمن لم ينكشف له شىء من المغيبات ، ولم يسخر له شىء من الكونيات لا ينقصه ذلك فى مرتبته عند الله ، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له فى دينه ، إذا

لم يكن وجود ذلك فى حقه مأموراً به أمر إيجاب ولا استحباب ، وأما عدم الدين والعمل به فيصير الإنسان ناقصاً مذموماً ، إما أن يجعله مستحقاً للعقاب ، وإما أن يجعله محروماً من الثواب ، وذلك لأن العلم بالدين وتعليمه والأمر به ينال به العبد رضوان الله وحده وصلاته وثوابه ، وأما العلم بالكونيات والتأثير فيه فلا ينال به ذلك ، إلا إذا كان داخلاً فى الدين بل قد يجب عليه شكره وقد ينال به إثم . (الفتاوى ٣٢٣/١١) .

خامساً : الفناء والعشق :

أولاً : بلوغ الفناء :

الفناء فى اللغة : إما أن يراد به إبادة الشئ واستئصاله ، وإما أن يراد به الاجتهاد فى العمل .

أما الفناء فى اصطلاحات الصوفية فهو : حال عارض يعترض السالك أثناء سيره فى المجاهدات والرياضات ، وتنقله فى الأحوال والمقامات ، وفيه يغيب عن شهوده حتى لا يستشعر بالمحسوسات ولا بالأغيار ؛ نتيجة لشهوده حقيقة الوجود الكلى (الذى يسمونه حقيقة الربوبية) بلا تفصيل ولا تمييز .

ويعتبر الفناء مزلة أقدام السالكين ، ونهاية مطاف الواصلين ، فهو الباب إلى فلسفة الاتحاديين ، وهو سبيل الحلوليين ، ومطلب الذين أسقطوا التكاليف وأساس الشطح والقول على الله تعالى بلا علم ، وهو الذى عصر من فئام البشر من ادعى الألوهية ، وهو مطلب الزاعمين رؤية الله تعالى فى الدنيا ، فهو غاية علوم الصوفية وهو أخطر ما فيه على الاعتقاد والدين .

يقول أبو حامد الغزالى فى (الإحياء ١٢٤/٤) : فإن قلت كيف يتصور ألا يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحد ؟ ، فاعلم أن هذا هو غاية علوم المكاشفات . (انتهى) .

ولقد تدرج حال الفناء عند الصوفية من مرتبة الجواز حتى وصل إلى الكفر والزندقة ، فالصوفى يتدرب فى فناء الصفاء والإرادات وهذا لا شىء فيه ، أما بداية النقص فهو عند الفناء عن شهود الأغيار والأفعال ، فلا يستشعر الصوفى نفسه ولا وجوده حتى يصل إلى الشطح والهذيان ، ثم إلى إسقاط التكاليف -وهذا هو حقيقة الزندقة - ثم فناء الذات فى الذات والنفس فى النفس وهذا مقام الاتحاديين والحلوليين .

ولقد نقل عن الصوفية فى حال الفناء أقوال عجيبة وغريبة : منها ما يخرجهم عن ملة الإسلام، إن كانوا مدركين عاقلين فمنهم من يقول : «أنا الله » ومنهم من يقول :« سبحانى » إلى غير ذلك من كلمات الكفر والإلحاد.

وقد أكد الغزالى وقوع هؤلاء فى هذه الشطحات بقوله كما فى (المنقذ ص ٥٠) : ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز منه . (انتهى) .

وقائل هذا الكلام صاحب اعتقاد فاسد وقلب آثم ، إلا إذا كان غائباً عن الحس ، ولا شك أن الصالحين منهم يتوبون ، أما من لم يتب فهو مؤاخذ على فعله كما هو مؤاخذ على طلب الفناء وهو يعلم أنه يقول فيه ما لا علم له به .

رؤية الله تعالى فى حال الفناء :

قال الجرجانى فى تعريف الفناء : هو الاستغراق فى عظمة الباري ومشاهدة الحق . (لتعريفات ٢١٧/٢) .

كيف يصل الصوفى إلى هذا الحال ؟ :

والجواب : بمجرد أن يقول : « الله » « الله » « الله » بعدد معين ، ويكون

ذلك فى مكان مظلم ، فإنه يفنى عن المخلوقات والمحسوسات ، ويفتح له الباب لمشاهدة الجلال والجمال ، ورؤية الله تعالى ؛ ولذلك فالصوفية لا ينتظرون الآخرة لأنهم يعتبرون أنفسهم فى أحوال ومقامات تغنيهم عن انتظار الآخرة أو طلبها .

يقول أبو حامد الغزالى فى (الإحياء ٣ / ٧٨) : إن صاحب الخلوة إذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية ، وتجلى له الحق وظهر له من ألطاف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف ، بل لا يحيط الوصف به أصلا . (انتهى) .

وقال فى كيمياء السعادة (ص ٢٥) : وسعادة الملائكة فى مشاهدة جمال الحضرة الربوبية ، وليس للغض والشهوة إليهم طريق ، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد فى معرفة أصلك ، حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية ، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال . (انتهى) .

وقيل للجنيد إن أبا يزيد يقول : « سبحانى سبحانى أنا ربى الأعلى » قال الجنيد : إن الرجل مستهلك فى شهود الجلال ، فنطق بما استهلكه ، أذهله الحق عن رؤيته إياه ، فلم يشهد إلا الحق فنعته . (انتهى) .

وقال ابن عطاء فى كتاب (القصد المجرد ص ٥٧) : روى أن أهل التوحيد أربعة أصناف فى ذكر توحيدهم الواحد وذكر فى الصنف الرابع فى الذكر وهم الذين : « خرسوا » فلم ينطقوا وفنوا به عنه ، وغابوا على ذكر التوحيد ، بمشاهدة المذكور الواحد . (انتهى) .

فالجنيد شهد صراحة أن أبا يزيد رأى الله تعالى ، وهذا أمر عظيم ، وخطب جلل حين يكون عن طريق المجاهدات والرياضات ، والجلوس فى الخلوات المظلمة ، وذكر الله حتى يزول الحس ، وينكشف الغيب كما يحكى أبو حامد ، وكما يزعم الصوفية .

وبناء على ذلك نقول للصوفية :

إذا كانت رؤية الله تعالى تتأتى بمجرد تلك المجاهدات والرياضات كما يزعمون فلماذا عمد موسى عليه السلام إلى سؤال الله تعالى أن ينظر إليه وأن يراه ؟ ولماذا لم يره مع عظيم مجاهداته وعباداته من قبل . قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

إن موسى عليه السلام كليم الرحمن ، وقد اصطفاه الله تعالى على الناس برسالاته وبكلامه ، ومع ذلك لم ير الله تعالى بعد سؤاله ، ولم يكن سؤاله شرطاً للدخول في الإيمان ، ولم يكن نوعاً من التعنت كما في سؤال بني إسرائيل لموسى ، إنما هو سؤال شوق وحب ، ومع ذلك لم يبلغ تلك المنزلة في الدنيا ، فكيف بمن هو دون موسى من هؤلاء الصوفية وغيرهم يرى الله تعالى ؟ ، هل هم أرفع مكاناً من موسى ؟ ، والجواب : يزعمون ذلك ويقولون : لقد أوتي موسى علم الظاهر وأوتي الأولياء علم الباطن !! .

وقد ذهب الجهمية والمعتزلة إلى نفي رؤية الله تعالى على الإطلاق في الدنيا والآخرة بمقتضى هذه الآية السابقة ، وهذا غير صحيح ، إذ لو كانت الرؤيا غير ممكنة ؛ لعاتب الله تعالى موسى عليه السلام لمجرد السؤال ، كما عاتب نوحاً على مجرد السؤال ، وقال له : ﴿ **إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [هود : ٤٦] ، ولكن الله تعالى علق الرؤيا على استقرار الجبل ، واستقرار الجبل أمر ممكن .

وعلى ذلك فرؤية الله تعالى ممكنة خاصة إذا كان الله تعالى قد تجلى للجبل

وهو جماد ، فموسى والمؤمنون أشرف من الجبل .

قال ابن العز الحنفي - رحمه الله تعالى - (ص ١٢٩) يقول : فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذى هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ؛ فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه فى دار كرامته ؟ ولكن الله تعالى أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته فى هذه الدار فالبشر أضعف . (انتهى) .

وقد وعد الله تبارك وتعالى أولياءه بتلك الرؤيا فى الآخرة وهذا مقتضى قوله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)** ﴾ [يونس : ٢٦] ، وقد فسرت الزيادة فى كتب التفسير بالنظر إلى وجه الله الكريم .

وقد بشر النبى ﷺ أصحابه برؤية الله تعالى يوم القيامة، لما سألوه عن ذلك . عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن أُناساً فى زمن النبى ﷺ قالوا يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ، قال النبى ﷺ : « **نعم هل تُضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحاب** قالوا : لا ، **قال : وهل تُضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحابٌ** قالوا : لا ، **قال النبى ﷺ ما تضارون فى رؤية الله عز وجل يوم القيامة إلا كما تُضارون فى رؤية أحدهما** » (متفق عليه . رواه البخارى فى تفسير القران ٤٣٠٥) .

وبينما يرى المؤمنون ربهم فى الجنة ويفرحون به يوم القيامة ، يذوق الكافرون مرارة احتجاب الله تعالى عنهم حينئذ ، وهذا هو مقتضى قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)** ﴾ [المطففين : ١٥] .

قال الإمام الشافعى : **لما أن حجب هؤلاء فى السخط كان فى هذا دليل على أن أولياءه يرونه فى الرضا .** (شرح الطحاوية ص ١٢٨) .

وقد أكد النبى ﷺ لأصحابه استحالة رؤية الله تعالى فى الدنيا ، وقال يوم حذر الناس الدجال إنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه من كره عمله أو يقرؤه كل مؤمنٍ وقال : « **تعلموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربه عز وجل حتى يموت** » [(١)] .

هذا كله يدل على عدم ثبوت رؤية الله تعالى فى الدنيا ، وفى (فتاوى اللجنة الدائمة برقم ٤٥٠) : وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له : ﴿ **قَالَ لَن تَرَانِي** ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء كما قال تعالى : ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ [النساء : ١٥٣] ، فمن قال : إن أحداً من الناس يراه فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران ودعواه أعظم من دعوى من ادعى أن أنزل عليه كتاباً من السماء (٢ / ١٣٠) .

حكاية سخيفة :

وبينما كانت رؤية الله تعالى هى أعظم مطلوب فى الدنيا عند الصوفية ، كان بعضهم يرى أن رؤية المريد لأبى يزيد البسطامى أعظم من رؤية الله تعالى .

وقد حكى أبو حامد الغزالى فى (الإحياء ٣٥٦/٤) فى حكايات المحبين حكاية فيها ما يدل على قوة الخرافات فى الأوساط الصوفية ، وعظم الاستهانة بهذا الأمر ما نصه : أن أبا تراب النخشبى كان معجباً ببعض المريدين ، فكان يدنيه منه ، ويقوم بمصالحه فقال له أبو تراب يوما : لو رأيت أبا يزيد . فقال له المريد : ويحك ما أصنع بأبى يزيد ؟ وقد رأيت الله تعالى! فأغنانى عن أبى يزيد. قال أبو تراب : فهاج طبعى ، ولم أملك نفسى ، فقلت له : ويلك

---

(١) رواه مسلم فى الفتن (٢٩٣١) والترمذى فى الفتن (٢٢٣٥) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١٦) ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠٧٧) وأحمد فى المسند (١٢٩٧٢) .

تغتر بالله عز وجل ؟ لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة . (انتهى) .

فأى استهانة هذه !! من قوم يزعمون أن رؤية الله تعالى هى غاية مرادهم ، وقد زهدوا فى الدنيا والجنة والعرش والكرسى لأجل ذلك ، ثم يأتى منهم من يقول : إن رؤية أبى يزيد أنفع من رؤية الله تعالى ، ياله من خزى وبوار ، وسوء أدب مع الله تعالى .

ثانياً : التغنى بمقام الحب والعشق :

العشق عند الصوفية هو الجامع المشترك بين الأديان والملل المتناقضة :

يقول ابن عربى عن ذلك فى (ترجمان الأشواق ص ٣٩) :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير رهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح تورات ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهذا الذى عبر عنه ابن عربى إنما هو دين الزنادقة ، وقد رأيت فيه من التناقض والتضارب الواضح بين أصول العقائد المتشتتة من جهة ، وبينها وبين التطبيق من جهة أخرى .

أما ثبوت التضارب بين العقائد الصوفية بعضها البعض فحدث ولا حرج ، فمنهم من يقول : إن الكون عين الله ، أو هو الوجود السارى فيه ، أو هو مظهر أسمائه وصفاته ، وقد ترتب على ذلك أن جعلوا الشرك عين التوحيد ، والحرام عين الحلال ، والضلال كالهدى والإيمان ، وبيت الأوثان ككعبة الرحمن ، فالجميع واحد لاشتراك الحب فيه ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف : ٥٠] .

أما التضارب بين العقائد المنحرفة والتطبيق ، فلك أن تتصور مدى الحيرة والشك الذى يعترى السالك إذا كان المعتقد الذى يدين به يحكم على شىء واحد بحكمين مختلفين .

ويرى الصوفية الحب نوعاً من العشق والهيام الأنثوى كما نقل السراج عن أحد الصوفية أنه قال : أنا أعشق الله عز وجل والله يعشقنى . (انظر تلبيس ص ١٧٠) .

وسموا ابن الفارض بسلطان العاشقين : وكان حقاً من العاشقين ، ولكن من العاشقين للنسوان ، وقد نقل ابن حجر فى (اللسان ٣١٩/٤) عن الإمام الذهبى ما يفيد أنه : كان يرقص مع الجوارى وينهى عن الإنكار عن ذلك . (انتهى) .

وكان ابن الفارض من المولعين بشعر الحب ، ولما وصل إلى مقام الفناء قال بمعتقد وحدة الوجود ، فلم يكن عنده فى صحوه ولا سكره ثم خالق ولا مخلوق ، فهو عين ما ظهر وهو عين ما بطن ، هكذا زعم .

وقد أراد ابن الفارض أن يوضح معنى لهذا الحب الناشئ من تلك الفلسفة ، ويجعل له صورة مادية ملموسة لدى أتباعه ومريديه ، فشبهه بأنثى ظهرت بصور متعددة ، ظهرت بصورة حواء لآدم ومرة ظهرت بصورة لبنى لقيس ، ومرة ظهرت بصورة بثينة لجميل ، تلك الأنثى هى حقيقة الذات الإلهية عند ابن الفارض .

ولفظ العشق هذا شذوذ فى الباطل، وخفة فى العقل ، ومرض فى القلب ، لم يأمر به الشرع ، ولم يكن ممدوحاً فى العرف ، ولم يكن من الألفاظ المستعملة فى محيط الصالحين ، إنما هو علامة على أهل الفسق والشرك ، الذين يقدسون الصور ، ويعشقون النسوان ، ولم يكن أبداً علامة على صحة الدين ، وصدق القرب من الله سبحانه وتعالى .

ويعترض ابن الجوزى على لفظ العشق كثيراً فيقول : وهذا جهل من ثلاثة أوجه :

أحدها : من حيث الاسم فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح.

الثـانى : أن صفات الله عز وجل منقولة فهو يحب ولا يقال يعشق كما يقال يعلم ولا يقال يعرف .

الثـالث : من أين له أن الله يحبه فهذه دعوى بلا دليل . (انظر التلبيس ص ١٧١) .

وقد بين ابن تيمية أن العشق مرض نفسانى وسواسِيّ شبيه بالملاخوليا ، فقال في (الفتاوى ١٢٩/١٠) : العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعاً ، بل ويضره التفكر فيه والتخيل له ، وهو يشتهى ذلك ، فإن مُنِعَ من مشتهاه تألم وتعذب ، وإن أُعطِي مشتهاه قَوِيَ مرضه ، وكان سبباً لزيادة الألم . (انتهى) .

ومقام الحب عند الصوفية بصورته الموجودة لم يكن وليد دعوة ربانية ، أو طريقة سنية ، ذلك أنه لم ينشأ مع رسالات الأنبياء ولكنهم قالوا : إن رابعة العدوية هى أول من تغنت بالحب الإلهى ، وطالعت الجمال ، فلم يجاوزها أحد قبلها فى مرتبة الحب ، ولقبت بشهيدة الحب الإلهى . وكان من أثر هذا النوع من الحب عند الصوفية أن فسدت دعواهم فى حسن الاتباع والالتزام ، وذلك لأن العبادة إذا خلت من الخوف والرهبة فقد خلت من التعظيم . وهذا نذير شؤم وضلال .

قال بعض السلف : من عبد الله بالحب فقط فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى (نسبة إلى الخوارج) ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد .

(انظر مختصر معارج القبول ص ١١٣) .

ولذلك فمقام الحب عند أهل السُّنة يتمثل فى إيثار الله تعالى ورسوله على المال والأهل والنفس والولد ، ولا شك أن موضع هذا الحب فى جذور القلب وأروقة الجنان ، ولا يصلح إلا بشقيه الخوف والرجاء .

وهذا النوع من الحب قبل أن يكون أمراً شرعياً جاءت به الرسل فهو فطرة سوية فى نفوس المؤمنين الموحدين ، ولله در ابن القيم - رحمه الله تعالى- :

هب الرسل لم تأت من عنده ولا أخبرت عن جمال الحبيب

أليس من الواجب المستحق محبته فى اللقاء والمغيب . (انتهى)

وقد فرض الله تعالى على عباده أن يحبوه وأن يحبوا رسوله ﷺ حباً يملأ نياط قلوبهم وجنبات نفوسهم ، بحيث لا يساوون ولا يقدمون على الله تعالى ورسوله ﷺ حب أحد من مال أو نفس أو ولد ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وهم إن لم يفعلوا ذلك فليسوا بكاملى الإيمان والدين ، ولن يجدوا حلاوة الإيمان فى قلوبهم، قال النبى ﷺ: « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار** » (١) ، ومن أثر ذلك الحب الرضا بقضاء الله تعالى، وصدق الشوق إلى لقائه . يقول ابن القيم: والشوق أثر من آثار المحبة ، وحكم من أحكامها ، فإنه سفر القلب إلى المحبوب فى كل حال ، وقيل : هو اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب . (انتهى) .

وقد كافأ الله تعالى عباده الذين هم على هذه الصفة بحبه لهم ، ورضاه

---

(١) متفق عليه : البخارى فى الإيمان (١٦) والأدب (٥٦٩٤) .

عنهم حتى إنه سبحانه يرضي الناس عنهم ، ويضع لهم القبول في الأرض ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم : ٩٦] .

قال ابن كثير في (التفسير ٤١/٣) عن ابن عباس في قوله : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ قال : حباً ، وقال مجاهد عنه : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ قال : محبة في الناس في الدنيا ، وقال سعيد بن جبير : يحبهم ويحببهم يعني إلى خلقه المؤمنين ، كما قال مجاهد أيضاً والضحاك وغيرهم . (انتهى) .

وروى مسلم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه ، قال: فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض** »[1] .

وعلامة ذلك الحب عند أهل السُنة الانقياد التام لأوامر الله تعالى ، والفناء في مراده والإذعان والاستسلام لرسوله محمد ﷺ بلا حرج في النفس ، ولا خيرة في الأمر ، وهذا هو الحب المقصود شرعاً ، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران:٣١] فهذه الآية امتحان لكل مدع للمحبة كما قال أهل العلم . قال الأزهري: محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما،قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ (تفسير القرطبي : ١٤١١/٢) .

---

(١) متفق عليه : انظر مسلم في البر والصلة (٢٦٣٧) .

زعم فاسد :

وقد زعم كثير من الغالطين من الصوفية أن محبة أهل السُنة لله تعالى لا ترتقى إلى محبة ذاته ، إنما هى محبة متعلقة بالعوض ، يحبون العمل الذى ينالون به الأجر أكبر من حبهم لله تعالى . وقولهم هذا مجرد وهم لا أساس له ، وذلك أن الله تعالى وصفهم بما يظهر تعلقهم به تبارك وتعالى ، وهذا التعلق أعلى درجات الحب .

فقد وصف الله تعالى صيام محبيه قائلاً : « **يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى** »[(١)] ، وقال عنهم فى النفقة : ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ⑨ ﴾ [الإنسان : ٩] ، وقال فى المتزاورين : « **أين المتحابون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلي يوم لا ظل إلا ظلي** »[(٢)] ، وقد أجمل الله تعالى هذه المحبة فى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فليس هناك شيء في الوجود يُحَبُّ لذاته إلا الله الغفور الودود، وكل موجود غير الله تعالى إنما يُحَبُّ بسبب حب الله تعالى له، وتعظيم الله تعالى له.

فالأنبياء والمرسلون يُحبُّونَ لحب الله تعالى لهم ، والجنة وما فيها من نعيم تُحَبُّ وتُطْلَبُ لأن الله تعالى زينها وعظمها لأوليائه وهكذا ، ومن جملة ذلك اتباع أوامر الله تعالى ، واجتناب نواهيه ، فإن ذلك من باب محبة الله وتعظيمه.

وعليه فتلك العبادة المشتملة على الحب والخوف والرجاء عبادة كاملة ، وهى مطلوبة شرعاً وعقلاً وحساً ، وفيها يكون المرء مع ربه حيث ألزمه وفرض

---

(١) متفق عليه : البخارى كتاب الصوم (١٧٩٥) .

(٢) رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٦٦) ومالك فى الجامع (١٧٧٦) وأحمد فى المسند (١٦٧٠٧) ، والدارمى (٢٧٥٧) .

عليه ، وصاحبها يتقلب فى جميع ما أمر الله تعالى ، فهو مع الذاكرين حيث ذكروا ، ومع المجاهدين حيث جاهدوا ، ومع المتصدقين حيث تصدقوا ، ومع الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حيث قاموا وهكذا كل أفعاله دليل شوق ورجاء وخوف . رجاء شوق لا يأمن فيه مكر الله ، وخوف شوق لا يأس فيه من روح الله .

قال ابنِ تيمية (فى الفتاوى ١٠/٧٠) أما محبة الله فلا تعلق لها بمجرد محبة العوض ، ألا ترى أن من استأجر أجيراً بعوض ، لا يقال إن الأجير يحبه بمجرد ذلك ، بل قد يستأجر الرجل من لا يحبه بحال بل من يبغضه . وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لا يقال إنه يحبه ، بل يكون مبغضاً له ، فعلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه ، يمتنع أن لا يكون معناه إلا مجرد محبة العمل ، الذى ينالون به بعض الفرائض المخلوقة ، من غير أن يكون ربهم محبوباً أصلاً .

وأيضاً : فلفظ العبادة متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم ، ولهذا كانت محبة القلب للبشر على طبقات . أحدها : العلاقة : وهو تعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابه : وهو انصباب القلب إليه ، ثم الغرام : وهو الحب اللازم ، ثم العشق ، وآخر المراتب هو : التتيم : وهو التعبد للمحبوب ، والمتيم المعبود ، وتيم الله عبد الله . فإن المحب يبقى ذاكراً معبداً مذللاً لمحبوبه . (انتهى) .

الشاهد :

أن تعلق المحبة بثبوت الفضل ، لا ينفى صدق المحبة للمحبوب ، أو صدق المحب للمحبوب ؛ إذ أن كل نعمة من الله تعالى تستلزم محبته وشكره .

ولما كان أصل المحبة معرفة الله تعالى والناس يتفاوتون فى المعرفة فمنهم من يعرف الله تعالى عن طريق أسمائه وصفاته . وطريقه فى القرب الثناء والمدح ،

ومنهم من يعرف الله تعالى عن طريق أفعاله ومفعولاته . وطريقه فى القرب الشكر والاعتراف بالجميل وكلا النوعين مطلوب فى الدين ، وقد أرشد إليهما الشرع الحكيم ، وهما ينتهيان إلى الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، فهذا حب الله وذاك أيضاً .

غير أن المذموم أن تتعلق المحبة بالعطاء ، وتزول عند المنع أو التضييق ، فهذه محبة للنفس ، وليست محبة لله تعالى .

الباب الرابع
بدع التصوف

لم يترك التصوف موضعاً للشبهات إلا ولج فيه ، وما من مصيبة تعلقت بأذيال أمة إلا وصاغها الصوفية في صورة إسلامية ؛ ليخدعوا بها الجهال ، ويستمرئوا بها أهل الغواية والضلال ، وكان كحاطب ليل فى أرض شوك ، لا يجلب ما ينفعه ولا يتقى ما يضره .

وقد نهى النبى ﷺ عن اقتفاء آثار الشياطين وتتبع خطواتهم وذلك لما رواه أحمد وغيره عن عبد الله بن مسعود قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطاً فقال : « **هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سُبل، قال يزيد متفرقة ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾** [الأنعام: ١٥٣] [(١)] ، وأمر بمخالفة المشركين والمجوس واليهود والنصارى ونهى عن التشبه بهم وولايتهم ، فقال فيما رواه البخارى عن ابن عمر رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « **خالفوا المشركين** » [(٢)] ، وفيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **خالفوا المجوس** » [(٣)] ، وقال فيما رواه أبو داود رضي الله عنه من حديث شداد بن أوس عن أبيه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **خالفوا اليهود** » [(٤)] ، وبيّن فى ذلك أن من أمته من سينزع إلى هؤلاء

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٤١٣١) والدارمى فى المقدمة (٢٠٢) ، والحاكم فى المستدرك (٣٤٨/٢) وقال هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه ، مسند أبى داود الطيالسى (ص ٢٣) ، صححه ابن حبان (١٨٠/١) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

(٢) متفق عليه : رواه البخارى فى اللباس (٥٥٥٣) .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الطهارة (٢٦٠) وأحمد فى المسند (٨٥٦٠) .

(٤) رواه أبو داود فى الصلاة (٦٥٢) ، انظر صحيح أبى داود (٦٥٢) .

ويقلدهم ، ويتبع سننهم فيما فيه مذمة لدينه ، ومخالفة للشرع الحنيف ؛ فحذَّر أشد التحذير من ذلك .

ولقد جمع غلاة الصوفية عامة الأهواء ، وهذا فى حد ذاته دليل على بطلان مذاهبهم وفساد طريقتهم ، وذلك لأن الحق واحد لا يتغير ، أما إذا تفرق الأمر وتشعب فهذا دليل على سقوطه وهوانه .

يقول مطرف بن الشخير : لو كانت هذه الأهواء كلها هوى واحد لقال القائل : الحق فيه ، فلما تشعبت واختلفت عرف كل ذى عقل أن الحق لا يتفرق . (المنتقى من شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائى ص ٥٠) .

وهذا تراه عند غلاة الصوفية فى الصفحة الواحدة ، وفى البيت الواحد ، وفى الفرقة الواحدة ، فما من شىء إلا وهم فيه متفرقون مضطربون ، حتى لا تكاد تجد لهم صفة ثابتة فى أى معتقد من معتقداتهم ، وذلك لتعدد مشاربهم وتنوع مدارسهم وشيوخهم .

يقول شيخنا فضيلة الشيخ الدكتور / سعد عبد الرحمن ندا – حفظه الله – فى كتابه (إصلاح العقيدة ص ٤٧ – ٥٩) : **إن الذين يدينون بدين الصوفية قد لبسوا على المسلمين وخلطوا عليهم أمور دينهم ، وأفسدوا عليهم عقيدتهم ، حتى أصبح المسلمون فى حالة يحزن لها قلب المسلم الحق ، ولو نظرنا إلى واقع المسلمين اليوم لوجدناهم حقاً غثاء كغثاء السيل، لا شخصية لهم بين الأمم** . ثم قال : **وبهذه الأفكار الضالة والاتجاهات الزائغة المنحرفة تضيع معالم الإسلام وتُشَوَّه مبادؤه عند المسلمين ، ويجد أعداء الإسلام منها ثغرات ، يدخلون منها للطعن فى الإسلام ، وإظهاره بمظهر الدين المتخلف ، الذى لا يجدى فى الحياة فتيلاً** . (انتهى) .

وسنحاول أن نبين أثر البدع والأهواء فى أفكارهم فى الصفحات التالية .

وحدة الوجود والحلول والاتحاد

وهو قول طائفة من الزنادقة أن العالم موجود أزلي غير مخلوق ، وأنه صورة الوجود الكلى لله – تعالى عما يقولون – وهذا لا يُعْرَفُ فى ملة الإسلام ، وإنما هو قول ملاحدة الصوفية ؛ وزنادقة علوم العرفان .

يقول شيخ الإسلام فى (الفتاوى ٢ / ١٧١) : واعلم أن هذه المقالات لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء (يقصد ابن عربى وأعوانه) على هذه الوجه ، ولكن رأيت فى بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إن الوجود واحد ورد ذلك ، وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين ، وإنما حدثت هذه المقالات بحدوث دولة التتار ، وإنما كان الكفر الحلول العام أو الاتحاد أو الحلول الخاص ، وذلك لأن القسمة رباعية ، لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة ؛ فإما أن يقول بحلوله فيه ، أو اتحاده به ؛ وعلى التقديرين فإما أن يجعل ذلك مختصاً ببعض الخلق كالمسيح ، أو يجعله عاماً لجميع الخلق .

فهذه أربعة أقسام :

الأول : هو الحلول الخاص وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ، ممن يقول إن اللاهوت حل فى الناسوت وتدرع به ، كحلول الماء فى الإناء ، وهؤلاء حققوا كفر النصارى بسبب مخالتطهم للمسلمين ، وكان أولهم فى زمن المأمون ، وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى ، من غالية هذه الأمة ، كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بعليّ بن أبى طالب وأئمة أهل بيته ، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول فى الأولياء ، ومن يعتقد فيهم الولاية كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء .

الثانى : هو الاتحاد الخاص وهو قول يعقوبية النصارى ، وهم أخبث قولاً وهم السودان والقبط ، يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء . وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام .

الثالث : هو الحلول العام وهو القول الذى ذكره أئمة أهل السُنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين ، وهو قول غالب متعبدة الجهمية ، الذين يقولون إن الله بذاته فى كل مكان ، ويتمسكون بمتشابه من القرآن كقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٣] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، والرد على هؤلاء مشهور فى كلام أئمة السُنة وأهل المعرفة وعلماء الحديث .

الرابع : الاتحاد العام وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين : من جهة أن أولئك قالوا: إن الرب يتحد بعبده الذى قربه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين، وهؤلاء يقولون : ما زال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره .

والثانى : من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظموه كالمسيح ، وهؤلاء جعلوه سارياً فى الكلاب والخنازير والأقذار والأوساخ ، وإذا كان الله تعالى قد قال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٧] فكيف بمن قال : إن الله هو الكفار والمنافقون والصبيان والمجانين والأنجاس والأنتان وكل شىء !! .

وإذا كان الله قد رد قول اليهود والنصارى لما قالوا : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : ١٨] ، وقال لهم : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : ١٨] فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه ؟ ،

ولا يتصور أن يعذب الله إلا نفسه ؟ ، وأن كل ناطق فى الكون فهو عين السامع . (انتهى) .

ابن عربى ووحدة الوجود :

يرى ابن عربى وأعوانه أن وجود العالم وجود أزلى قديم غير محدث ، وقولهم هذا يوضح حقيقة ما يضمرون من سوء الاعتقاد فى الله تعالى ورسله وأنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين .

قال أبو محمد العز بن عبد السلام عن ابن عربى : هو شيخ سوء مقبوح كذاب ، يقول : بقدم العالم ولا يحرم فرجا . (انظر فتاوى الإسلام ٢/ ٢٤٠).

وكان الجنيد بن محمد ينكر على من يقول بقدم العالم ، ولما سئل عن التوحيد قال : هو الفرق بين القديم والمحدث (انظر مجموع الفتاوى ٣١٨/٨).

ومعنى ذلك أن الجنيد كان يفرق بين الله تعالى وخلقه – وقد كان ابن عربى يبغض الجنيد لأجل ذلك – خلافاً للاتحادية الذين يزعمون أن هذا العالم بجميع محتوياته ومشاهده هو الله رب العالمين ، ولا يفرقون بين الله تعالى وهذا العالم ..

وقد حوت دعوى وحدة الوجود فى طياتها كل بلية ، وتأبطت كل شر ، فجعلت المكلَّف عين المكلِّف ، والعابد عين المعبود ، ومن ثم فلا فرق بينهما ، كما قال ابن عربى :

الرب عبد والعبد حق ... ياليت شعرى من المكلف ؟
إن قلت عبد فذاك ميت ... وإن قلت رب أنى يكلف ؟

فهؤلاء هم غلاة المعطلة الكافرون بالصانع ، الملحدون فى إلهية الله تعالى ، وهم نفاة الأسماء والصفات ، القائلون بهدم الشرائع والنبوات ، والتسوية بين

المتناقضات والمتغايرات ، والرضا بكل المعتقدات ، والتصديق بثبوتها ، وصحتها طالما ظهرت ووجدت .

قال ابن عربى :

عقد الخلائق فى الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

فهؤلاء من ناحية المشيئة والقدرة عطلوا الصانع عن مصنوعه ، ومن ناحية العبادة والعمل عطلوا الأوامر والنواهى ، والثواب والعقاب ، فلا حلال ولا حرام ، ولا خير ولا شر ، ولا كافر ولا مؤمن ، وهذا هو تعطيل العبادة والطاعة والمعاملة والتوحيد ، وهكذا لأنهم يرون الكل شيئاً واحداً لا تضارب ولا تضاد ، وقالوا :

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من حمد ولا ذم

وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع والحكم

ويقولون : إن الذى يفرق بين الحلال والحرام محجوب عن الكشف والإلهام ، ومن خطأهم فهو محجوب أيضاً ، ولذلك فهم وإن كانوا يرضون بمجموع الديانات إلا أنهم يخطئونها من جهة الحصر والتقيد .

فساد دعوى الاتحادية :

يعتقد أهل السُنة أن الله تعالى هو الخالق بأمره وفعله، وأن هذا الكون محدث، ولم يكن قديماً أزلياً ، بل الخلق كانوا عدماً فخلقهم وهداهم إلى ما أراد .

يقول البخارى – رحمه الله تعالى – : « خلق الله تعالى السموات والأرض وغيرها من الخلائق وهذا بفعله وأمره وصفاته وكلامه وهو الخالق المكون ، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكون » (انظر فتح البارى ١٣/٤٤٧) .

هذا هو معتقد المسلمين ، بل معتقد كفار قريش ، فقد كانوا يفرقون بين الله تعالى وبين تلك الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله ، ولم يقولوا إنها

رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣] ، فقد كانوا أحسن حالاً من القائلين بوحدة الوجود ، وتلك شهادتهم وهي حجة عليهم .

وقد أثبت الله تعالى الغيرية في مواضع كثيرة من القرآن كما قال تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ⑪ ﴾ [لقمان : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ⑭ ﴾ [الزمر : ٦٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

كل ذلك يدل على وجود غير ودون ؛ وهذا يثبت أن الله تعالى غير خلقه.

والمشاعر الفطرية تفيد البينونة والانفصال بين ذات الله تعالى ومخلوقاته ومنها الشعور بعلو الله تعالى على خلقه ، فكل من دعا الله تعالى ورجاه يتوجه إلى السماء ولا يتوجه إلى الأرض ، وليس هناك صاحب فطرة سوية يميل يمنة أو يسرة أو أسفل أو إلى نفسه ليرجو أو يتمنى ويدعو ، إنما يتوجه إلى أعلى ، وهذا في جميع أقطار الأرض ، والمسلمون يقولون : سبحان ربي الأعلى في سجودهم ، ولا يقولون غير ذلك .

قال الشيخ الجليل أبو جعفر الهمداني : ما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو ، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة من قلوبنا ؟ (الاستقامة ص ١٦٧) .

وعلو الله تعالى على خلقه علو ذات وقدر وقهر ، ولكل ذلك أدلته وبراهينه الصحيحة الصريحة المتواترة ، التي تخضع لها العقول السوية ، وتنكسر لها القلوب المؤمنة ، كالتصريح باستواء الله على عرشه في سبع مواضع من القرآن ليس لها ما يصرفها عن معنى العلو صارف مثل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، والاستواء : هو الارتفاع

والعلو ، وهذا هو ما كان عليه السلف الصالح ، ومن لم يقل به وقال : إن الله تعالى في كل مكان فقد وافق الجهمية في قولهم : إن الله تعالى في كل مكان . ومن قال قولهم هذا فإنه لا يستطيع أن ينكر على النصارى قولهم إن الله تعالى حل في جسد المسيح ، ولا يستطيع أن يرد على الاتحادية الذين قالوا : إن الله تعالى هو الوجود السارى في المخلوقات ، ولا يستطيع أن ينكر على المشبهة الذين قالوا إن الله تعالى مثل خلقه .

قال أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - : من قال : لا أعرف ربى في السماء أم في الأرض فقد كفر ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ⑤ ﴾ [طه : ٥] ، وعرشه فوق سماواته ، قلت : فإن قال : **إنه على العرش ولكنه يقول : لا أدرى العرش في السماء أم في الأرض فهو كافر** ؛ لأنه أنكر أن يكون في السماء ، لأنه تعالى في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل (انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥٧) .

وهناك كثير من الأدلة التي تعطى الإشارات المسكته على صحة هذا المعتقد منها التصريح بنزول القرآن والخيرات والفتن والمقادير من السماء ، وكذلك التصريح بصعود الأعمال والأرواح إلى السماء ، وكذلك صعود بعض الخلق إليه سبحانه وتعالى ومنه معراج النبي محمد ﷺ .

فهذه كلها أدلة علو ومباينة ، والله تعالى مع ذلك لا يغيب علمه ، ولا يحتجب سلطانه عن خلقه ، وهذا هو معتقد السلف - رحمهم الله - لا معتقد الجهمية المعطلة ولا الأشاعرة المؤولة ، ولا غيرهم من الممثلة والمشبهة . فالجارية لما سُئلت « أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ﷺ ؛ قال : « **أعتقها فإنها مؤمنة** » [1] ، وزينب قالت : « **زوجكنَّ**

---

(١) رواه أبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٢) وأحمد في المسند (١٨٩٦١) ، انظر صحيح أبي داود (٢٨٠٩) .

أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات » [(١)] ، وفى خطبة الوداع أشار النبى ﷺ إلى السماء بالسبابة ، وفى الحديث : « **يرفعها إلى السماء وينكتُها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات »** [(٢)] ، وهو يستشهد الله تعالى على أمته بالبلاغ بما يدل على أن الله تعالى فى العلو ، وهذا من الأدلة الفعلية على علو الله تعالى على خلقه ، وقوله ﷺ فيما رواه الترمذى وقال حسن صحيح عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « **الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »** [(٣)] .

هذا كله يفيد أن الله تعالى فى العلو وليس فى الأرض ، وفى هنا لا تفيد الظرفية ، وإنما هى بمعنى على ، ولو كانت تفيد الظرفية لكان مقصود الأمر بالرحمة رحمة الديدان والحشرات التى فى باطن الأرض .

ومن أدلة المباينة أيضاً ما ثبت فى الصحيح أن لله تعالى حجاباً من نور ، يفصل بينه وبين خلقه كما قال ﷺ : « **حجابهُ النور** » ، وفى رواية أبى بكر « **النار لو كشفه لاحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه** » [(٤)] .

وقوله ﷺ حين سئل هل رأيت ربك فقال : « **نور أني أراه** » معناه : حجابه النور فكيف أراه ؟ يعتبر دليلاً على المباينة .

---

(١) رواه البخارى فى التوحيد (٦٩٨٤) .

(٢) رواه مسلم فى الحج (١٢١٨) وأبو داود فى المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٧٤) والدارمى فى المناسك (١٨٥٠) .

(٣) رواه الترمذى فى البر (١٩٢٤) وقال : حسن صحيح ، وأبو داود فى الأدب (٤٩٤١) وأحمد فى المسند (٦٤٥٨) .

(٤) رواه مسلم فى الإيمان (١٧٩) وابن ماجه فى المقدمة (١٩٥) وأحمد في المسند (١٩٠٣٦) .

والأدلة الشرعية تؤكد أن الله تعالى لا يرى فى الدنيا ، وهذا دليل واضح على أن الدنيا ليست هى الله تعالى ، إذ لو كانت هى الله تعالى كما يزعمون لما طلب موسى من ربه أن يريه نفسه لكفاية النظر إليها ، وأيضاً ولما أخر النبى ﷺ رؤية الله تعالى حتى الموت . قال ﷺ فيما رواه الترمذى : « **تعلمون أنه لن يرى أحدٌ منكم ربهُ حتى يموت** » (١) .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن من اعتقد أن الله تعالى يحل بذاته فى كل مكان فلا يجوز الصلاة خلفه ، وهذه فتوى رقم (٣٥٣٥) للجنة الدائمة ونصها كالآتى :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

فمن اعتقد أن الله جل وعلا بذاته فى الأرض فهذا مخالف للكتاب والسُنة والإجماع وهو مذهب الحلولية الذين يقولون إن الله حال فى كل مكان فمن قال بذلك عن جهل بيِّن له الحكم ، فإن أصر أو كان يقول ذلك لا عن جهل فهو كافر بالله فلا تصح الصلاة خلفه .

وبالله التوفيق ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو	عضو	عضو	الرئيس
عبد الله بن قعود	عبد الله بن غديان	عبد الرزاق عفيفى	عبد العزيز بن باز

---

(١) رواه الترمذى فى الفتن (٢٢٣٥) وأحمد فى المسند (٢٣١٦٠) ، انظر صحيح الترمذى (٢٣٥٠).

الدليل العقلي
على بطلان القول بوحدة المظاهر

لما رأى هؤلاء الملاحدة القائلون بوحدة الوجود أن المخلوقات متعددة ، ومقتضى ذلك أن يكون الوجود متعدداً ، أعياهم ذلك وأمرضهم ، إذ كيف يوفقون بين كونه واحداً فى عقولهم وهو فى حقيقة الأمر متعدد . هذا أمر مستحيل .

ولما رأوا أنهم قد ضلوا قالوا : « إن هذا التعدد مجرد مظاهر ومجال إلهية » فوقعوا فيما هو أشد مما هربوا منه ، وتنقلوا فى الضلالات كلما فتحوا باباً أمدهم الله بأبواب ، واستدرجهم فى العمى حتى جعلوا إبليس عليه لعنة الله مجلى إلهياً معظما ، كما جعلوا نبى الله محمد ﷺ مجلى إليهاً معظما ، وهذا منتهى التضارب ولكنهم يؤمنون بذلك .

والرد عليهم فى غاية البساطة وهو : أن تلك المظاهر إذا كانت أمراً وجودياً تعدد الوجود وإلا لم يكن له حقيقة .

يقول شيخ الإسلام فى (الفتاوى ٣١٩/٢) : **وهم يقولون : إن الكون مظاهر الحق ، فإن قالوا المظاهر غير الظاهر ، لزم التعدد وبطلت الوحدة ، وإن قالوا : المظاهر هى الظاهر ، لم يكن قد ظهر شىء فى شىء ، ولا تجلى شىء فى شىء ، ولا ظهر شىء لشىء ، ولا تجلى شىء لشىء** . (انتهى) .

وكثير من هؤلاء يثبت أن الوجود متعدد ، وإذا أُفْحِموا بذلك قالوا : إن هذا - يقصدون وحدة الوجود - يثبت عندنا بالكشف والذوق ، وإن كان فى حقيقة الأمر لا يثبت بالحس، وهذا دليل على أنهم يرون الحقائق ظنوناً وأوهاما، تتغير بتغير العقائد التى تنكشف لهم ، فإذا رأى أحدهم أن الشمس أصغر من

القمر بالكشف عارض بما كشف له الحقائق التى عليها الناس لاعتقاد فاسد فى الذهن ، جاء من كشف فاسد ، وعلى ذلك فقول هؤلاء : إن تلك المراتب المتعددة ماهى إلا مظاهر ومجال إلهية ، يعتبر أوهاماً وظنوناً تخالف الحس والعقل والحقيقة .

يقول شيخ الإسلام : أما هؤلاء الملاحدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمسانى منهم - وهو أحذقهم فى اتحادهم - لما قُرئ عليه الفصوص فقيل له : القرآن يخالف فصوصكم فقال : « القرآن كله شرك وإنما التوحيد فى كلامنا » فقيل له : فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأخت حراماً ؟ فقال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام . فقلنا : **حرام عليكم . وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهر ، فإن الوجود إذا كان واحداً فمن المحجوب ومن الحاجب ؟ .**

ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك إن فى الكون سوى الله فقد كذب فقال له مريده : فمن هو الذى يكذب ؟ .

وقالوا لآخر : هذه مظاهر فقال لهم : المظاهر غير الظاهر أم هى ؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة ، وإن كان إياها فلا فرق(الفتاوى ٤/ ٢٤١) .

وقال أيضاً : فقول القائل : إن الله لطف ذاته فسماها حقاً ، وكثفها فسماها خلقاً ، وهو من أقوال أهل الوحدة والحلول والاتحاد ، وهو باطل ، فإن اللطيف إن كان هو الكثيف فالحق هو الخلق ولا تلطيف ولا تكثيف ، وإن كان اللطيف غير الكثيف فقد ثبت الفرق بين الحق والخلق ، وهذا هو الحق وحينئذ فالحق لا يكون خلقاً ، فلا يتصور أن ذات الحق تكون خلقاً بوجه من الوجوه كما أن ذات المخلوق لا تكون ذات الخالق بوجه من الوجوه .

وكذلك قول الآخر : « ظهر فيها حقيقة واحتجب عنها مجازا » **فإنه إن كان الظاهر غير المظاهر ، فقد ثبت الفرق بين الرب والعبد ، وإن لم يكن**

أحدهما غير الآخر ؛ فلا يتصور ظهور ولا احتجاب . ثم قوله « **من كان من أهل الحق شهدها مظاهر ومجالى ، ومن كان من أهل الفرق شهدها ستورا وحجبا** » **كلام ينقض بعضه بعضاً ، فإنه إن كان الوجود واحدا ، لم يكن أحد الشاهدين غير الآخر ، ولم يكن الشاهد غير المشهود** .

ولهذا قال بعض شيوخ هؤلاء : من قال إن فى الكون سوى الله فقد كذب . فقال له آخر : فمن الذى كذب فأفحمه ، وهذا لأنه إذا لم يكن موجود سوى الواجب بنفسه كان هو الذى يكذب ويظلم ويأكل ويشرب ، وهذا يصرح به أئمة هؤلاء كما يقول صاحب الفصوص وغيره (الفتاوى ٢/٣٠٤ - ٣٠٥) .

فساد نهاية القائلين بوحدة الوجود :

ففساد نهاية هؤلاء دليل حسى على أن الله تعالى خذلهم وأعمى أبصارهم .

يقول الشيخ إبراهيم الجعبرى : **رأيت فى منامى ابن عربى وابن الفارض ، وهما شيخان أعميان يمشيان ويتعثران ، ويقولان : كيف الطريق ؟ أين الطريق ؟** (ف ٢/٢٤٦) .

ويقول شيخ الإسلام فى (الفتاوى ٢/٢٦٨) : حدثنى بعض أصحابنا عن بعض من أعرفه وله اتصال بهؤلاء - عن الفاجر التسلمانى - : أنه وقت الموت تغير واضطرب ، قال: دخلت عليه وقت الموت فوجدته يتأوه ، فقلت له : مما تتأوه ؟ فقال : من خوف الفوت . فقلت : سبحان الله ! ومثلك يخاف الفوت ، وأنت تدخل الفقير إلى الخلوة فتوصله إلى الله فى ثلاثة أيام . فقال ما معناه : زال ذلك كله وما وجدت لذلك حقيقة . (انتهى) .

نعوذ بالله من الخذلان ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ** ﴾ [الحشر : ٢] .

أبو يزيد البسطامى والاتحاد :

يرى طائفة من الزنادقة أن الله تعالى يتحد مع من يحب من أصفيائه وأحبائه اتحاد الماء باللبن حتى يصيرا شيئاً واحداً ، كيعقوبية النصارى ، الذين قالوا : إن اللاهوت والناسوت اتحدا فصارا شيئاً واحداً ، وكذلك الذين وصلوا إلى مقام الفناء فى الطرق الصوفية منهم من قال : إن الأذواق والمواجيد تأخذ العبد إلى مقام يرى فيه أنه هو الله ، حتى إن بعضهم يصيح ويصرخ قائلاً : « أنا الله » « أنا الله » . أو يقول : « أنا » تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً .

وقد ذكر ابن عطاء كما تقدم أن أهل المعرفة فى هذا الاسم على أربعة أصناف فعارف قال : « الله » وعارف قال : « هو » وعارف قال : « أنا » وعارف بُهِتَ . (انتهى) .

وقد حُكِيَ عن أبى يزيد ما يشير إلى أنه كان يعبر عن هذا المعتقد فقد قال : خرجت من بايزيدينى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لأن الكل فى عالم التوحيد واحد (تذكرة الأولياء ١٦٠/١٠) ، وقال : سبحانى ما أعظم شانى ، وقال : سبحانى أنا ربى الأعلى (المصدر السابق ١٤٠/١٠) .

وهذا يدل على أن الشعور الكاذب بالاتحاد والتكلم به كان أمراً مسيطراً على أبى يزيد ، وقد يكون هذا سوء اعتقاد كان خفياً ثم ظهر ، أو ذهاب عقل إن لم يكن المتكلم بهذا الكلام شيطاناً يهذى بما لا يرضى الله تعالى ورسوله ﷺ .

أما أن يكون فى الإسلام عبادة تسلب الرجل عقله أو ترفعه إلى مقام الألوهية فلا ، وإنما آثار العبادات فى الإسلام إيمان وتوحيد يملأن القلوب ، وعلوم وأخبار وأذكار تملأ الصدور ، وكلما يزداد المؤمن علماً ويقيناً ، كلما يزداد خشية وحباً لله تعالى، وهذا أرفع مقامات العبودية والافتقار إلى الله تعالى .

وإن قُدِّر أن الإنسان فقد عقله لوارد قوى لم يستطع أن يتحمله لضعف فى نفسه فبعيد لمن يريد الله والـدار الآخـرة أن يصل إلى مقام يقول فيه « أنا الله » أو « سبحانى ما أعظم شانى » ، أو غير ذلك من الألفاظ التى تخرجه عن مقام العبودية ليصف نفسه بالألوهية زورا وبهتانا ، **ويشاركنا فى ذلك الشيخ أحمد الرفاعى حين أنكر على الحلاج مقولته أنا الحق فقال : لو كان على الحق ما قال أنا الحق** . (انظر البرهان المؤيد ص ٢٨) .

الحسين بن منصور الحلاج والحلول :

يعتبر الحسين بن منصور الحلاج المعبر الأول عن معتقد الحلول فى أوساط المسلمين، ولقد جهر الحلاج بمعتقده الحلولى هذا وهو فى كامل قواه العقليه، وكان أجرأ من عبر عنه ، بينما كان كثير من أقرانه يتكتم ذلك المعتقد .

فهـذا جحدر الشبلى يقول : أنا والحلاج شىء واحد فخلصنى جنونى ، وأهلكه عقله . (انظر كشف المحجوب ٣٦٢/١) .

فقد كان الحسين بن منصور الحلاج علماً فى التلون ، ونقل ابن الجوزى عن أبى بكر الصـولى قـال : قـد رأيت الحـلاج ، وخـاطب ظاهره أنه ناسك صوفى ، فإذا علم أهل بلدة يرون الاعتزال صار معتزلياً أو يرون الإمامة صار إمامياً ، وأراهم أن عنده علما من إمامتهم أو رأى أهل السُّنة صار سنياً ، وكان خفيف الحركة مشعبذاً قد عالج الطب وجرب الكيمياء ، وكان من جهله خبيثاً ، وكان ينتقل فى البلدان . (المنتظم ١٦٠/٦) .

وقد كان كثير من الناس يسخرون من حيله ومكره .

فعن أبى بكر بن سعدان قال : قال لى الحلاج : تؤمن بى حتى أبعث لك عصفورة تطرح من رزقها وزن حبة على كذا منا من نحاس فيصير ذهباً ، قال : أفتؤمن بى حتى أبعث إليك بفيل يستلقى فتصير قوائمه فى السماء فإذا أردت

أن تخفيه أخفيته في عينك فأبهته ، وكان مموهاً مشعوذاً (العبر ٤٥٨/١) .

قال أحمد بن يونس التنوخي الأزرق : كان الحلاج يدعو كل وقت إلى شيء « على حسب ما يستبله طائفة » أخبرني جماعة من أصحابه أنه لما افتتن به الناس في الأهواز ، لما يخرج لهم من الأطعمة في غير وقتها ، والدراهم التي يسميها دراهم القدرة ، حدث الجبائي بذلك فقال : هذه الأشياء يمكن الحيل فيها ولكن أدخلوه بيتاً من بيوتكم ، وكلفوه أن يخرج منها جزرتين من شوك ، فبلغ الحلاج قوله فخرج من الأهواز (العبر للذهبي ١/ ٤٥٦) .

وهذه واقعة أخرى للحلاج مع رافضي خبيث . يقول ابن كثير (في البداية والنهاية ١٦٤/١١) ولما ورد - الحلاج - بغداد جعل يدعو إلى نفسه ، ويظهر أشياء من المخاريق والشعوذة ، وغيرها من الأحوال الشيطانية ، وأكثر ما كان يروج على الرافضة لقلة عقولهم ، وضعف تمييزهم بين الحق والباطل ، وقد استدعى يوماً برئيس من الرافضة ، فدعاه إلى الإيمان به فقال له الرافضي : إني رجل أحب النساء ، وإني أصلع الرأس ، وقد شبت ، فإن أنت أذهبت عني هذا وهذا آمنت بك ، وإنك الإمام المعصوم ، وإن شئت قلت: إنك نبي ، وإن شئت قلت : إنك أنت الله . قال : فبهت الحلاج ولم يجر له جوابا .(انتهى) .

وقد زعم الحسين بن منصور الحلاج أن من تدرج في الرياضات ، واشتغل بالمجاهدات فنيت بشريته ، وحلت فيه روح الله ، وحينئذ يقول للشيء كن فيكون. فهو يريد محو البشرية ليحل محلها الصفات والأفعال والذات الإلهية فقال :

مزجت روحك في روحي كما ... تمزج الخمرة بالماء الزلال

فإذا مسك شيء مسني ... فإذا أنت أنا في كل حال

وقال :

سبحان من أظهر ناسوته	سر سنا لا هوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهراً	فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه	كلحظة الحاجب بالحاجب

هذا هو قول الحلاج فى الله تعالى وهو من أعظم الافتراء – تعالى الله عما يقول الحلاج علواً كبيراً – فشأن الله أعظم من ذلك ، وأكبر من أن يحل فى الكون كله ، فضلاً عن أن يحل فى أحد مخلوقاته .

فالكون كله بالنسبة لعرش الرحمن كحلقة ملقاة فى فلاة من الأرض ، فكيف يكون العرش والكرسى والسموات والأرض بالنسبة لله تعالى ذكره ؟ .

قال تعالى: ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٦٧) ﴾[الزمر : ٦٧] .

وعن ابن عباس قال : ما السموات السبع والأرضون السبع فى كف الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم » « انتهى » .

وقال ابن حجر فى الفتح (١٣/٤٢٢) : وفى حديث أبى ذر الطويل الذى صححه ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال : « **يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة** » ، وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور فى التفسير بسند صحيح « انتهى» .

وروى البخارى عن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء حبرٌ من اليهود فقال : إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات على إصبع والأرضين على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يَهُزهن ثم يقول : أنا

الملك ، أنا الملك ، فلقد رأيت النبى ﷺ يضحك حتى بدت نواجده تعجباً وتصديقاً لقوله ، ثم قال النبى ﷺ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى قوله قوله : ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ [(١)] .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – فى التفسير (٦٢/٤) : تعليقاً على قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، يقول الله تعالى : ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته . (انتهى) .

فكيف بمن هذه صفته ، وتلك عظمة نفسه يحل فى جسد أحد من مخلوقاته – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – .

لم يكن كثير من أئمة الصوفية السابقين يعتقد أن الله تعالى يتحد بالحوادث أو يحل فى المخلوقات ، بل كانوا يفرقون بين الأول الذى لا ابتداء له والمحدث المسبوق بعدم .

وهذا كما قال الجنيد بن محمد التوحيد هو الفرق بين القديم والمحدث . انظر الفتاوى (٨/ ٣١٨) .

قال الإمام معمر بن أحمد الأصبهانى شيخ الصوفية فى حدود المائة الرابعة فى بلاده : وأنه عز وجل مستو على عرشه ، بائن من خلقه ، والخلق منه بائنون ، بلا حلول ولا ممازجة ، ولا اختلاط ولا ملاصقة ، لأنه الفرد البائن عن الخلق ، الواحد الغنى عن الخلق (انظر الفتاوى ٦١/٥) .

---

(١) متفق عليه : البخارى تفسير القرآن (٧٠٧٥) .

ويقول الحارث بن أسد المحاسبى : بعد أن ذكر آيات الاستواء والعروج : وهذه توجب أنه فوق العرش ، فوق الأشياء كلها ، متنزه عن الدخول فى خلقه ، لا يخفى عليه منهم خافية ، لأنه أبان فى هذه الآيات أنه أراد به بنفسه فوق عباده . « اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ١٢٧ » .

ويقول الشيخ / أحمد الرفاعى ، كما قال صاحب البرهان المؤيد (ص ٢٨) : ينقلون عن الحلاج أنه قال : أنا الحق . أخطأ بوهمه ، إذ لو كان على الحق ما قال أنا الحق . ويذكرون له شعراً يوهم الوحدة ، كل ذلك ومثله باطل ، ما أراه رجلاً واصلاً أبداً ، ما أراه شرب ، ما أراه سمع إلا رنة أو طنينا ، فأخذه الوهم من حال إلى حال ، من ازداد قربا ولم يزد خوفاً ، فهو ممكور ، إياكم والقول بهذه الأقاويل ، إن هى إلا أباطيل . (انتهى) .

فالله تعالى لا يحل فى الأبدان كما يقول النصارى ، ولا كما يقول الحلاج – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – وإنما الذى يحل فى الأبدان هو الإيمان والمعرفة .

يقول الطوسى فى (اللمع ص ٥٥٢) : وقد غلط جماعة من البغداديين فى قولهم : إنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا فى أوصاف الحق ، وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول ، أو إلى مقالة النصارى فى المسيح عليه السلام ، ولم يدرك القائلون بالفناء : الذى هو فناء صفات البشرية أن البشرية لا تزول عنهم ، وهم لا يفرقون بين البشرية وبين أخلاق البشرية ، فالأخلاق تتبدل وتتغير ، بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق ، وصفات البشرية وأخلاقها إذا تغيرت فليست هى عين البشرية . (انتهى) .

وقال فى (اللمع ص ٥٤٢) : فالله لا يحل فى القلوب ، إنما يحل فيها الإيمان به ، والتصديق له ، والتوحيد والمعرفة . (انتهى) .

أقوال الأئمة فى الحلاج :

يقول شيخ الإسلام : والحلاج كانت له مخاريق ، وأنواع من السحر ، وله كتب منسوبة إليه فى السحر ، وبالجملة فلا خلاف بين الأمة أن من قال بحلول الله فى البشر ، واتحاده به ، وإن البشر يكون إلهاً ، وهذا من الآلهة ، فهو كافر مباح الدم ، وعلى هذا قتل الحلاج . (الفتاوى ٢/٤٨١) .

قال ابن كثير فى البداية والنهاية (١١/١٦١) نقلاً عن أبى القاسم القشيرى فى رسالته حفظ قلوب المشايخ : أن عمراً بن عثمان المكى دخل على الحلاج ، وهو بمكة يكتب شيئاً فى أوراق ، فقال له : ما هذا ؟ فقال هو ذا أعارض القرآن . قال : فدعا عليه ، فلم يفلح بعدها ، وأنكر على أبى يعقوب الأقطع تزويجه إياه ابنته .

ثم قال ابن كثير : وكتب عمرو بن عثمان إلى الأفاق كتباً كثيرة يلعنه فيها ، ويحذر الناس منه ، فشرد الحلاج فى البلاد فعاث يميناً وشمالاً ، وجعل يظهر أنهى دعو إلى الله ، ويستعين بأنواع من الحيل ، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحل الله به بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، فقتله بسيف الشرع الذى لا يقع إلا بين كتفى زنديق ، والله أعدل من أن يسلطه على صديق ، كيف وقد تهجم على القرآن العظيم ، وقد أراد معارضته فى البلد الحرام ، حيث نزل به جبريل وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الحج : ٢٥] ، وقد أشبه الحلاج كفار قريش فى معاندتهم كما قال تعالى عنهم : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)** ﴾ [الأنفال :٣١] انتهى .

قال الخطيب البغدادى : والصوفية مختلفون فيه ، فأكثرهم نفى أن يكون الحلاج منهم ، وأبى أن يعده فيهم ، ثم قال : والذين نفوه من الصوفية نسبوه

إلى الشعبذة فى فعله ، وإلى الزندقة فى عقيدته وعقده . (البداية والنهاية ١١/١٥٨) .

يقول شيخ الإسلام (الفتاوى ٢/٤٨٣) : وقد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية أن أكثر المشايخ أخرجوه عن الطريق ، ولم يذكر أبو القاسم القشيرى فى رسالته من المشايخ الذين عدهم فى مشايخ الطريق ، وما نعلم أحد من أئمة المسلمين ذكر الحلاج بخير ، لا من العلماء ولا من المشايخ ، ولكن بعض الناس يقف فيه لأنه لم يعرف أمره . « انتهى » .

نهاية الحلاج :

الحلاج لم يكن معه كرامات ولا خوارق ، إنما حيل وتمويهات ، منها ما كان شعبذة ، ومنها ما كان بخدمة الشياطين ، وهذه لا تستحق تقديراً ولا إجلالاً ، إنما تستحق القتل والتنكيل والصلب ، وليس مع الحلاج إلا ما يروج على جهال الناس وسفهائهم ، ولو قدر أن معه خوارق فإنها بأى حال لا ترفعه إلى تلك المرتبة التى أعدها كذباً وافتراءً على الله تعالى . ولذا لم يكن كثير من الصوفية يصحح ما كان عليه الحلاج .

قال الذهبى فى العبر (١/٤٥٧) : وأفتى جماعة من العلماء بقتله ، وبعث حامد بن العباس بخطوطهم إلى المقتدر ، فتوقف المقتدر ، فراسله أن هذا قد ذاع كفره وادعاؤه الربوبية ، وإن لم يقتل افتتن به الناس ، فأذن فى قتله ، فطلب الوزير صاحب الشرطة ، فأمره أن يضربه ألف سوط ، فإن مات وإلا قطع أربعته . فأحضر وهو يتبختر فى قيده فضرب ألف سوط ، ثم قطع يده ورجله ، ثم حز رأسه ، وأحرقت جثته . « انتهى » .

شبهات زنادقة الصوفية في مسألة الحلول

التفسير الفاسد لقوله تعالى عن آدم عليه السلام

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾

[الحجر : ٢٩] .

لم يكن لطالب الحق أن يغرق فيما غرق فيه أهل الشبهات ؛ وذلك لأن الحق واضح أبلج ، والباطل سقيم مظلم . فالمؤمن قد استنار قلبه بروح العلم والمعرفة والإنابة لاستمساكه بالوحى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما الزنديق الملحد فروحه سفلية بهيمية بل أضل ؛ وذلك لتعمقها فى الشبهات ، وتتبعها لخطوات الشيطان ودروب أهل الأهواء والشهوات .

وفتنة القول بالحلول أصلها بوذى ، وقد ترعرعت عند النصارى ، وضحك بها الحلاج على السفهاء ، ودلس بها غالية الروافض على أشياعهم ، وقالوا : إن روح آدم جزء من ذات الله تعالى ،كما تأول النصارى ذلك فى المسيح وقالوا : إنه جزء من ذات الله .

وقد كان لعبد الله بن سبأ اليهودى الدور الأول فى بث هذه الفتنة فى هؤلاء الضلال ، إذ قال لهم : إن الله تعالى حل فى عليّ بن أبى طالب ، وإنه لم يمت ، وإنه سيرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة .

ومبنى الضلال عند غلاة الصوفية القائلين بحلول الله تعالى فى أحد من خلقه قد نتج من اعتقادهم أن الروح التى نفخت فى بدن آدم غير مخلوقة ، وتأولوا قول الله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[الحجر : ٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

فقالوا : إن هذه الروح التى نفخت فى آدم من نور الله تعالى وقد انتقلت فى الأوصياء من بعده حتى بلغت عليّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ثم الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ثم ينتقل هذا النور فى كل إمام ووصى ، ثم قالوا وهؤلاء الأئمة لا يحتاجون العلم من أحد فهم فوق الشريعة وفوق التكاليف .

أما قولهم : إن الروح التى نفخت فى آدم جزء من ذات الله تعالى وأنها قديمة غير مخلوقة فهذا باطل بإجماع المسلمين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمى مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السُنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزى الإمام المشهور الذى هو من أعلم أهل زمانة بالإجماع ولا اختلاف « انظر الروح لابن القيم » (ص ١٤٥) .

والدليل على أنها مخلوقة مصنوعة أنها منفصلة عن الله تعالى ، مستقلة قائمة بذاتها ، إذ هى مخاطبة مأمورة بالعبادة ، مربوبة بالشريعة والتكاليف ، كما أن البدن مأمور ، ومنها المنعمة ومنها المعذبة ، وهى تخرج وتدخل ، وتأتى وتذهب ، وتوصف بالقبض والوفاة والإمساك والإرسال ، وأنها مسبوقة بعدم ، وكل مسبوق بعدم فهو محدث وليس بقديم ، مخلوق وليس بخالق .

وقد حمل الزنادقة الجهل بنسبة إضافة الأفعال والصفات إلى الله تعالى إلى القول بقدم الروح ، وقد أوتى هؤلاء من سوء الفهم بفحوى النصوص ودلالتها من جهة ، وانتكاس فطرتهم من جهة أخرى .

والدليل على جهل الحلوليين بمعرفة نسبة الشيء المضاف إلى الله تعالى

ومكانته من الله عز وجل استدلالهم بقوله الله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] فظن هؤلاء الجهلة أن إضافة الروح إلى الله تعالى من باب إضافة الصفات إلى الذات .

وهذا الخلط عند هؤلاء فى هذا الباب باب المضاف إلى الله تعالى أى إضافة الأفعال والصفات والأملاك وعدم التفريق بينهم هو الذى أدى بهم إلى القول بالحلول .

وهذا غير صحيح ذلك لأن المضاف إلى الله تعالى ينقسم قسمين الأول : إضافة تشريف وملك ، والثانى : إضافة صفة .

أما إذا كان المضاف قائماً بنفسه مستقلاً عن الله تعالى فإضافته إلى الله تعالى من باب التشريف والملك ، وإذا كان المضاف قائماً بذات الله تعالى لا بغيره فهو من صفات الله تعالى ، ومثال الأول : بيت الله ، أرض الله ، عبد الله ، روح الله ، ومثال الثانى : علم الله ، وجه الله ، يد الله .

وعلى ذلك قال ابن تيمية فى الفتاوى (٩/٢٩٠) : فإضافة الروح إلى الله إضافة ملك لا إضافة وصف إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عينا قائمة بنفسها فهو ملك له ، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله « انتهى » .

الشاهد : أن الروح تطلق فى القرآن ويراد بها الوحى تارة وجبريل تارة والإيمان والقوة والثبات ، والمعرفة والإنابة تارة أخرى .

وقد تطلق الروح ويراد بها المسيح عليه السلام ويهمنا أن نفرق بين ثلاثة أقسام من الأرواح ، الروح التى اختص الله تعالى بها آدم ، والتى تميز بها المسيح ، أما الروح الثالثة : فهى التى وهبها الله تعالى بنى آدم جميعاً .

فالروح الذى نفخ فى آدم عليه السلام روح خاصة ميز الله تعالى بها آدم عليه السلام عن سائر خلقه وذلك لتميز نوعه إذ أنه خلق بلا أب ولا أم ، فلم تكن النفخة من الملك كما حدث لعيسى وبنى آدم ، وإنما كانت النفخة من الله تعالى أى من فعل الله تعالى والمنفوخ مخلوق كالبدن تماماً بتمام . وهذا بخلاف اليد التى خلق بها طينة آدم ، فإنها صفة من صفات الله تعالى وليست مخلوقة .

أما الروح التى تنفخ فى كل مخلوق فهى تختلف عن الروح التى نفخت فى آدم والنصوص على أنها تنفخ فى الجنين بمباشرة الملك .

أما روح عيسى فهى روح خاصة مصطفاة مخلوقة مضافة إلى الله تعالى ، ليست كروح آدم ولا بنيه ولذا ميزها الله تعالى بأن جعلها كلمته ، أى بسبب كلمته الخاصة فقد جاءت هذه الروح بأمر من الله تعالى وإذن ثم بمباشرة من الملك، أما دليل الإذن فهو فى قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم : ١٧] ، أما دليل الفعل ففى قوله تعالى ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : ١٢] .

وقد أشكل على النصارى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] ، فظنوا أن عيسى كلمة الله بمعنى أنه جزء من ذات الله تعالى وصفة من صفاته كما ظنوا ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ وهذا باطل من وجهين :

أ - أنه عبد مستقل قائم بنفسه يأكل ويشرب وينام وقد نقل فى الأناجيل ما يدل على افتقاره عليه السلام إلى الله تعالى ومخاطبته إياه ، ولا يمكن أن يكون المخاطِب عين المخاطَب . والمضاف إذا كان مستقلاً بنفسه فهو مضاف إلى الله تعالى إضافة ملك وليس إضافة صفة .

ب - أن عيسى جاء بسبب الكلمة « كن » وليس هو ذات الكلمة فكن من الله قول وليست مخلوقاً ، ولو كان عيسى هو ذات الكلمة كما يقول النصارى لكان الوجود كله جزء من ذات الله تعالى كعيسى لأن الوجود جاء أيضاً بكلمة ، وما يرمى إليه النصارى من هذا الفهم باطل لا أساس له .

قال ابن كثير (٥٩١/١) : أى إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له كن فكان ، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أى خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل ؑ إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل وكانت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشىء عن الكلمة التى قال له بها كن فكان والروح التى أرسل بها جبريل « انتهى » .

أما قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أى من أمره وليس هو نفس الأمر بل هو المأمور المخلوق المكون ، وقد أشكل ذلك على بعض الطوائف فى تفسير قول الله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، فقالوا : إن المراد بالروح كلامه الذى يأمر به . وهذا غير صحيح لأن الأمر فى لغة العرب قد يطلق ويراد به المأمور أيضاً .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - فى الفتاوى (٢٩١/٩) : قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علماً والمقدور قدرة ، والمأمور به أمراً والمخلوق بالكلمة كلمة ، فيكون ذلك مخلوقاً كقوله ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] « انتهى » .

فالمقصود بالأمر هو المأمور المقضى المقدر المخلوق ويراد به العذاب والإهلاك

وليس المقصود به الكلمة ، فكذلك قوله ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ يعنى من مأموره المخلوق المكون المقضى .

الرد العقلى على الحلوليين :

وقد زعم الحسين بن منصور الحلاج أن من تدرج فى الرياضات واشتغل بالمجاهدات فنيت بشريته ، وحلت فيه روح الله. وحينئذ يقول للشيء كن فيكون فهو يريد محو البشرية ليحل محلها الصفات والأفعال والذات الإلهية ، وهذا هو قول نسطورية النصارى فى المسيح عليه السلام وغالية الروافض النصيريين فى علي رضي الله عنه .

أما الفرق بين الحلاج وبين القائلين بوحدة الوجود فهو أنه يقول بالثنائية بين الحقيقة الإلهية والطبيعية البشرية كما هو عند النصارى يقسمون المسيح إلى قسمين : لاهوت ، وناسوت ، ومنهم اشتق الحلاج تلك الألفاظ ، وهذا اللاهوت يحل فى الناسوت بعد مجاهدات ورياضات كما يزعمون ، فالحلول مطلوب لما بلغ خياله ادعاه ، بينما يرى أتباع وحدة الوجود حقيقة واحدة ما ثمة فيها غير ولا تحول من شيء لشيء .

يقول الدكتور / عفيفى تعليقاً على الفصوص لابن العربى (ص ١٧) : يختلف الحلول عند الحلاج عن نظرية وحدة الوجود فى أمرين الأول : أن الحلاج يقول بالثنائية بين الطبيعية الإلهية أو اللاهوت والطبيعة البشرية أو الناسوت .

والثانى : أنه كان حلولياً يطلب محو صفاته التى يشعر أنها عائق دون الوصول إلى الله وحلول الصفات الإلهية محلها ، وهذا معنى لا يرمى إليه أصحاب وحدة الوجود عندما يتكلمون عن الفناء بل الفناء عندهم حال يتحقق فيه الصوفى من اتحاد موجود بالفعل كان حجبه عنها اشتغاله بإنيته فليس الأمر

في زعمهم تحول من صفات ولا صيرورة ولا حلول « انتهى » .

ولكن تلك الثنائية عند الحلاج تئول فى نهاية الأمر إلى ما انتهى إليه القائلون بوحدة الوجود ، سواء فى حقيقتها أو فى آثارها .

ولا شك أن أقوال الحلوليين مردودة شرعاً وعقلاً ، أما دلائل الشرع - فهى تنفع المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب - وإن كان لا ينتفع بها هؤلاء فهى حجة عليهم ، وهم يسألون عنها ، كما أنهم يسألون عن عقولهم ، فالحجة على هؤلاء الحلوليين شرعية كما هى عقلية ، وكما أن الشرع الثابت أبطل ترهاتهم كما تقدم ذكره فكذلك العقل الصريح .

أما إبطال قولهم عقلاً فهو يدور فى عدة نقاط منها :

[١] إذا آمنتم أيها الحلوليون أن الإله أكبر من كل شيء فكيف يحل فيما هو أصغر منه ؟ ، لابد أن سيصغر ، فكيف إن جاز عليه ذلك يكون إلهاً ؟! .

[٢] وإذا كان الإله عندكم مفتقراً إلى جسد ليحل فيه فأين وكيف حيا قبل خلق هذا الجسد ؟ ، وإن كان مستغنياً عن هذا الجسد لثبوت كماله بدونه فما حاجته لأن يحل فيه ؟ .

[٣] وإذا قلتم إن الإله يحل بصفاته فى جسد المقرب لديه حتى يصير فى معناه فهل ستبقى الصفات البشرية التى لهذا الجسد أم ستزول ؟ ، وهل ستغلب الصفات الإلهية أم ستفنى ؟ ، وهل ستبقى الصفتان معاً أم ستفنيان لتظهر صفة أخرى مغايرة لهما ؟ ، ففى الحالة الأولى : إن زالت الصفات البشرية فما الحاجة إلى الحلول ؟ ، وإن بقيت مع الصفات الإلهية فلأيهما التصريف ؟ وإن غلبت الصفات البشرية فكيف يكون الحال فى الجسد إلهاً ؟!.

[٤] وهنا إشكال عظيم يحتاج منكم إلى نظر ، وهو إذا مات هذا المقرب كيف سيكون نعيه ؟ ، هل ستقولون مات الجسد وبقى الإله ؟ أم مات الإله وبقى الجسد ؟ ، أم مات الاثنان ، الظاهر فى كل الأحوال أن هذا الإله سيكون ناقصاً ، فإن مات الجسد ، وهو مفتقر إليه لم يكن إلهاً ، وإن مات الإله وبقى الجسد لم يكن إلهاً ، وإن مات الاثنان فليس هناك أفقر من ذلك .

الحقيقة المحمدية :

الحقيقة المحمدية مصطلح صوفى قديم ، بدأ منذ أن ادعى الحلاج أن الذات الإلهية حلت فيه ؛ فترتب على ذلك أن قال بما يسمى بقدم النور المحمدى ومعناه : أن محمدا ﷺ له حقيقتان . الأولى : أزلية ، والثانية : حادثة.

فالحقيقة الأزلية :

هى التى أمدت جميع الأنبياء من نورها وفضلها ، **أما الحقيقة الحادثة** فهى الصورة البشرية لتلك الحقيقة الأزلية ، التى تعينت فى نبوته ورسالته فى آخر الزمان .

يقول الحلاج : أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس فى الأنوار نور أظهر وأقدم من القدم من نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ؛ لأنه كان قبل الأمم . (الطواسين ص ١١) .

ونظرية الحقيقة المحمدية عند ابن عربى تقدم باسم الإنسان الكامل . ويراد به : الإنسان الأزلى والنشء الدائم الأبدى . (انظر الفصوص ص ٥٠) .

ويرى ابن عربى أن الحقيقة المحمدية إحدى صور التنزلات الإلهية ، التى كانت سبباً فى إظهار الذات الإلهية ، بعد أن كانت عماء أو خفاء لا يُعرف

لها أسماء ولا صفات ، فتعينت فى الحقيقة المحمدية ، ثم تنزلت فى المظاهر الكونية المتنوعة . فصورة الوجود عنده هى محمد .

يقول الكمشخانلى فى (جامع الأصول ص ١٠٧) : صور الحق هو محمد ؛ لتحققه بالأحدية والواحدية . (انتهى) .

وتعتبر أوراد الطرق الصوفية القديمة والمعاصرة على السواء صوراً معبرة عن معتقد الحقيقة المحمدية ، فهذا ذكر شيخ الطريقة العزمية فى فتوحاته كما فى كتاب نيل الخيرات : اللهم أوصل صلة الصلاة على قبضة أنوارك الذاتية ، ومجلى أسرارك الكنزية ، وسر تجلى العوالم الصفاتية ، ومصدر حقائق المظاهر الأسمائية ، الجامع بين أولية الحقية فى مقام الأحدية ، وبين الآخرية فى مقام الواحدية ، وبينهما فى مقام الوحدانية . (انتهى) .

ومقصدهم من هذه الصلوات أن يوهموا العامة من السالكين أن محمداً ﷺ هو الله تعالى ، أو فى مقام الله ، لا فرق بينهما ، ولكنهم يصيغون ذلك بعبارات غامضة – عن العامة – تعبر فى حقيقة الأمر عن معتقد وحدة الوجود.

فيها تنزلات إلهية أزلية ، ومظاهر ومجالى وجودية محدثة ، فالنبى محمد ﷺ فى صلواتهم نور الله تعالى ، الذى كون به نفسه ، وهو سر الله الذى أظهر به نفسه ، وهو مجلى الأسماء والصفات الحادثة ، فهو الذات الأحدية وهو الحقيقة الواحدية وهكذا .

وهذا هو معتقد وحدة الوجود ، فلا يغرنك من قولهم اللهم صل وسلم واذهب ببصرك إلى حقيقة المراد يتبين لك أن صلواتهم كفر وزندقة .

ولقد ظهر معتقد الحقيقة المحمدية مجاراة للنصارى فى الحقيقة العيسوية.

ولم يكن النبى محمد إلا عبداً أوحى الله إليه كما أوحى إلى غيره من الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾ [الإسراء : ١٠] ،

وقـال تعـالـى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ [الكهف : ١١٠] ، ومعنى أنه يوحى إليه أى لا يستطيع أن يأتى بشىء من عنده أو من تلقاء نفسه ، ولو فعل لعذبه الله كما قال : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)** ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] ، وعلى ذلك فلو فرض أنه هو الله كما يقول غلاة الصوفية فهل يجوز أن يعذب الله نفسه ؟ ..

لا يخفى أن الأنبياء لا يعرفون عن النبى ﷺ إلا أنه نبى صالح وأخ صالح ولم يعرفوا شيئاً يسمى الحقيقة المحمدية فهذا آدم عليه السلام يقـول له : « **مرحباً بالنبى الصـالح والابن الصـالح** » [(١)] ، وقد قطع النبى ﷺ الأمر فى بيان عبوديته بنهيه البالغ عن إطرائه فقال : « **لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله** » [(٢)] .

فقد بين فى طيات هذا النهى أنه عبد وليس برب ، وأنه رسول وليس بكاذب ، وهذا رد جامع على الذين غلوا فيه وعلى الذين كفروا به . وهو ﷺ ليس له من تصريف الأمور شىء كما هو ثابت من قول الله تعالى : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، وقد نزلت هذه الآية بسبب ما استبعده النبى ﷺ من هداية الذين كسروا رباعيته وشجوا رأسه : فجعل يسلت الدم عنه ويقـول : « **كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم ، وكسروا رُباعيته ، وهو يدعوهم إلى الله ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾** [(٣)] .

---

(١) متفق عليه : البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٢١٣) .

(٢) رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٢٦١) وأحمد فى المسند (١٥٥) والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٤) .

(٣) متفق عليه : رواه مسلم فى السير (١٧٩١) .

وفى الآية تقريب للأمر ، وأن هداية الخلق ليست بيد النبى ﷺ إنما هى بيد الله تعالى وحده ، وقد ثبت ذلك بتوبة هؤلاء الذين كان يستبعد النبى ﷺ توبتهم وهدايتهم .

ومن الصوفية من يقول إن نوره ﷺ فاض على جميع الأنبياء والأولياء ، وإنه يعلم القرآن قبل نزوله بل هو الذى أنزله على نفسه .

ومن القائلين بذلك ابن عربى فهو يقول : فكل نبى من لدن آدم إلى آخر نبى ما منهم أحد يأخذ النبوة إلا من مشكاة خاتم النبيين ، وإن تأخر وجود طينته فإنه بحقيقته موجود ، وهو قوله : كنت نبياً وآدم بين الماء والطين . (انتهى) .

والحلاج أيضاً قال بمثل ذلك ، قال : أنوار النبوة من نوره برزت وأنوارهم من نوره ظهرت . (الطواسين . ص ١١) .

وتبعهم على ذلك أحمد التيجانى شيخ الطريقة التيجانية فما نقله عنه صاحب الرماح (٢/ ٥) حيث يقول : اعلم أن الفيوض التى تفيض من ذات سيد الوجود ﷺ تتلقاها ذوات الأنبياء ، تتلقاها ذاتياً ، ومنها تتفرق على جميع الخلائق من نشأة العالم إلى النفخ فى الصور . (انتهى) .

وهذا كذب مفترى فالنبى ﷺ لم يكن يعرف جميع الأنبياء الذين قبله ، فكيف يكون ممداً لهم ؟ قال تعالى : ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ [النساء : ١٦٤] .

يقول الشيخ محمد الهلالى فى الهداية الهادية : **وإذا لم يثبت أن النبى ﷺ كان يعرف جميع الأنبياء ، فكيف يكون واسطة فى نبوتهم ، وهو لا يعرفهم** . (انتهى) .

ويقول غلاة الصوفية إن جبريل عليه السلام سأل النبى ﷺ كيف تعجل بالقرآن قبل أن أتلوه عليك ؟ فأجابه النبى قائلاً : ارفع الستر مرة حين يلقى إليك

الوحى ، ففعل جبريل فرأى محمداً هو الذى يوحى إليه ، فصاح مُسَبحاً : منك وإليك يامحمد ! .

قلت : كيف ذلك ؟ وقد فوجئ النبى ﷺ بالنبوة ثم بالرسالة ، بعد أن لم يكن يعلم نبوة ولا رسالة ؟ ، وقد صرح تصريحاً بليغاً أنه لم يكن يعلم القرآن من قبل ، حتى أنزله الله تعالى عليه ، قال تعالى : ﴿ **قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴿١٦﴾ ﴾[يونس : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ** ﴾ [الشورى : ٥٢] ، بل ولم يكن النبى ﷺ لديه القدرة على استدعاء جبريل عليه السلام ؟ وقد عرض عليه أن يزوره كثيراً فبين له أن ذلك لا يكون إلا بأمر الله تعالى لا بأمره ، وهذا واضح فى حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال : « **يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت** : ﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم ٦٤] . [(١)] .

أما قول ابن عربى : اعلم أن رسول الله أُعطى القرآن مجملاً قبل جبريل من غير تفصيل الآيات والسور ، فقيل له : لا تعجل بالقرآن الذى عندك قبل جبريل فتلقيه على الأمة مجملاً فلا يفهمه أحد منك لعدم تفصيله . (انظر الكبريت الأحمر على هامش اليواقيت ص ٦) .

يؤول بذلك قول الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴿١٦﴾ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة : ١٦ ، ١٧] .

---

(١) متفق عليه : البخارى بدء الوحى (٥) .

فهذا تأويل باطل ألقاه الشيطان فى كلامه ، أما التفسير الصحيح الوارد فى تلك الآيات ففيه أن النبى ﷺ كان يحرك شفتيه بالقراءة ليدرك حفظ القرآن خلف جبريل عليه السلام وهو يلقيه إليه ويبلغه ، فنهاه الله تعالى عن ذلك ، وتعهد له بحفظه فى صدره ، وجمعه له دون تعب أو جهد . روى البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ، قال : كان النبى ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفتيه ، فقال لى ابن عباس فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما ، فقال سعيد أن أحركها كما كان ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) ﴾[القيامة : ١٦، ١٧] ، قال : جمعه فى صدرك ثم تقرؤه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة : ١٨] ، قال : فاستمع له وأنصت ثم إن علينا أن تقرأه ، قال : فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما أقرأه »(١)

ومن الصوفية من يقول إن الله تعالى خلق أول ما خلق نور محمد ﷺ واعتمد الصوفية على آثار موضوعة مثل : أول ما خلق الله نورى (قال السيوطى فى الحاوى ١/٣٢٥ ليس له إسناد يعتمد عليه) وقالوا إنه قال : كنت نبياً وآدم بين الطين والماء (قال السخاوى فى المقاصد الحسنة : لم أقف عليه (انتهى) . وقالوا إنه قال: كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث (قال الألبانى فى السلسلة الضعيفة برقم (٦٦١) : موضوع وله علتان الأولى عنعنة الحسن ، والثانية سعيد بن بشير قال الحافظ : ضعيف) (انتهى)

والصحيح أن أول مخلوق الماء ثم العرش ثم القلم ، وهو أول لما جاء بعده ،

---

(١) متفق عليه : البخارى بدء الوحى (٥) .

وفى الصحيح أنه قال : « **كان الله ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والأرض** »(١) .

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - فى الفتح (٦/٣٣٢) : معناه أنه خلق الماء سابقاً ، ثم خلق العرش على الماء ، وقد وقع فى قصة نافع الحميرى بلفظ : « **كان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال : اكتب ما هو كائن ، ثم خلق السموات والأرض ، وما فيهن** » ، فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش . (انتهى) .

وأكثر جهلة الصوفية الذين لم يفهموا معتقد وحدة الوجود يظنون أن الله تعالى خلق الخلق جميعاً والوجود كله لأجل محمد ﷺ ، ويزعمون أن الله تعالى قال لنبيه : « **لولاك ما خلقتُ الأفلاك** » وهو حديث باطل موضوع كما بين أهل العلم ، والله تعالى ماخلق الخلق إلا لعبادته وتوحيده ، ولم يقل إنه خلق الخلق من أجل محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات ٦٢] ، وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق : ١٢] .

ولما صادف أن جاء كسوف الشمس عند موت إبراهيم بن النبى ﷺ وظن الناس أنها كُسفَتْ لموته قال النبى ﷺ : « **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يُخْسَفَانَ لموت أحد ولا لحياته** »(٢) ، وإنما يخوف الله بهما من يشاء من عباده ، لا كما يظن بعض الناس أنهما خُلقا تكريماً لأجله ، أو أن ما يلحق بهما من تغير تعظيماً أو مهابة له ، بل الجميع خلق لله رب العالمين .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد (٦٩٨٢) وبدء الخلق (٣٠٢٠) وأحمد فى المسند (١٩٣٧٥) .
(٢) متفق عليه : انظر صحيح مسلم فى كتاب الكسوف (٩٠١) .

الغلو فى الصالحين :

أصل الغلو فى كل شئ هو : مجاوزة حده الذى هو حده ، إما بالتساهل وإما بالتشدد ، وإما بالثناء وإما بالذم ، ومقصود الشيطان بعيد عن صراط الله المستقيم ، والصراط المستقيم هو الإسلام وهو القصد الحسن ، وهو الوسط بين التشدد والتساهل .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وأعظم الغلو فى الأولياء تسويتهم بالله رب العالمين ، إما فى المحبة وإما فى التعظيم ، ومنهم من يرفع الولى إلى درجة العالم بالأسرار ، المتصرف فى الأكوان استقلالاً أو واسطة .

زعم ابن الملقن فى (طبقات الأولياء ص ٩٨ ، ٩٩) عن أحمد الرفاعى أن رجلاً قال له : ما صفة الرجل المتمكن ؟ فقال : أن يعطى التصريف العام فى جميع الخلائق ، وعلامته أن يقول لبقايا هذه الأسماك قومى فاسعى فتقوم وتسعى . (انتهى) .

وهذا شرك عظيم ، وجهلة الصوفية يفرحون بذلك ، وهذا يؤول بالمريد إلى أن يخاف من الشيخ الممدوح ويحذر من غضبه كما يحذر المؤمنون من غضب الله تعالى ، أو يحبه ويطيعه بلا قيد ولا شرط كما يحب المؤمنون الله تعالى ويطيعونه ؛ وحين ذلك قد يغتر الشيخ المغلو فيه بنفسه ، ويصدق أنه كذلك فيتعالى ويطغى على المريدين ، ويستعبدهم لنفسه من دون الله رب العالمين .

وقد كان قوم نوح أول من فتحوا باب الغلو فى الصالحين ، حتى عبدوهم من دون الله تعالى ، وكانت بداية هذا الأمر فى صنع التماثيل تذكيراً بالخير ، حتى إذا هلك أولئك الذاكرون للخير جاءت الشياطين إلى

أبنائهم وأخبرتهم أن آباءهم كانوا يعبدون تلك التماثيل ؛ لتقربهم إلى الله تعالى فعبدوها من دون الله تعالى ، وهكذا ورثوها جيلاً بعد جيل حتى ورثها كفار قريش ، ثم ورثها الصوفية فى صورة القبور والمشاهد .

قال القرطبى فى التفسير : إنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ويتذكروا أعمالهم الصالحة ؛ فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ثم خلف من بعدهم خلفٌ جهلوا مرادهم فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . (انظر فتح المجيد ص ١٨٢) .

ودين الصوفية قائم على تقديس الشيوخ والغلو فيهم ، ورفعهم فوق المنزلة التى وضعهم الله تعالى فيها ، فهذا الشيخ الأمى الجاهل جعلوه قطباً يرعى الطير والإنسان والحيتان والحيوان ، وهذا الولى المجذوب جعلوه علماً ربانياً وهيكلاً صمدانياً .

ولقد قالوا وأنشدوا فى مدح رسول الله ﷺ ما هو منه برئ ، ومن ذلك ما قاله البوصيرى فى بردته إذ جعله منازعاً لله تعالى فى ربوبيته وألوهيته فقال :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وقد نهى النبى ﷺ عن هذا الغلو فى حقه وحذر منه أصحابه فكيف بغيره ؟ فقال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » (١)

(١) رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٢٦١) وأحمد فى المسند (١٥٥) والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٤) .

فقد حذر أن يرفع فوق المنزلة التي وضعه الله تعالى فيها ، وهي منزلة العبودية : فهي أشرف مقامات القرب من الله تعالى ، أما الغلو فهو : حال مذموم ، وهو باب عظيم من أبواب الهلاك يؤول بالمرء إلى البدع التعبدية ، أو البدع الاعتقادية ، أو يحمل المرء إلى الأمن من مكر الله تعالى ، اعتماد على شفاعة المغلو فيه وجاهه ، وهذا يفضي في النهاية إلى كفر بني آدم وخروجهم عن صراط الله المستقيم .

ومن الغلو في الصالحين تفضيل الأولياء على الأنبياء :

لقد تطور معتقد الغلو عند الصوفية درجة درجة ، حتى وصل إلى منحنى خطير يخرج عن حقيقة الدين وجلاله ، فقد زعموا أن الأولياء محفوظون كما أن الأنبياء معصومون .

يقول القشيري : **من شرط الولي أن يكون محفوظاً كما من شرط النبي أن يكون معصوماً** « انتهى » . والمعنيان ينتهيان إلى مقصود واحد ، ألا وهو رفع مكانة الأولياء إلى الأنبياء في فضيلة العصمة .

يقول الشيخ تقي الدين الهلالي – رحمه الله – في الهدية الهادية (ص/٤٤) : لقد أخطأ القشيري خطأً فاحشاً في هذا ، ولا فرق في المعنى بين قولنا محفوظ وقولنا معصوم ، فقد أراد أن يثبت العصمة فأبدل لفظاً بلفظ ، والعبرة ليست بالألفاظ ، وإنما هي بالمعاني ، ولو قال : إن المؤمن في وقت ارتكابه المعصية ينقص إيمانه ، وتنقص ولايته لله ، لأن ولاية العبد لله تكون على قدر إيمانه وتقواه لأصاب ، ثم قال : وخلاصة القول أن كل مؤمن ولي لله ، وكل كافر عدو لله ، ومن لم يكن ولياً لله فهو عدو الله . (انتهى) .

ثم زعم ابن عربي الحاتمي أن مقام الأنبياء دون مقام الأولياء ، وأن الولاية أعظم من النبوة وقال :

مــقـــــام النبـــوة فى برزخ فـــويق الرســـول ودون الولى

وهذا والذى قبله ضلال مبين وإلحاد ساقط ، ورثه ابن عربى وأمثاله من مخلفات الفلاسفة ، الذين يجعلون الفيلسوف أعلى من النبى ، ويقولون : إن النبى معلم للعوام والفلاسفة معلمون للأذكياء .

قال ابن تيمية فى (الفتاوى ١٧٢/٤) : فهذا كما ترى فى حال هذا الرجل ، وتعظيم بعض المتأخرين له ، وصرح الغزالى بأن قتل من ادعى أن رتبة الولاية أعلى من رتبة النبوة أحب إليه من قتل مائة كافر ، لأن ضرر هذا فى الدين أعظم . (انتهى) .

ويشترك الشيعة مع غلاة الصوفية والفلاسفة فى نفس المعتقد إذ يقولون : «إن الأولياء أرفع مكاناً من الأنبياء » ، فالجميع فرحوا بما عندهم من العلم واشتركو فى مقولة : « خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحلة » .

وقد صرح الخمينى بما هو أشد مَن ذلك فقد زعم أن للأولياء ولاية تكوينية على كل ذرات الكون.

فقال فى كتاب الحكومة الإسلامية (ص ٥٢) : **إن للأئمة مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون .**

وقال : وأن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسل . « انتهى » .

والشيعة ألأم فرقة على وجه الأرض وأخبث طائفة انتسبت لدين فقد كفَّروا صحابة رسول الله ﷺ وعادوا أولياء الله تعالى ، وقذفوا عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – والتى نزلت براءتها من فوق سبع سموات ، وقد توعد الله تعالى من عادى أولياءه بالحرب كما نص على ذلك الحديث ، فالحرب عليهم

قائمة إلى قيام الساعة فهم الذين ينكرون صفات الله تعالى، وينكرون رؤية الله تعالى فى الآخرة ، ويكذبون بالقدر ويقولون بالبداء والرجعة والتقية وزواج المتعة وتحريف القرآن ويستغيثون بالأموات والغائبين فلا أبقاهم الله ولا نصرهم الله ، فالحذر الحذر من التقريب معهم ، فمن تقرب إليهم فهو مخذول ، ومن نصرهم فهو محروم ؛ فهم حرب على الإسلام وأهله ، اسأل التتار من عاونهم على بغداد فقتلوا منهم ثمانمائة ألف مسلم فى شهر ؟ ، واسأل الصليبيين من عاونهم على الشام وفلسطين ، واسأل كل أمة رجت الإسلام على منهاج السنة كيف ضل سعيها وخاب أمرها لما تعاونت مع الشيعة الروافض .

من الولي ؟ :.

الـولـى : هو النصير ، والمولى هو الناصر والمحب ، وميزان الولاية هو : الإيمان والتقوى ، قال تعالى : ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾** ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] ومن كان هذا شأنه لم يكن له أن يزكى نفسه بزعم الولاية فهذا غرور ، إنما يحتقر نفسه ويزدريها ويمقتها فى جنب الله تعالى ، حتى لا يرى لنفسه قبولاً ولا رضا بنظره إلى تقصيره .

قال العلامة العثيمين – رحمه الله تعالى – فى شرح كشف الشبهات (ص/١٣٦) : وفى دعواه الولاية تزكية لنفسه ، وذلك ينافى تقوى الله عز وجل ، فإذا ادعى أنه من أولياء الله فقد زكى نفسه ، وحينئذ يكون واقعاً فى معصية ، وفيما نهاه الله عنه ، هذا ينافى التقوى ، فأولياء الله لا يزكون أنفسهم بمثل هذه الشهادة ، وإنما هم يؤمنون بالله ويتقونه ، ويقومون بطاعته سبحانه وتعالى على الوجه الأكمل ، ولا يغرون الناس ويخدعونهم بهذه الدعوى ، حتى يضلوهم عن سبيل الله . (انتهى) .

فإذا كان زعمهم الولاية تزكية للنفس ومعصية لله تعالى فما بالك حين يزعمون أنهم أعظم من الأنبياء ... هذا من التطاول .

يونس بن متى والأولياء :

وقد حذر النبى ﷺ أن يرفع أحد نفسه على نبى الله تعالى يونس بن متى عليه السلام ، وإن قُدِّر أنه أخطأ ، فلا يمكن لأحد أن يرتقى إلى منزلته لأنه نبى . روى مسلم وغيره عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « **ما ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس** » [(١)] .

قال النووى فى (شرح مسلم ١٤٥/٨) : قال العلماء وما جرى ليونس عليه السلام لم يحطه من النبوة مثقال ذرة ، وخُصَّ يونس بالذكر لما ذكرناه من ذكره فى القرآن بما ذكر ، وأما قوله ﷺ : « **ما ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس** » فالضمير فى أنا قيل يعود إلى النبى ﷺ ، وقيل يعود إلى القائل أى لا يقول بعض الجاهلين من المجتهدين فى عبادة أو علم أو غير ذلك من الفضائل ، فإنه لو بلغ من الفضائل ما بلغ لم يبلغ درجة النبوة ، ويؤيد هذا التأويل الرواية التى قبله وهى قوله ﷺ : « **لا ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى** » والله أعلم . (انتهى) .

فانظر إلى التطاول الذى يغشى غلاة الصوفية فى رفع أوليائهم على الأنبياء بهذه الحجج الواهية وتلك المجاهدات الخاوية ، بينما تجد النبى ﷺ وهو سيد البشر يتواضع مع نبى الله يونس عليه السلام حتى يكون ذلك حجة على كل عبد ألا يرفع نفسه على مقام الأنبياء وإن بلغ من العبادة ما بلغ .

فالتواضع خصلة شريفة بين عوام المؤمنين فكيف مع مقام النبيين ، وإن

---

(١) متفق عليه : رواه مسلم فى كتاب الفضائل (٢٣٧٦) .

قُدِّر أن أصاب نبيٌّ ذنباً فإن مقامه أعلى وأرفع من كل ولى ، مهما كانت عبادته ومجاهداته وهجرانه للذنوب ، وذلك لأن الله تعالى يتوب عليه ويجتبيه ، وهو لا يبقى على ذنبه ولا يصر عليه .

قال المباركفورى فى (التحفة ٤٦٢/١) : وخُصَّ يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع فى نفسه تنقيص له فبالغ فى ذكر فضله لسد هذه الذريعة . (انتهى) .

الصدِّيق أعظم الأولياء على الإطلاق :

روى أبو داود عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : كنا نقول ورسول الله ﷺ حى « **أفضل أمة النبى ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم أجمعين** » (١) .

فالصدِّيق أبو بكر أعظم الأولياء على الإطلاق ، لا يسبقه أحد من الأمم غير الأنبياء صلوات الله عليهم ، لا يسبقه الحكيم الترمذى ولا ابن عربى ولا التيجانى ولا غيرهم ، وهو مع ذلك لم يقل إنه موضع اللبنة الفضية ، ولا اللبنة الذهبية .

ولم يقل إنه خاتم الأولياء ، ولم يقل إنه المحدث المعصوم أو الملهم المحفوظ ، ولا أنه يسعه الخروج على شريعة محمد كما وسع الخضر الخروج على شريعة موسى كما يقولون بل إنه كان يقول : أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا قلتُ فى كتاب الله تعالى بلا علم !! ولم يقل إن رجلى على رقبة كل ولي من لدن آدم حتى النفخ فى الصور ،كما قال التيجانى ، بل إنه كان إذا مدحه إنسان بكى ، وقال قولته الشهيرة : **اللهم إنك أعلم بنفسى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى من غيرى ، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ، واغفر**

---

(١) رواه البخارى فى المناقب وأحمد ى المسند وهذه رواية أبى داود فى السُنة (٤٦٢٨) .

لى ما لا يعلمون ، واجعلنى خيراً مما يظنون » . (انتهى) .

بقاء مقام الولاية فى المؤمنين إلى قيام ساعتهم :

لا يُعْرفُ شىء فى الكتاب ولا فى السُنة يسمى خاتم الأولياء ، فالأولياء باقون إلى يوم القيامة ، حتى تنتهى ساعتهم ، وآخرهم هو آخر من يموت منهم ، ولا يشترط أن يكون أفضلهم ، وليس هناك نص على ذلك كما بين أهل العلم .

روى مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : **« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »** وليس فى حديث قتيبة وهم كذلك [(١)] .

---

(١) متفق عليه : رواه مسلم فى الإمارة (١٩٢٠) وعند الترمذى : « حتى تقوم الساعة » ، ورواه الترمذى فى الفتن (٢١٩٢) انظر صحيح الترمذى (٢٣٤٤ ، ٢٣٠١) .

التشفع بالأموات

الشفاعة : نوع من التوسط بالكلام المحبوب إلى المتشفع لديه لينال به الشافع للمشفوع له أمراً مرغوباً ، أو يكشف به عنه أمراً مكروهاً .

والشفع فى اللغة خلاف الوتر وهو الزوج ، وقد أجمع أهل السُنة على أن الشفاعة يوم القيامة حق لا ريب فيه ، خاصة شفاعة النبى ﷺ لأهل الكبائر من أمته ، وذلك خلافاً للمشركين واليهود والنصارى ، الذين يجعلونها كشفاعات الناس فيما بينهم فى الدنيا ، وخلافاً للمعتزلة والخوارج وغيرهم من أهل البدع والضلال ، الذين ينكرون شفاعة النبى ﷺ فى العصاة من أمته الذين كُتب لهم النار أن يخرجوا منها ، ومن الأدلة على ثبوت الشفاعة فى القرآن قوله تعالى : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** (١٠٩) ﴾ [طه : ١٠٩] ، وقال تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** (٢٦) ﴾ [النجم : ٢٦] ، وفى الصحيح عن أنس عن النبى ﷺ قال : « **كل نبى سأل سؤلاً أو قال : لكل نبى دعوة قد دعا بها فاستجيب ، فجعلتُ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة** » [(١)] . قال أبو بكر الإسماعيلى فى (اعتقاد أئمة الحديث ص٦٨) ، يقولون : إن الله يخرج من النار قوماً من أهل التوحيد بشفاعة الشافعين ، وأن الشفاعة حق ، والحوض حق ، والمعاد حق ، والحساب حق . (انتهى) .

والشفاعة فى الآخرة ليست كشفاعات الناس فى الدنيا ، لما بينهم من

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى فى الدعوات (٥٩٤٦) .

مصالح أو حوائج أو محبة أو قوة متسلطة ، كما يظن بعض الصوفية والمشركين واليهود والنصارى ، فليس لله تعالى شريك فى ملكه يكرهه على فعل شىء أو ترك شىء ، وليس لأحد حق على الله تعالى إلا ما أوجبه الله تعالى على نفسه ، إنما الشفاعة فى الآخرة - بإذن الله تعالى ورضاه - بحد معلوم ، يحد الله تعالى لمن يشفع ، فلا يستطيع أحد أن يتعدى ما حد له الله تعالى .

والشفاعة من قدر الله تعالى ، وهى لا تبطل حقاً ولا تحق باطلاً ، ينظمها الله تعالى بعلم وحكمة ، فالله تعالى يريد المغفرة للعبد قدراً ، ولكنه يجعل لها سبباً شرعياً تُنَالُ به ، فيغفر لصاحبها ويترضى عنه ، ثم يظهر كرامة الشافع وعلو منزلته ، فالله تعالى قادر على أن يدخل الناس الجنة ويجرهم من النار بلا شفاعة .

الشفاعة المنفية : شفاعة الكفار والأصنام :

وهذه شفاعة شركية منفية لا وجود لها ، ومكمن الضلال فيها أمران :

الأول : فى مجرد اتخاذ الشفعاء من دون الله تعالى .

الثانى : فى عبادة الشفعاء من دون الله تعالى .

أما المقصد الأول :

فإن مجرد تسمية فلان شفيعاً من دون الله أو بغير إذن من الله تعالى يعتبر نوعاً من الشرك ، ونقضاً فى ربوبية الله تعالى وصفاته ، لأن معناه أن الله تعالى لا يعلم ولا يقدر ولا يتصرف ولا يسمع ولا يستجيب ولا يتحنن على خلقه إلا بالشفيع ، وهذا هو عين الشرك ، فالله تعالى واحد أحد فرد وتر صمد لا يشفعه أحد ، فالأمر كله له ، والخلق كله له ، ولا يكون شىء إلا بإذنه ، أما البشر مع البشر فهذا يجوز فيما بينهم ، فإن الشافع بين المخلوقين يشفع للطالب وللطلب حتى يصير فاعلاً للمطلوب ، وذلك لحاجة أو لمحبة أو لخوف ، وهذا لا يجوز مع الله تعالى إلا إذا كان الشافع شريكاً فى الملك ، والله تعالى لا شريك له ولا

معاون له ولا وزير له ، قال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٤٤ ﴾ [الزمر : ٤٣] .

فالأسباب التى يقع من أجلها الشرك أن يكونوا مالكين لشىء من الملك أو الأمر ، أو لهم نصيب فى شىء ، أو يكونوا وزراء أو معاونين ، أو لهم إذن من الله تعالى بالشفاعة ، وهذه كلها ليست لهم مع الله تعالى ، فكيف مع عدم وجودها يكونون شفعاء ؟ .

إن هذه الأصنام لم تدفع عمن تَشَفَّعَ بها من قبل بأس الله تعالى ونقمته ، فكيف يتخذونها للشفاعة ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢٨ ﴾ [الأحقاف : ٢٨] ، فهذا من أعظم الأدلة الحسية أن هؤلاء ليسوا شفعاء عند الله تعالى .

أما المقصد الثانى :

فهو فى عبادتهم هؤلاء الشفعاء بالخوف والمحبة والرجاء وتقديم الذبائح والنذور والقرابين ، ظانين أن ذلك سبب ينال به الشفاعة عند الله تعالى ، وهذا غير صحيح ، فلم يأمر الله تعالى بعبادتهم ، ولم يجعل عبادتهم سبباً لنيل الشفاعة عنده .

قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨ ﴾ [يونس : ١٨] ، فنفى الشفاعة عن هؤلاء يستلزم بالقطع نفى استحقاقهم العبادة ، قال سبحانه : ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٣] .

شفاعة الأموات

طلب الشفاعة والدعاء من الأموات شرك أكبر

يزعم الصوفية أن الأموات من الأقطاب والنجباء يشفعون لهم عند الله تعالى ، ويقولون إن أولياءهم فى ابتهال ودعاء دائم إلى الله تعالى ، كى يرفع عنهم الكربات ، ويجلب لهم الخيرات ؛ بسبب ما بينهم من العهود والمواثيق ، ولذلك فهم يتوجهون إليهم ويسألونهم الشفاعة والدعاء .

يقول الشيخ محمد زكى إبراهيم – من أئمة التصوف فى مصر – فى كتابه أبجدية التصوف الإسلامى بعض ما له وما عليه (ص ٤٩) : هذا وإن كان يطلب المدد من شيخ مُوَفٍّ ، فهو يطلب من رُوحه التى يعتقد أنها تحيا برزخياً فى مقام القرب من الحق ، أن تتوجه شفاعة إلى الله فى شأنه بما يهمه ، فالأرواح فى عالمها تحيا حياة غير مقيدة بحدود زمان أو مكان ، فالقيود والحدود نتيجة الحياة البشرية ، وأما الأرواح فهى فى عالم الانطلاق . (انتهى) .

وهذا هو الذى يبرر به الصوفية طلب الشفاعة من الأموات ، وهو فى الحقيقة عدول عن نداء الله تعالى إلى نداء الأموات ، وصرف وجوه الناس عن التعلق بالله تعالى إلى التعلق بالأموات ، وهذا من أعظم الشرك : ففى اتخاذ الوسائط تسوية لله تعالى بخلقه ، أى بهؤلاء الذين هم فى حاجة إلى من يرشدهم إلى الحق والصواب ، ويقرب لهم الأمور ، ويحننهم على المضطرين والمحتاجين ، والله تعالى غنى عن هؤلاء جميعاً ، وهذه الآية تنفى ذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ [البقرة : ١٨٦] . فأين هى شفاعة الأموات ؟ ، وأين هى أرواحهم المطلقة ؟ .

لم يثبت فى الكتاب ولا فى السُّنة أن الله تعالى أذن فى ذلك لأحد ، أو أن الرسول ﷺ أرشد إليه ، أو أن الصحابة فعلوا ذلك من بعده .

وأهل السُّنة ينكرون على الصوفية وعباد القبور طلب الشفاعة والدعاء من الأموات والملائكة والغائبين ، ويرون أن مجرد الطلب من غير الله تعالى عبادة شركية ، ليس عليها دليل من الكتاب والسُّنة الصحيحة . فقد أمرنا الله تعالى بإخلاص العبادة له وحده ، ونهانا عن دعاء الأموات والغائبين ؛ لأنه شرك فى العبادة والطاعة ، والله تعالى لا يقبل غير التوحيد ، قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] ، فلماذا لا يتوجه هؤلاء إلى الله تعالى مباشرة ، يسألونه شفاعة النبى ﷺ إلا أن قلوبهم جُبِلَتْ على ممارسة الشرك والميل له ، والنفور من التوحيد والموحدين .

وكل طلب أو نداء للأموات أو الغائبين يرجى منه جلب منفعة أو دفع مضرة فهو عبادة لهم وتعلق بهم ، وهذا التعلق وهذا الدعاء من جنس دعاء المسألة الذى بينه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) ﴾ [الأعراف : ٥٥] ، ومن دعا غير الله تعالى دعاء ذكر أو دعاء مسألة فقد وقع فى الشرك الأكبر ؛ لأنه فَعَلَ ما ينافى الإخلاص فى العبادة التى لا تكون إلا لله تعالى ، وإن هذا المَدْعُوَّ من دون الله تعالى ميتاً كان أو غائباً لن يسمع دعاء من دعاه فى جلب منفعة أو فى دفع مضرة ، ولن يستجيب له فى ذلك أبداً ، وذلك لأن هؤلاء الأموات عباد مسخرون فى تدبير الله تعالى لهم .

قال تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾[فاطر : ١٤] ،

فمن دعاهم فقد بالغ فى الضلال وتفنن فى الشرك والطغيان .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (١٩٤) ﴾ [الأعراف : ١٩٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** (٥) **وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** (٦) ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] .

يقول الشيخ العثيمين – رحمه الله تعالى – فى (شرح كشف الشبهات ص ٧١) : ثم إن هذا المشرك المشبه ليس يريد رسول الله ﷺ أن يشفع له ولو كان يريد ذلك لقال : اللهم شفع في نبيك محمد ﷺ ، ولكنه يدعو الرسول مباشرة ، ودعاء غير الله شرك أكبر مخرج من الملة ، فكيف يريد هذا الرجل الذى يدعو مع الله غيره أن يشفع له أحد عند الله سبحانه وتعالى؟ . (انتهى) .

وقد بين ابن تيمية – رحمه الله تعالى – أن طلب الدعاء من الأموات والغائبين من أعظم الشرك الذى نهى الله تعالى عنه ، وأوجب على فاعله الخلود فى النار . وهذا خلافاً لمن ظن أنه دون ذلك من بعض المعاصرين .

فقال فى (الفتاوى ١٥٨/١) : وقد يخاطبون الميت عند قبره : سَلْ لى ربك ، أو يخاطبون الحى وهو غائب ، كما يخاطبونه لو كان حاضراً حياً ، وينشدون قصائد ، يقول أحدهم فيها : يا سيد فلان أنا فى حسبك ؛ أنا فى جورك ، اشفع لى إلى الله ، سَلْ الله لنا أن ينصرنا على عدونا ، سَلْ الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا وكذا ، فَسَلْ الله أن يكشف هذه الكربة ، أو يقول أحدهم : سَلْ الله أن يغفر لى . ومنهم من يتأول قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** (٦٤) ﴾ [النساء : ٦٤] ويقولون : إذا طلبنا منه

الاستغفار بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة ، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين ، فإن أحداً منهم لم يطلب من النبى ﷺ بعد موته أن يشفع له ولا سأله شيئاً ، ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين فى كتبهم ، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخرى الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضي الله عنه سيأتى ذكرها وبسط الكلام عليها إن شاء الله تعالى . **فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفى مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم هو من أعظم أنواع الشرك الموجود فى المشركين من غير أهل الكتاب ، وفى مبتدعة أهل الكتاب والسنة الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾** [الشورى : ٢١] .

فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفى مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم ، والاستشفاع بهم فى هذه الحال ، ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم هو من الدين الذى لم يشرعه الله ، ولا ابتعث به رسولاً ، ولا أنزل به كتاباً ، وليس هو واجباً ولا مستحباً باتفاق المسلمين ، ولا فَعَلَهُ أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا أَمَرَ به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس ممن له عبادة وزهد ، ويذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان . (انتهى) .

الرد على قولهم: النبى ﷺ أعطى الشفاعة وأنا أطلبها ممن أعطاه الله ؟ :

أجاب على هذا السؤال شيخ الإسلام العلامة المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - فى (كشف الشبهات) فقال : فالجواب : أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن ذلك فقال : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن : ١٨] فإذا كنت تدعو الله أن يُشفِّعَ نبيه فيك

فَأَطعْهُ فى قوله : ﴿ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) ﴾ ، وأيضاً فإن الشفاعة أعطيها غير النبىﷺ فصح أن الملائكة يشفعون ، والأولياء يشفعون، والأفراط يشفعون ، أتقول إن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ؟ فإن قلت هذا ، رجعت إلى عبادة الصالحين ، التى ذكر الله فى كتابه ، وإن قلت لا ، بَطَلَ قولك : أعطاه الشفاعة وأنا أطلبها مما أعطاه الله . (شرح كشف الشبهات للعثيمين ص ٧٠) .

وقال العلامة العثيمين فى (شرك كشف الشبهات ص ٧٠ ، ٧١) : فإن قال أىْ المشرك الذى يدعو رسول الله ﷺ : إن الله أعطى محمداً ﷺ الشفاعة فأنا أطلبها منه . **فالجواب : من ثلاثة أوجه** :

الأول : أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك أن تُشرك به فى دعائه فقال : ﴿ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) ﴾ [الجن : ١٨] .

الثانى : أن الله سبحانه وتعالى أعطاه الشفاعة ولكنه ﷺ لا يشفع إلا بإذن الله ، ولا يشفع إلا لمن ارتضاه الله ، ومن كان مشركاً فإن الله لا يرتضيه فلا يأذن له أن يشفع له كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

الثالث: أن الله تعالى أعطى الشفاعة غير محمد ﷺ فالملائكة يشفعون ، والأفراط يشفعون ، والأولياء يشفعون ، فقل له : هل تطلب الشفاعة من كل هؤلاء ؟ فإن قال : لا . فقد خصم ، وبطل قوله ، وإن قال : نعم . رجع إلى القول بعبادة الصالحين ، ثم إن هذا المشرك المشبه ليس يريد رسول الله ﷺ أن يشفع له ، ولو كان يريد ذلك لقال : اللهم شَفِّعْ فيَّ نبيك محمد ﷺ ، ولكنه يدعو الرسول مباشرة ، ودعاء غير الله شرك أكبر مخرج من الملة ، فكيف يريد هذا الرجل الذى يدعو مع الله غيره أن يشفع له أحد عند الله سبحانه وتعالى . (انتهى) .

وهنا سؤال مهم :

لماذا كان طلب الدعاء من الأموات من الشرك الأكبر وليس مجرد ذريعة إليه فقط ؟ .

والجواب : أن ذلك يرجع إلى ثلاثة أمور :

[١] أن مجرد طلب الدعاء من الأموات والغائب نداء لغير الله ، وهذا النداء عبادة واستعانة واستغاثة بالميت ، وتلك الاستغاثة تماثل القرابين التى كان يقدمها كفار قريش لآلهتهم ، كالذبح والنذر والاستعاذة وغيرها ، يرجون من ذلك أن يقربوهم إلى الله تعالى زلفى ، كما يرجو طالب الدعاء من الميت والغائب أن يقربه إلى الله زلفى ، وهذا المرجو المدعو مسئول فى الحقيقة لا مسئول به ، كما يظن هؤلاء ، ولو كان مسئولاً به لقال الداعى : اللهم إنا نسألك بفلان ، وهناك فرق بين المدعو والمدعو به والمسئول والمسئول به ، وقد كان كفار قريش يسألون آلهتهم مباشرة - كهؤلاء الذين يسألون الأموات - وإن كان يرجون الزلفى بهم إلى الله - كهؤلاء الذين يرجون الزلفى - ولم يجعل ذلك الفعل منهم شركاً أصغر ، بل هو أعظم أنواع الشرك والكفر لقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾ [الزمر : ٣] ، فهذا ليس مجرد سبب كما يظن البعض ، بل هو طلب مباشر من غير الله ، ولو كان مجرد سبب لكان الأصل فيه التوجه إلى الله تعالى وحده ، وكان السبب متضمناً له .

[٢] أن الغائب لا يسمع نداء من يدعوه ، والداعى يعتقد فى طلب الدعاء منه أن يسمعه ، وهذا من اختصاص الله تعالى ، فهذا شرك من جهة الصفات ، ذلك لأن الداعى أعطى صفة السمع المطلق والإجابة بالغيب لغير الله تعالى ، ومن ظن فى غير الله ما هو من اختصاص الله تعالى وحده فهو مشرك شركاً أكبر .

[٣] أيضاً فالميت والغائب لا يقدران على نهى من ناداهما أو استغاث أو سألهما شيئاً ، ولو كان حاضرين لمنعا من وقوع ذلك ، فدل ذلك على أنهما يعجزان عن إجابة دعاء من يدعوهما بالغيب ، ولا ضلال أشد من ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ ﴾ [الأحقاف : ٥] .

ومن هنا يتبين خطأ من قال : إن طلب الدعاء من الأموات والغائبين ذريعة إلى الشرك فقط والصحيح أن ذلك الفعل شرك أكبر من جهة ، وذريعة إلى غيره من الشرك الأكبر من جهة أخرى ، فقد يكون الشيء شركاً من وجه ، وشركاً وذريعة إليه معاً من وجه أخر .

وما تقدم من فتوى شيخ الإسلام السابقة كان أجمل ما ذكر عنه فى هذا الموضوع إذ جمع جميع أنواع المخاطبات التى توجه إلى الميت سواء التى ذكرت بصيغة الاستغاثة المباشرة أو الاستغاثة لطلب الدعاء ، وجعل ذلك كله من أعظم أنواع الشرك كما تبين .

ويؤيد ذلك ما تقدم ذكره من كلام الشيخ العثيمين والشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمهما الله – .

تنبيه :

وقد أردت أن أنبه على ذلك تحذيراً من النظر إلى المشاكل من فتاوى العلماء بدون بحث أو تحقيق ، أو بدون رد إلى المحكم البين من القواعد الكلية للشريعة كما تقدم ، أو إلى أقوالهم القاطعة المعتمدة ، أو بدون الاعتناء بأقوال أهل العلم الموثوق بهم فى فهم النصوص على حقيقتها .

وقد اهتم علماء التوحيد بهذه المسألة ، ولا يمكن التجاوز عن ما انتهوا إليه

إلى غيرهم ، ممن لا يدانيهم فى المكانة ، ولا يجوز أيضاً التهوين من المسائل لمجرد اختيار بلا حجة ولا دليل .

وفى هذه المسألة ذم الشيخ محمد عبد الوهاب – رحمه الله تعالى – من زعم أن طلب الداء من الصالحين ليس من الشرك ، وقد علق العلامة العثيمين – رحمه الله تعالى – على قول القائل : أنا لا أشرك بالله ، حاشا وكلا ، ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك .

فقال العثيمين فى شرح كشف الشبهات (ص ٧٣) : إذ قال هذا المشرك : أنا لا أشرك بالله حاشا وكلا ، والالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك .

فجوابه : أن يقال له ألست تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ، وأن الله لا يغفر ، فما هذا الشرك ؟ فإنه سوف لا يدرى ولا يجيب بالصواب مادام يعتقد أن طلب الشفاعة من رسول الله ﷺ ليس بشرك ، فهو دليل على أنه لا يعرف الشرك الذى عظمه الله تعالى وقال فيه : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان : ١٣] (انتهى) .

قلت : فانظر كيف سماه مشركاً . وهذا الإطلاق لا يراد به الأصغر منه ، يوضح ذلك وصفه له بالعظيم ، وانظر كيف جعل الجاهل بهذا الحكم – وهو طلب الدعاء من الأموات – ممن لا يعرف الفرق بين الشرك والتوحيد . أظن الآن قد تبين لك الفارق فانتبه ولا تقف عند حدود الأخطاء أو الشبهات .

شبهات الصوفية في مسألة الشفاعة

أولاً : مسألة السماع :

الأصل فى الأموات أنهم لا يسمعون إلا إذا شاء الله تعالى أن يسمعهم سماعاً خاصاً ، وذلك بأن يرد عليهم أرواحهم ، فيسمعون كما فعل الله تعالى بكفار قريش فى قليب بدر وناداهم النبى ﷺ قائلاً لهم : « **هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً** ، قالوا يارسول الله : تنادى قوماً قد جيّفوا ، قال : **ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا** »[1] ، قال قتادة: « أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقيمة وحسرةً وندماً » (متفق عليه ، البخارى فى المغازى ٣٧٥٧) .

ويستفاد من هذا الحديث أن الصحابة كانوا لا يعتقدون بسماع أموات ، وهذا لا يتأتى لهم إلا بسابق بيان ، وأن ما حدث من سماع هؤلاء المشركين فهو أمر خاص ، وهو كما فسره قتادة رضي الله عنه .

وقد يسخر الله تعالى للأموات من يبلغهم سلام الأحياء كما هو الشأن فى النبى ﷺ ، فقد سخَّر الله تعالى له ملائكة تبلِّغه سلام من يُلقى عليه السلام فى أى مكان كان ، كما فى الحديث الذى رواه النسائى عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن لله ملائكة سيَّاحين فى الأرض يبلغونى من أُمتى السلام** »[2] .

فإن قلت كيف يسمع فالجواب : أن الله يسمعه بعد أن يرد عليه روحه كما هو الشأن فيمن يريد الله تعالى أن يسمعهم ، وهو يسمع من يشاء ، وذلك

---

(١) متفق عليه : رواه مسلم فى كتاب الجنة (٢٨٧٢) والبخارى فى المغازى (٣٨٠٢) وأحمد فى المسند (١٨٣) .

(٢) رواه النسائى فى السهو (١٢٨٢) وأحمد فى المسند (٣٦٥٧) والدارمى (٢٧٧٤) ، انظر صحيح الترمذى (٣٨٥٢) .

لما رواه أحمد وأبو داود عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ما من أحدٍ يُسلم عليّ إلا ردَّ الله عليّ روحي حتى أردَّ عليه السلام** » (رواه أبو داود فى المناسك ٢٠٤١ وأحمد فى المسند ١٠٤٣٤ ، صحيح أبى داود ١٧٩٥) .

وإذا ثبت أو قُدِّر أن الميت يسمع مخاطبة الحى كما فى قوله ﷺ : « **إن الميت إذا وُضع فى قبره إنه ليسمعُ خفق نعالهم إذا انصرفوا** » (١) ، فهذا مقيد بهذا الوقت ، أما زعم الصوفية أن الأموات يسمعون مناجاة الأحياء لهم والمستغيثين بهم فهذا كذب على الله تعالى .

فإن الموتى لا يسمعون هذا الشرك أبداً ، ولا يستجيبون له أبداً ، ولا يعرفون أن هناك أحداً ينادينهم أو يتوسل بهم ويستشفع بهم كما يزعم هؤلاء ، وهذه ثلاثة أدلة على ذلك :

١ – قال تعالى: ﴿ **إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)** ﴾[فاطر : ١٤].

٢ – وقال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)** ﴾ [يونس : ٢٨ ، ٢٩] .

٣ – وروى البخارى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : « **ألا وإنه يُجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يارب أصيحابي فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول : كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ**

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى فى الجنائز (١٢٧٣) ومسلم فى كتاب الجنة (٢٨٧٠) .

فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧] ، **فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مُرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم »** (١) .

فالآيتان والحديث على أن الأنبياء والصالحين لا يعرفون شيئاً مما أحدثه الناس بعد موتهم ولا يسمعون ، فالآية الأولى تقول : ﴿ **إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ** ﴾ والآية الثانية تقول : ﴿ **إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ** ﴾ يعنى ما أمرناكم بعبادتنا ودعائنا والله يشهد على ذلك ، وما كنا نعلم أنكم تتوسلون بنا أو تستشفعون بنا أو تستغيثون بنا ، والحديث يؤكد هذا المفهوم فى قوله ﷺ : « **إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك** » ، ولم يكن هناك مُحدثٌ فى الدين أعظم من دعاء النبى ﷺ بعد موته والاستشفاع به والاستغاثة به وهو فى قبره .

فالشاهد : أن الوحى الذى أخبر أن الأموات يسمعون خفق النعال هو الذى أخبر أنهم لا يسمعون استغاثة المستغيثين ولا نداءهم ، وذلك حتى يلجأ العباد إلى الله تعالى وحده ، ولا يلجأون إلى غيره .

وقد بيَّن النبى ﷺ فى حديث القُليب أن الموتى لا يستجيبون فقال : « **ولكنهم لا يستطيعون أن يُجيبوا** » فالمَيت سواء سمع أم لم يسمع ، فإن ذلك لا يترتب عليه شيء ، فلا هو يأتمر ولا ينتهى ولا يمتثل ولا يستجيب لمن يدعوه ، فالطلب منهم لا قيمة له ، والناس يقولون عمن يسمع ولا يأتمر ولا ينتهى :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادى

فما فائدة النداء وهو على كل حال لا يجدى ولا يفيد ، فى الحقيقة إنه نوع من الجنون .

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٣٤٩) ومسلم فى كتاب الجنة (٢٨٦٠) .

الشبهة الثانية : التفسير الفاسد لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء : ٦٤] [(١)] .

يزعم الصوفية أن هذه الآية دليل على مشروعية طلب الدعاء ، والشفاعة من الأموات ويستدلون على ذلك بمنام العتبى ، وفيه أنه رأى أعرابياً يدعو بهذه الآية عند قبر النبى ﷺ فرأى النبى يخبره مناماً أن الله قد غفر للأعرابى ، وهذا الذى رآه العتبى لا يثبت فى دين الإسلام ولا يتوافق مع أصوله .

يقول ابن تيمية تعليقاً على منام العتبى فى (الفتاوى ١/٢٤١) : وأيضاً فإن طلب شفاعته ودعاءه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعاً عند أحد من أئمة المسلمين ، ولا ذَكَرَ هذا أحد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء ، وإنما ذكر هذا بعض المتأخرين ، ذكروا حكاية عن العتبى أنه رأى أعرابياً أتى قبر النبى ﷺ وقرأ هذه الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء : ٦٤] ، وأنه رأى فى المنام أن الله غفر له ، وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين ، الذين يفتى الناس بأقوالهم ، ومن ذكرها لم يذكر عليها دليلاً شرعياً ، ومعلوم أنه لو كان طلب دعاءه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعاً لكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أعلم بذلك ، وأسبق إليه من غيرهم ، ولكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك ، وما أحسن ما قال مالك : « **لا يُصلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أصْلَحَ أوّلَها** » ، قال : « **ولم يبلغنى عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك** » فمثل هذا الإمام – يقصد

---

(١) **فائدة مهمة**: هذه الآية من أعظم الأدلة على بطلان دعاء الغائب وذلك لأن الله تعالى بين في شرط قبوله دعائه ﷺ لهم أن يحضروا إليه وأن يقفوا بين يديه فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾ وهذا يحتج به على الصوفية الذين يجوزون دعاء الغائب بحجج موضوعة باطلة.

العتبى – كيف يشرع ديناً لم ينقل عن أحد من السلف ، ويأمر الأمة أن يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار بعد موت الأنبياء والصالحين منهم عند قبورهم ، وهو أمر لم يفعله أحد من سلف الأمة . (انتهى) .

ومن جهة أخرى فهذه الآية تخص طائفة من العصاة والمذنبيين فى حياته ﷺ الذين كان ينبغى لهم أن يطلبوا منه الدعاء والاستغفار لهم وهو حى قادر بينهم وليس غائباً ولا ميتاً .

وهذه هى شروط طلب الدعاء من الغير كما بين علماء التوحيد أن يكون الشافع حيّاً ، قادراً ، حاضراً ، صالح العمل .

وهذه الواقعة لا يجوز تكرارها بعد وفاته ﷺ وذلك من عدة أوجه :

الوجه الأول :

أن ﴿ إذ ﴾ فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ﴾ [النساء : ٦٤] ظرف لما مضى من الزمان كقوله تعالى : ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝ إِذْ رَأَىٰ نَارًا** ﴾ [طه : ٩ ، ١٠] فهذا يدل على أن النار رُئِيَتْ وانقضى زمنها ، ولو كانت النار باقية إلى الآن لقال إذا رأى ناراً ، كذلك لو كان طلب الاستغفار من النبى ﷺ باقياً إلى الآن لقال : « ولـو أنهم إذا ظلموا » بدلاً من ﴿ إذ ﴾ ولكنها واقعة مضت وانتهت وانتهى زمنها ، وعليه فليس فى هذه الآية حجة للذين يفعلون ذلك بعد موته ﷺ .

الوجه الثانى :

أن إتيانه ﷺ بعد مماته غير متحقق ، إنما المتحقق إتيان قبره ، وقد نهى النبى ﷺ أن يتخذ قبره عيداً ، ودعا الله أن لا يجعل قبره من بعده وثناً يُعبد ، وقال : « **لا تجعلوا قبرى عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم** » [(١)] ،

---

(١) رواه أبو داود فى المناسك (٢٠٤٢) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٧٧) وأحمد فى المسند (٨٥٨٦) .

هذا هو المتحقق الثابت فالصحابة لم يكونوا يقفون على قبر النبي ﷺ يطلبون الشفاعة ، بالرغم مما مروا به من بلاء ومصائب ومحن .

الوجه الثالث :

أن الثابت عن الصحابة أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ الدعاء والشفاعة وهو حي ، قادر ، حاضر بينهم ، فمن دعا له النبي ﷺ وهو حي تحققت له الشفاعة ، ومن أتى بشروطها من التوحيد والإيمان الخالص تحققت له الشفاعة وإن لم يدرك دعاء النبي ﷺ له ، ولم يرشد النبي ﷺ أحداً إلى طلب الشفاعة من الأموات ؛ لما فيه من عظيم المفسدة والشرك ، وإلا لو كان فيه مصلحة كما يزعم الصوفية لما سكت عنه ، فما من خير إلا ودلنا عليه ، وما من شر إلا وحذرنا منه .

الوجه الرابع :

أن الميت لا يملك شيئاً ولا يتأثر بشيء ، ولا يستجيب لشيء ، ولا يتحرك له لقوله ﷺ : « **إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله** » [1] ، فهذا دليل عام صريح على ثبوت انقطاع التكليف عنه ؛ فكيف يرد ذلك بما لا يساويه ، أو بما يعارضه من الأقوال المتهافتة والآثار المكذوبه .

وقد بيّن النبي ﷺ بياناً شافياً أنه لا يستجيب لأحد ، ولا ينفع أحداً دعاه بعد موته وهو في قبره . روى البخاري عن القاسم بن محمد قال : قالت عائشة : « وارأساه ، فقال رسول الله ﷺ : **ذاك لو كان وأنا حيٌّ فأستغفر لك وأدعو لك** » [2] .

---

(١) رواه مسلم في الوصية (١٦٣١) والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) والنسائي في الوصايا (٣٦٥٣) وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠) وأحمد في المسند (٨٦٢٧) .

(٢) رواه البخاري في الأحكام (٦٧٩١) .

فقد قطع النبى ﷺ السبيل فى أمر التوجه إليه بعد موته بهذا الحديث حيث أن عائشة - رضى الله عنها اشتكت صداعاً فى رأسها ، فقالت : « وارأساه » فأجابها النبى ﷺ جواباً شافياً كافياً ، وفيه أنها لو ماتت وهو حى فلن تضر بشىء ، إذا كان هو ﷺ سيستغفر لها ويدعو لها ويكفنها ويصلى عليها ويدفنها وبدليل المقابلة بهذا المفهوم أنه إذا مات فلا يستطيع أن يفعل ذلك لانقطاع عمله ورفع التكليف عنه ، فلا يستطيع أن يستغفر لها ، ولا أن يدعو لها ، ولا أن يصلى عليها ، ولا أن يدفنها ، ولا أى شىء يستطيع أن يفعله .

وهذا الذى تتوافق عليه الأدلة كما فى تفسير قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، وذلك أن استغفاره ﷺ لهم وهو حى بركة وأمان ، وكذلك استغفارهم لأنفسهم ، وقد ذهب استغفار النبى ﷺ بموته ، وبقى استغفار الأحياء بعضهم لبعض . وفى هذه الآية علق الله تعالى رفع العذاب عن طائفة منهم بسبب بركة وجود النبى ﷺ بينهم وبسبب استغفارهم .

قال ابن عباس : إن الله جعل فى هذه الأمة أمانين ، لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم ، فأمان قبضه الله إليه ، وأمان بقى فيكم قوله : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال : ٣٣] . (انظر تفسير ابن كثير ٣٠٥/٢) .

فلا فائدة على الإطلاق من طلب الدعاء منه ﷺ بعد موته فلن يستجيب لأحد ولن ينفع أحداً حتى يأتى زمن الطلب يوم القيامة .

فاللهم ارزقنا شفاعة نبيك محمد ﷺ يوم القيامة . اللهم آمين .

الاستغاثة بالأموات والغائبين

الاستغاثة : هي إعلان التبرؤ من الحول والقوة ، أو الاستصراخ فى طلب النجاة ، وقد يخالطها نوع من الجزع أو الخوف ، وهى أخص من الدعاء ؛ وذلك لأن الدعاء قد يكون من المكروب وغيره .

والمسلم يستغيث بالله تعالى وحده فى كل أموره؛ لأنه الواحد القائم بذاته ، الذى لا يفنى ولا يزول ، الصمد الذى يقصده الخلائق جميعاً فى كل شدة ، ويستنصرون به على كل عدو . قال تعالى : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)** ﴾ [الأنفال : ٩] .

فالاستغاثة من آكد حقوق الله تعالى فى العبادة ، وقد كان هذا خلق النبى ﷺ فى كل حال ، لا يستغيث إلا بالله ، وقد أمر بذلك أصحابه وأتباعه على دينه ، أن يستغيثوا بالله تعالى فى كل ضيق واضطرار ، إما لدفع ما يضر أو لجلب ما ينفع ، سواء كان ذلك فى حياته أو بعد مماته ، أما فى حياته فقد قال ﷺ : « **إنه لا يستغاث بى إنما يستغاث بالله** » [(١)] ، وهذا يشمل الأمور التى يقدر عليها والأمور التى لا يقدر عليها ، ونهيه أن يستغاث به فيما يقدر عليه دليل على عظم تواضعه لله تعالى وجليل أدبه ﷺ ، أما أمره أن يستغاث بالله تعالى فمنه ما رواه ابن ماجه عن أبى أمامة الباهلى قال : قال ﷺ عن المسيح الدجـــال : « **وإن من فتنته أن معه جنَّةً وناراً ، فنارُه جنة ، وجنته نارٌ فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً كما**

---

(١) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/١٥٩) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث ، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق وهو فى الأدب فى باب القيام . (انتهى) .

كانت النار على إبراهيم » (١) ، فأمره ﷺ أن يستغاث بالله تعالى فى ذلك الوقت دليل على أنه فى قبره لا ينفع ولا يضر ولا يحتج نيابة عن أحد ولا يحفظ أحداً ولا يغيث أحداً ... ولذلك قال فى الصحيح : « **إن يخرجْ وأنا فيكم فأنا حجيجهُ دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مُسلمٍ** » (تقدم تخريجه) .

الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه :

أما الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه فهذا جائز ، ومن ذلك ما كان من استغاثة الإسرائيلى بموسى من بطش الفرعونى ، فأغاثه موسى عليه السلام ولم يسلمه له ولم يخذله . قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ** ﴾ [القصص : ١٥] .

ويقع تحت هذا النوع ما كان من عرض جبريل عليه السلام على نبى الله تعالى إبراهيم عليه السلام حين أُلقى فى النار أن يغيثه فقال له : « **حسبى الله ونعم الوكيل** » وفى ذلك دلالة على أن جبريل مأذون له من قبل الله تعالى أن يغيث إبراهيم عليه السلام ، وأن يوفى له ما يطلبه ، وجبريل حى ، قادر ، حاضر يستطيع أن يطفئ النار ويهلك القرية بطرفة جناحه ، فلو أن إبراهيم عليه السلام طلب منه شيئاً على مقتضى هذه القواعد فلا شىء فى ذلك (٢) .

---

(١) رواه ابن ماجه فى الفتن (٤٠٧٧) ، انظر صحيح الجامع (٧٨٧٥) .

(٢) ينتشر بين عوام الناس أن إبراهيم عليه السلام لما وضع فى النار قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة قال : « علمه بحالى يغنى عن سؤالى » مما دعا الكثير منهم أن يهجر دعاء الله تعالى وسؤاله ، وهذا مما لا يتناسب مع مقام العبودية ومما يغضب الله تعالى ، فإن الله تعالى يحب أن يسأل ويحب أن يستغاث به ، وهكذا كان الأنبياء يسألون الله تعالى ويستغيثون به ، فكيف يترفع هؤلاء عما كان عليه الأنبياء ؟ ومن أعجب العجب أن كثيراً من الصوفية يرددون هذه الكلمة ولا يسألون الله تعالى اكتفاءً بعلمه ، ومع ذلك يكثرون من سؤال الأموات والإلحاح عليهم والنواح عند قبورهم !! ، ومن الثابت أن هذا القول « علمه بحالى يغنى عن سؤالى » ليس من كلام إبراهيم عليه السلام إنما هو من الإسرائيليات الموضوعة المكذوبة عليه .

ومن جملة الاستغاثات الجائزة المأذون بها فيما يقدر عليه البشر استغاثة الناس يوم القيامة بالأنبياء ، ليشفعوا لهم عند الله تعالى ، فيتأخرون استحياء من أخطائهم ، ليتقدم خيرهم وأعظمهم كمالاً فى العبادة والطاعة والمغفرة نبى الله محمد ﷺ .

وهذا أمر ثابت فى الشريعة ، مأذون به من قبل الله تعالى ، وهم قادرون عليه ، حاضرون على مرأى ومسمع من الناس ، خلافاً للأموات والغائبين . ذلك كما روى البخارى عن عبد الله بن عمر- رضى الله عنهما – قال : قال النبى ﷺ : « **إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغَ العرقُ نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ** »[(١)] فكيف يقاس ذلك بما يفعله الصوفية عند قبور الأنبياء والأولياء ، يستغيثون بهم ويطلبون الشفاعة منهم ، والله تعالى لم يأذن بذلك ، وليس هؤلاء الأموات تحت إذن السائلين ، ولا يستجيبون لهم فيما يسألون ؟ .

استغاثات صوفية :

ويرى غلاة الصوفية أن الاستغاثة بالأولياء ترياق مجرب لا يخيب ، ومنهم من يرى أن الاستغاثة بالبدوى أعظم من الاستغاثة بالله تعالى ، ولذا فهم يجعلونه القطب المهاب الذى إذا دعى فى البر والبحر أجاب ، ويطلقون عليه

= قال الشيخ الألبانى – رحمه الله تعالى ورفع درجته فى الجنة – : فى السلسلة الضعيفة برقم (٢١) تعليقاً على : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » لا أصل له . أورده بعضهم من قول إبراهيم عليه السلام وهو من الإسرائيليات ولا أصل له فى المرفوع . ثم قال : فهذا الكلام المعزو لإبراهيم عليه السلام لا يصدر من مسلم يعرف منزلة الدعاء فى الإسلام فكيف يصدر ممن سمانا مسلمين ؟! ، ثم وجدت الحديث قد أورده ابن عراق فى تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة وقال . (٢٥٠/١) ابن تيمية : موضوع (انتهى) .

(١) رواه البخارى فى الزكاة (١٤٠٥) .

وعلى غيره لفظ الغياث أو المغيث ، وما هو بغياث ولا مغيث ، إنما الغياث والمغيث هو الله تعالى ، لأنه المالك الذى لا معاون له ، الآمر الذى لا وزير له ، القادر الذى لا شريك له . وقد يغتر بعض الجهلة بما قد يقع عند القبور من أحوال ، وما هى إلا استدراج ، أو معونة من الشياطين ، فإن الشياطين تعين المشركين لتصدهم عن التوحيد والإيمان .

والاستغاثة بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى شرك ظاهر بالله تعالى ؛ وذلك لأن المستغيث أعطى المستغاث به ما تفرد به الله تعالى من إجابة المضطرين فى الأمور المعنوية من الشدائد ، أو بالقوة والتأثير ، بينما المخلوق لا يغيث إلا فى الأمور الحسية الظاهرة ، التى يتوفر له من أسبابها ما يقدر عليه من كشف الضر أو جلب النفع . قال تعالى : ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)** ﴾ [النمل : ٦٢] .

هل الأموات يغيثون الأحياء ؟! :

يقول الصوفية : إن النبى ﷺ دعا إلى عبادة القبور وقال : « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور » . وهذه هى دعوتهم ، وهذا هو دينهم ، ولا عجب إذا كان أكثر الناس على غير منهاج النبوة ، لكن أن ينسب ذلك إلى سيد الموحدين فهذا من أعظم الكذب والافتراء عليه ﷺ ، وهو مناقض للأصول الكلية المحكمة ، التى تدعو إلى توحيد الله تعالى والإخلاص له .

قال شيخ الإسلام فى (الفتاوى ٣٥٦/١) : وإن كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبى ﷺ أنه قال : إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور ، أو فاستعينوا بأهل القبور ، فهذا الحديث كذب مفترى على النبى ﷺ بإجماع العارفين بحديثه ، ولم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد فى شىء من كتب الحديث المعتمدة . (انتهى) .

فالغائب لا يسمع ولا يقدر ، والميت انقطعت أعماله ، وسقط عنه التكليف، فلا يسمع ولا يمتثل ، فبأى شيء يستجيب هذا أو ذاك لمن دعاه ؟.

روى مسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة : قال رسول الله ﷺ : « **إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** » (١) .

قدرة الأرواح :

لا قدرة للأرواح أن تتصرف كيف تشاء ولا أن تعرف ما تشاء .

ومثال ذلك فى أرواح المؤمنين والمجاهدين فهى تسرح فى الجنة حيث شاءت كما فى الحديث ، وأرواح الكافرين فى سجين فى الأرض السلفى فى بئر يقال له بئر برهوت كما قال بعض السلف ، ولا تقدر تلك الأرواح أن تخبر الأحياء بشيء مما هم فيه ، ولو كانت تستطيع أن تخبر لعلمنا مستقرها ، وحكمنا عليها بالجنة أو بالنار ، ويدل على ذلك ما كان من شأن مؤمن آل يس لما قال : ﴿ **يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾** ﴾ [يس : ٢٦ ، ٢٧] . فقد أخبر أن قومه لا يعلمون من أمره شيئاً ولا يستطيع هو أن يعلمهم شيئاً .

ومن ذلك أيضاً ما كان من أمر المجاهدين فى سبيل الله تعالى لما قالوا وهم فى الجنة : « يا ليت إخواننا يعلمون بما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات على رسوله : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ** ﴾ آل عمران : ١٦٩] (٢) .

---

(١) رواه مسلم فى الوصية (١٦٣١) والترمذى فى الأحكام (١٣٧٦) والنسائى فى الوصايا (٣٦٥٣) وأبو داود فى الوصايا (٢٨٨٠) وأحمد فى المسند (٨٦٢٧) .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإمارة (١٨٨٧) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠١١) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٢٠) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٠١) وأحمد فى المسند (٢٣٨٤) والدارمى فى الجهاد (٢٤١٠) .

فالله سبحانه هو الوسيلة بين الأحياء والأموات ، إن شاء أعلم هؤلاء بخبر أولئك ، وإن لم يشأ لم يعلم هؤلاء ولا أولئك شيئاً عن الآخر . وعليه فهذه الأرواح غير مطلقة ولا متصرفة ، لأنها إن كانت عاجزة عن تبليغ مجرد خبر فهى عن تصريف المقادير أعجز ، فكيف يستغاث بها وكيف تجيب ؟ هذا عين الشرك . قال تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) ﴾ [الأعراف : ١٩١ - ١٩٤] .

إن هذه الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ علم على تكذيب الصوفية وعباد القبور ، وراية فى بيان عظم الوهم الذى يعيشون فيه ، فقد بينت الآية أنهم يستغيثون بعباد أموات ، وهؤلاء العباد أمثالهم لا يستجيبون لحركة ولا يتأثرون بدعاء ، وما المستغيث إلا : ﴿ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ [الرعد : ١٤] .

وإن جميع ما فيه الأموات وأرواحهم فى عالم البرزخ محض تقدير كونى من الله تعالى وحده ، إما تشريفاً ورفعاً ، وإما ازدراءً وخفضاً ، ولا يخضع شىء منه لرغبات الأحياء مهما كانوا . ولو قدر أنهم موكلون بشىء ، فالله تعالى لم يأمرنا أن نطلب منهم شيئاً ، كما أنه تعالى لم يأمرنا أن نطلب من الملائكة شيئاً ، وقد وكلهم بتصريف شئون الخلائق ، فملك للنبات وملك للأرواح وملك للجبال ، وملك لتصوير النطفة وكتابة المقادير ، وملك لحفظ الإنسان أن يصيبه ما لم يقدره الله تعالى عليه . فالملائكة مسخرون لله تعالى : ﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء : ٢٧] بأمره

وحده فقط يعملون لا بأمر غيره ، فكذلك الأموات مسخرون بأمر الله تعالى ، ولا يمتثلون لأحد ولا يستجيبون ، فكما أنه لا يجوز دعاء هؤلاء ؛ كذلك لا يجوز دعاء أولئك ، فلم يأمرنا الله تعالى أن نسأل أحداً غيره ، إنما أمرنا أن نسأله وحده ونستجير به وحده .

روى الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : « **يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعنْ بالله** » (١) .

وفى (التحفة ٧/ ١٨٥) : قال الطيبى : أى راع حق الله وتحر رضاه تجده تجاهك أى مقابلك وحذائك والتاء بدل من الواو كما فى تقاة وتخمة ، أى احفظ حق الله تعالى حتى يحفظك الله من مكاره الدنيا والآخرة « إذا سألت » أى أردت السؤال « فاسأل الله » أى وحده لأنه القادر على الإعطاء والمنع ودفع الضرر وجلب النفع « وإذا استعنت » أى أردت الاستعانة فى الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة « فاستعن بالله » فإنه المستعان وعليه التكلان . (انتهى) .

فالله هو الحى المستغاث به القادر على المنع والعطاء ، أما الأموات فهم عباد أمثالنا ، لا يمتثلون ولا ينتهون ولا يستجيبون ، سواء سمعوا أم لم يسمعوا دُعوا أم لم يُدْعَوْا .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ ﴾ [الأحقاف : ٥] .

---

(١) رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى المسند (٢٦٦٤) ، انظر ص ت (٢٦٤٨) .

ومع علم الصوفية أن الله هو المالك الخالق المقدّر ؛ فقد انصرفوا عن دعائه وندائه ، وقالوا : ادعوا البدوى ، اسألوا الدسوقى ، استغيثوا بالشاذلى .. أليست هذه وثنية ؟ ، أليست هذه جاهلية ؟ .

وإن الإسلام ما جاء إلا ليقضى على هذه الوثنية ، ويخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، **كما قال ربعىّ بن عامر لكسرى لما قال له : ما جاء بكم ؟ قال كلمته الشهيرة : الله ابتعثنا والله جاء بنا ؛ لنُخْرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام** . (انظر تاريخ الطبرى ٢/٤٠١) .

شبهات الصوفية في الاستغاثة بالأولياء

إن آفة المتصوفة أنهم لا يفرقون بين الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه وفيما لا يقدر عليه ، ولا يرون الفرق بين الاستغاثة بالحى والاستغاثة بالميت والغائب ، فالجميع سواء .

وقد بنوا اعتقاداتهم على أذواق باطلة ومنامات فاسدة ، وشبهات وشكوك واسعة ، نذكر منها ما يلى :

الشبهة الأولى :

يرى الصوفية أن الاستغاثة بولى من الأولياء من باب الأخذ بالأسباب ، أو من باب الوسائل ، وليست من باب المقاصد .

يقول الشيخ عبد القادر عيسى أحد أئمة الصوفية فى دمشق فى كتاب حقيقة التصوف (ص ٥٣٨) : فإن المريد إذا تعلق بشيخه وطلب المدد منه لا يكون قد أشرك بالله تعالى ؛ لأنه يلاحظ هنا السبب كما أوضحنا سابقاً ، مع اعتقاده أن الهادى والمدد هو الله تعالى . (انتهى) .

وهذا الكلام مردود وذلك لأن هناك فرقاً بين المدعو والمدعو به ، والمستغاث والمستغاث به أو بمعنى أدق بين المستغاث به والمتوسل به فكيف يجعل الاثنين شيئاً واحداً ؟ .

يقول تقى الدين – رحمه الله تعالى – : **فإن المستغيث بالشيء طالب منه سائل له ، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل ، وإنما يطلب به وحده ، وكل أحد يفرق بين المدعو به والمدعو .**

وقال أيضاً : فى رده على البكرى : **أنه جعل المتوسل به بعد موته فى دعاء الله مستغاثاً به ، وهذا لا يعرف فى لغة أحد من الأمم ، لا حقيقة ولا**

مجازا ، مع دعواه الإجماع على ذلك ، فإن المستغاث هو المسؤول المطلوب منه ، لا المسؤول به . (انظر غاية الأمانى ٢٨٩/٢ ، ٣٤٣) .

قلت : ولم يثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم استغاثوا بالنبى ﷺ وهو فى قبره ، بالرغم من المحن التى مروا بها ؛ حتى يكون ذلك من جملة الأسباب التى يتوجهون بها إلى الله تعالى .

وفى حديث الاستسقاء الذى رواه البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، فقال اللهم : « **إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون** »[(١)] .

فيه دليل وكفاية على بطلان معتقد الصوفية ، وفيه عدل الصحابة – رضى الله عنهم – عن الاستغاثة بالنبى ﷺ وكذا التوسل بذاته ﷺ – وليس هناك أشرف منه – إلى التوسل بدعاء العباس ، فلو كانت الاستغاثة به ﷺ من باب الوسائل الجائزة بعد مماته ، أو حتى التوسل بذاته ، لما قدّموا العباس عليه أبداً .

فعمر رضي الله عنه كما ترى استغاث بالله تعالى وقال : « اللهم » ولم يطلب ولم يستغث ولم يتوسل بذات النبى ﷺ ولا بجاهه ، ولو كان الطلب من النبى والاستغاثة به بمعنى التوسل فكيف يتركون التوسل به ليتوسلوا بالعباس ؟ وأى مقام أعظم من الآخر ؟ أجيبوا يا قوم ؟ ولو كانت الاستغاثة به فى الحقيقة استغاثة بالله تعالى فكيف يتركون الاستغاثة به كما ترون إلى التوسل بدعاء مخلوق ؟ .

---

(١) رواه البخارى فى المناقب (٣٥٠٧) .

الشبهة الثانية :

إن الصوفية يظنون أن نداء الأموات وسؤالهم رغبة ورهبة لا يعتبر عبادة لهم إنما هو من باب النداء المجرد ، أو هو نداء مسألة لا شيء فيه طالما لا نعتقد ألوهية من نناديه أو ربوبيته ، إنما هو نوع من التعظيم والمحبة لهؤلاء الصالحين .

يقول الشيخ دحلان : وأما مجرد النداء لمن لا يعتقدون ألوهيته وتأثيره أو استحقاقه للعبادة فإنه ليس عبادة ولو كان ميتاً أو غائباً أو جماداً . (انظر الدرر ص ٧٢) .

وهذا هو الذى يسميه علماء التوحيد شرك الاعتقاد .

والجواب على ذلك :

أن النداء الشركى المذموم المنهى عنه هو النداء المشتمل على الرغبة والرهبة والسؤال والطلب ، أما ما دون ذلك فهو مباح ، وعلى ذلك لو نظرتَ فى قول أحدهم « أدركنى يا رسول الله مدد، يارسول الله مدد ، يابدوى مدد ، يادسوقى مدد ، ياسيدة زينب ... إلخ » ، لوجدته بلا شك نداء رغبة ورهبة ، وعرض وطلب ، وهذا لا يكون إلا لله تعالى وحده ، فهو من آكد حقوق الله تعالى وحده ومن لوازم ربوبيته أن يُسأل وأن يُستغاث به ، وهذا خلافاً لقول دحلان ، الذى يجعله للأولياء والأموات زوراً وبهتاناً .

ذلك أن الدعاء إما أن يكون دعاء مسألة أو دعاء ذكر ، فقول إبراهيم عليه السلام لقومه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [مريم : ٤٨] دعاء مسألة ، فسمى إبراهيم نداءهم الأصنام دعاء ، وسمى الله تعالى دعاءهم ونداءهم عبادة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [مريم : ٤٩] . وفى الحديث : « **الدعاء هو العبادة** » .

وقول الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ**

إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] دعاء مسألة ، وهو أيضاً يتضمن دعاء الذكر ، وهذا لا يكون إلا لله تعالى . والله تعالى يستجيب لمن يسأله ويرجوه ، وهذا بخلاف الذين يسألون غير الله تعالى ، فإن الله تعالى يخيب آمالهم ولا يستجيب دعاءهم ، وما ذلك إلا لأنهم عبدوا غيره والتجأوا إلى سواه .

الرد على حديث : « يا عباد الله احبسوا » :

ولما وجد الصوفية حديث « يا عباد الله احبسوا » تنفسوا الصعداء ، وشمروا عن ساعد الجد وقالوا : وجدنا الدليل الذى يبيح لنا سؤال الأموات والغائبين والاستغاثة بهم ؛ ألم تسمعوا يا أهل السُّنة عن حديث : « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا علي » فهذا هو النبى ﷺ يرشد الرجل منا إذا كان فى صحراء وانفلتت دابته أن ينادى « يا عباد الله احبسوا » فهذا يدل على جواز نداء الغائب ؛ فكيف لا ندعو أصحاب الأرواح المطلقة ونستغيث بها ؟ .

لماذا تغلقون أبواب الرجاء فى الأموات والغائبين ؟ هذا هو قولهم !! قلت سبحان الله وهل يملك الغائب من أمر نفسه شيئاً حتى يغيث من لا يعلم برجائه وسؤاله ؟ إن النبى ﷺ أوصى الشاهد أن يبلغ الغائب كما فى الحديث « **ليبلغ الشاهد منكم الغائب** » وما ذلك إلا لعجز الغائب أن يدرك العلم المشاهد بعينه حتى يراه ، فكيف له أن يغيث من لا يدرك حقيقة أمره وليس له قوة ولا تأثير حتى تبلغ يده ما تشاء ؟! .

والجواب على تلك الشبهة :

أن الأمر بعبادة الله تعالى وحده والنهى عن الشرك ثابت بنصوص محكمة قاطعة ، لا ينبغى أن يبطل بنصوص متشابهة ، ومن فعل ذلك ففى قلبه زيغ قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ**

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾[آل عمران : ٧] وقال رسول الله ﷺ : « **فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم** » [(١)] .

وهذه المتشابهات التى يستدل بها هؤلاء من أعظم الأدلة الكافية على سقوط حججهم ، وتهافت دعاواهم ... فما حقيقة هذا الحديث ؟ .

١ – هذا الحديث ضعيف وباطل ، فقد عزاه النووى لابن السنى ، وفى إسناده معروف بن حسان ، قال ابن عدى منكر الحديث .

قال الشيخ الألبانى فى السلسلة الضعيفة ٦٥٥ ضعيف . رواه الطبرانى (١/٨١/٣) وأبو يعلى فى مسنده ٢٥٤/١ وعنه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة ٥٠٠ كلاهما عن طريق معروف بن حسان السمرقندى عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن عبد الله بن بريد عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً .

قلت : وهذا سند ضعيف وفيه علتان : الأولى معروف هذا فإنه غير معروف ! قال ابن أبى حاتم (٣٣٣/١/٤) عن أبيه إنه مجهول ، وأما ابن عدى فقال : إنه منكر الحديث وبهذا أعله الهيثمى ١٣٢/١٠ فقال بعد أن عزاه لأبى يعلى والطبرانى وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف) . والثانية الانقطاع وبه أعله الحافظ ابن حجر فقال : حديث غريب أخرجه ابن السنى والطبرانى وفى السند انقطاع بين أبى بريدة وابن مسعود . نقله ابن عجلان فى شرح الأذكار ١٥٠/٥ . (انتهى) .

٢ – أن الله تعالى ذم دعاء الجن ونداءهم فى القرآن ، وقد كان الإنس يستغيثون بالجن فيما هو فى مثل ذلك ، فجعل الله تعالى هذا من الرهق

---

(١) متفق عليه : البخارى تفسير القرآن (٤١٨٣) يراجع عن عائشة رضى الله عنها .

والضلال ، وهذا من أعظم الشرك إذ علق المستعيذ رجاءه بمن استعاذ به واعتمد عليه ، وقد كان المشركون في الجاهلية إذا نزلوا وادياً علقوا رجاءهم بغير الله تعالى ، واستعاذوا بالجن خشية أن يصيبهم مكروه أو أذى ، وكانوا يقولون : « نعوذ بسيد هذا الوادى من الجن ومن سفهائهم » بل وكان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل قرية وقف على بابها ينهق عشر مرات كما ينهق الحمار مخافة الجن ، وكان الرجل إذا فقد متاعاً أو زاداً أو راحلة نادى على الجن أن يرد إليه ما فقده .

عن كرم بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مرة مع أبى من المدينة فى حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ فآوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم ، فوثب الراعي فقال : « ياعامر الوادى جارك » فناداه مناد لا نراه يقول : يا سرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم ، لم تصبه كدمة ، وأنزل الله على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن : ٦] .

وقال ابن كثير – رحمه الله – تعليقاً على ذلك : وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل – وهو ولد الشاة – كان جنياً حتى يُرهِبَ الإنسى ويخاف منه ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه والله أعلم . (تفسير ابن كثير ٤/٤٢٩) .

نعم فقول القائل : « يا عامر الوادى جارك » من جنس قول القائل : «ياعباد الله احبسو » فكما أن هذا يزيد الإنسان رهقاً ، فهذا أيضاً ، فإن كان هذا منهياً عنه فهذا كذلك .

٣ – وهذا الحديث إن قُدِّر صحته فليس فيه ما يجوِّز دعاء الأموات ولا

دعاء الغائبين أو الاستغاثة بهم من دون الله تعالى ، والقياس عليه فاسد ، وذلك لأن النداء فى هذا الحديث لحى حاضر قادر مأذون له فى معاونة من فقد دابته فى أرض صحراء (وليس الأمر على الإطلاق ، ولو كان كذلك لما بقى للتوحيد موضع) .

ففى الحديث إن قُدِّر صحته « فإن لله حاضراً أو حاصرا يردها » دليل على أن الله تعالى قيَّد حراساً فى الصحراء حاضرين قادرين على ذلك ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** ﴾ [المدثر : ٣١] يجيبون نداء من انفلتت دابته خاصة ، هذا إن فرض صحة الحديث ، فما بالك والحديث ضعيف . فأين هذا من دعاء الأموات وهم لا يقدرون ، ودعاء الغائبين وهم لا يسمعون ، وهم أيضاً غير حاضرين ، والله تعالى لم يأذن لأحد بندائهم .

لكن هل يجوز أن نأخذ ديننا من التجارب مع عدم ثبوتها ؟ والجواب : لا يجوز ذلك .

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن الناس فى زمن النبى ﷺ كانوا يتحسسون الإبل الشاردة فى مواقع القطر والآبار ، وقد ثبت النهى عن حبسها فى مكان محدد خاصة فى الصحراء ، وذلك لحديث الرسول ﷺ حين سئل عن ضالة الإبل فقال : « **دعها فإن معها حذاءها وسقاءها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها** » [(١)] .

ولم يكن أحد منهم ينادى : « **يا عباد الله احبسوا** » ، « ولا ياعامر الوادى جارك » كما يفعل الصوفية . فلو أن أحدهم تعسس دابته فى مواقع القطر والآبار ولم يجدها ، كان خيراً له من أن ينادى من لا يعلم أيسمعه أم لا

---

(١) رواه البخارى انظر الفتح (٥/١٠٠) .

يسمعه ، أيقدر على ذلك أم لا يقدر .

قال ابن حجر فى (الفتح ٩٧/٥)قال العلماء : حكمة النهى عن التقاط الإبل أن بقاءها حيث ضلَّتْ أقرب إلى وجدان مالكها لها من تطلبه لها فى رحال الناس . (انتهى) .

الشبهة الثالثة :

أن الصوفية يعتبرون أن العبادات والقربات التى توجه إلى الأصنام هى فقط التى يطلق عليها مسمى الشرك ، أما إذا كانت موجهة إلى الصالحين فلا تعتبر عبادة ولا شركاً ، إنما تعتبر من باب المحبة والتعظيم ، ولذا يجعلون من يكره ذلك مبغضاً للأولياء والصالحين ، فما صحة ذلك ؟ .

والجواب : نقول وبالله وحده التوفيق : إن الله تعالى أمرنا بإخلاص العبادة له والتوجه إليه والسؤال والطلب منه سبحانه وقال : ﴿ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

فنهى نهياً عاماً عن التوجه لأى شيء سوى الله ، وهذا إنكار ضمنى على الذين يعبدون الأصنام والذين يدعون عيسى وعزيراً والملائكة فى آن واحد . وفى القرآن بيان ذلك كله ، قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾[الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) ﴾ [الأعراف : ١٩٤] .

فبين سبحانه أن هناك طائفة منهم تعبد الأنبياء والملائكة والأولياء ، بينما هؤلاء الصالحون يلجأون إلى الله وحده رغبة ورهبة ، لجلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم فهم منهوُّن عن الشرك . فكيف يستوون مع الذين يجعلون بينهم وبين

الله تعالى واسطة .

فدل ذلك على أن النهى عن عبادة غير الله تعالى نهى مطلق ، ليس منحصراً فى عبادة الأصنام مسموحاً به عند أعتاب الأولياء . والمحصلة النهائية أن الإشراك بالصالحين هو هو نفس الإشراك بالأصنام ، فمقصود الجميع فى النهاية واحد .

فهؤلاء يطلبون المدد من الأولياء والصالحين ، وهؤلاء يطلبون المدد من الأصنام ، وهؤلاء يريدون الشفاعة كهؤلاء ، فمعبود الاثنين فى النهاية واحد وهو غير الله تعالى ، والحكم عليهم كذلك واحد وهو الكفر بالله تعالى ، وهذا هو الحكم فيمن جحد شيئاً من التوحيد حتى ولو كان يظهر بعض شرائع الإسلام والإيمان .

أما قولهم إن هذه الإستغاثات من باب المحبة والتعظيم . فأقول : سبحان من ختم على قلوب أعدائه فلا يشعرون ولا يعلمون، وهل العبادة إلا المحبة والتعظيم. فالمحبة دافعة إلى الرجاء والاستقامة ، والتعظيم دافع إلى الذل والخشية . وهذا هو كمال العبادة كما قال أهل العلم : كمال الذل وكمال المحبة .

وقد علمت أن الله تعالى أنكر على الذين يسوون بين الله تعالى وبين أحد من خلقه في المحبة . قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

أما الحب المجرد من هذه الاستغاثات والعبادات المنكرة فلا شيء فيه ، طالما أنه بعيد عن الإطراء والغلو ، مع الأخذ في الاعتبار أنه ليس هناك شيء يُحَبُّ لذاته إلا الله تعالى ، أما غير الله تعالى فلا يُحَبُّ إلا برضا الله تعالى عنه وحبه له وأمره بذلك كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)** ﴾ [آل عمران : ٣١] .

أما هل يُظَنُّ أن مسلماً موحداً يبغض الأولياء ويجحد مكانتهم ويُنفِّر الناس منهم ، هذا لا يكون أبداً ، إنما المنكر أن يسوى الوليَّ بالله تعالى فى المحبة والتعظيم ، فهذا رأس الكفر وعين الرزية ، وذلك لأن جحود بعض التوحيد أعظم من أن يجحد أى شيء آخر فى الإسلام .

الشبهة الرابعة :

أن الصوفية لا يجدون دليلاً مستقيماً يبرر لهم الاستغاثة بغير الله إلا التجارب والمنامات ، وليس هذا طريقاً سوياً ولا منهجاً مُرْضياً ، إذ أنه من المعلوم أن الأحلام والمنامات إذا صادمت الشرع وجاءت بما يخالف المحكم ، يُضْرَب بها عرض الحائط ، وذلك لما قد يدخلها من تلابيس النفس ووساوس الشيطان ، وليس عند هؤلاء الصوفية ما ينسخ ذلك اللبس ، حتى يؤخذ قولهم ويصير حجة على غيرهم .

وهذا بخلاف رؤى الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم فهى وحى من الله تعالى ؛ لأن الله تعالى تعهد بحفظها من أمانى الشياطين .

قال ابن القيم فى (المدارج ١/٥١) : ورؤيا الأنبياء وحى ، فإنها معصومة من الشيطان ، وهذا باتفاق الأمة ، ولذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا ، أما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحى الصريح ، فإن وافقته وإلا لم يُعْمَلْ بها ، فإن قيل : فما تقولون إن كانت رؤيا صادقة أو تواطأت ؟ قلنا متى كانت كذلك استحالت مخالفتها للوحى ، بل لا تكون إلا مطابقة له منبهة عليه أو منبهين على اندراج قضية خاصة فى حكم لم يعرف الرائى اندراجها فيه ، فينتبه بالرؤيا على ذلك . (انتهى) .

أما بالنسبة للتجارب :

فلو قُدِّرَ أن ثبت بالتجربة أن الذى ينادى المقبور تقْضَى حاجته فليس ذلك دليلاً على جواز ندائه من ثلاثة أوجه :

١ - أن الله تعالى لم يأمرنا أن نعبد أحداً سواه ، قال تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [هود : ٢] .

٢ - أن الله قد يعطي إنساناً استدراجاً لا لحبه له ، ولا لجاهه عنده . قال الله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ٤٤] .

قال ابن كثير : أى وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو فى نفس الأمر مهانة (٤٠٨/٤) .

٣ - أن الشياطين قد تقضى حوائج من ينادى غير الله تعالى تلبيسا عليهم وتأنيساً لهم -كى توهمهم بصحة عبادتهم ، كما كانت الشياطين تسكن فى الأصنام ، وترد على من ينادى الأصنام ويستغيث بها ، قال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) ﴾[النساء : ١١٧] .

قال أُبى بن كعب فى تفسير هذه الآية : مع كل صنم جنية . (انظر التفسير العظيم ١/٥٥٥) .

قال شيخ الإسلام فى (الفتاوى ١/٣٥٠) : والمستغيث بالمخلوقات قد يقضى الشيطان حاجته أو بعضها ، وقديتمثل له فى صورة الذى استغاث به ، فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به ، وإنما هو شيطان دخله وأغواه لما أشرك بالله . (انتهى) .

الشاهد : العبادات توقيفية ، لا تؤخذ بالتجارب ولو ترتب عليها جلب منفعة أو دفع مضرة .

قال الشيخ الألبانى - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - : العبادات لا

تؤخذ من التجارب ، سيما ما كان منها فى أمر غيبى ، كهذا الحديث ، فلا يجوز الميل إلى تصحيحه بالتجربة ، كيف وقد تمسك بعضهم فى جواز الاستغاثة بالموتى عند الشدائد ، وهو شرك خالص . والله المستعان .

ونُقل عن العلامة الشوكانى فى (تحفة الذاكرين ص ١٤٠) : السُنة لا تثبت بمجرد التجربة ، ولا يخرج الفاعل للشىء معتقداً أنه سُنة عن كونه مبتدعاً . وقبول الدعاء لا يدل على أن سبب القبول ثابت عن رسول الله ﷺ فقد يجيب الله الدعاء من غير توسل بسُنة وهو أرحم الراحمين ، وقد تكون الإجابة استدراجاً . (انظر السلسلة الضعيفة ٢ / ١٠٩) .

النذر والذبح لغير الله تعالى :

النذر لغة كما فى القاموس المحيط : ما كان وعداً على شرط .

أما معناه اصطلاحاً : يقال : نَذَرتُ أَنْذِر نَذْراً ، إذا أوجبتَ على نفسك شيئاً تبرُّعاً من عبادة ، أو صدقة ، أو غير ذلك . (انظر النهاية ٥/٣٩) .

والنذر عبادة لأن الله تعالى أثنى على الموفين بالنذر . قال تعالى: ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا** ⑦ ﴾ [الإنسان : ٧]

ولما كان النذر عبادة لم يجز أن يصرف شىء منه لغير الله تعالى . قال العثيمين – رحمه الله تعالى – فى (القول المفيد ٢٤٥) : النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقاً ولا تجب فيه كفارة بل شرك تجب التوبة منه كالحلف بغير الله فلا ينعقد وليس فيه كفارة . (انتهى) .

أما من نَذَرَ نَذْرَ طاعة يرجو به وجه الله تعالى وحده ويقصد منه ثواباً جارياً لنفسه أو لغيره من الناس فقد وجب عليه الوفاء به إذا كان له عليه طاقة لقوله تعالى : ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ** ﴾ [الإنسان : ٧] ولقوله ﷺ : « **من نذر أن يُطيع**

الله **فليطعه »** [(١)] ، وإن كان عقد النذر لا يجوز ؛ لأنه قد يفضى إلى الإرهاق والعناء وعدم الوفاء ، ولذا قال شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – فى (اقتضاء الصراط ١٠٣/٢) : من نذر شيئاً من الطاعات وجب عليه فعله ، وهو منهى عن نفس عقد النذر . (انتهى) .

والنذر عموماً ما كان منه مطلق وما كان منه مخصوص ، لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، وإنما أوجب الله تعالى الوفاء بالنذر لمن فرضه على نفسه وتعهد به ، ليستخرج به من الشحيح البخيل ما لا يمكن إخراجه إلا بالنذر وذلك لما رواه مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **إن النذر لا يُقربُ من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدره له ، ولكن النذر يوافق القدر فيخرجُ بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يُخرج »** [(٢)] .

وعلى ذلك فنقول لهؤلاء الذين يصرفون النذور للبدوى والدسوقى والشاذلى والرفاعى وغيرهم : إذا كان النذر الشرعى لله تبارك وتعالى منهياً عنه ، وهو لا يجلب خيراً ولا يدفع ضراً ؛ فكيف بنذر الشرك الذى يقدم لغير الله تعالى وفى معصية الله تعالى يجلب خيراً أو يدفع شراً ؟! .

وكل ناذر من هؤلاء يعتقد حين يقول : يا بدوى أن البدوى سيُوفِّى له مطلوبه ، ويكشف ما به من ضر ، ويجلب ما أراد من نفع ، وهذا هو عين الشرك ، **ويتحقق ذلك فى ثلاثة مواضع :**

الأول : فى قوله : نذرت لك يا بدوى ، فيجعله باسم البدوى أو غيره .

---

(١) رواه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٣١٨) والترمذى فى الأيمان والنذور (١٥٢٦) والنسائى فى الأيمان والنذور (٣٨٠٦) ومالك فى الأيمان والنذور (١٠٣١) وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٨٩) وابن ماجه فى الكفارات (٢١٢٦) وأحمد فى المسند (٢٣٥٥٥) والدارمى فى الأيمان (٢٣٣٨) .

(٢) متفق عليه : رواه البخارى فى كتاب النذور والأيمان (٦٣١٦) ومسلم فى النذر (١٦٤٠) .

الثانى : فى كونه قُصِدَ به تعظيم المتقرب إليه ، وإن لم يسمٌ عليه .

والثالث : فى تعلقه به وظنه أن سيجْلِبُ لـه ما يحب ، ويدفع عنه ما يضر ؛ بسبب هذا النذر .

أما الوفاء بالنذر عند عتبات البدوى فهو بدعة وذريعة من ذرائع الشرك الأكبر .

تعظيم سدنة المشاهد لنذور الأموات :

أما صوفية الأرزاق والرسوم وسدنة المشاهد فإنهم يعظمون تلك النذور الباطلة ، بأكاذيب موضوعة وروايات مختلفة .

وصاحب كل وثن يزين فى شيخه أنه يستجيب لمن نذر له أكثر من أى شيخ أخر ، فيقول أحدهم : الدعاء فى مقام الدسوقى ترياق مجرب لا يخيب وهكذا ، يرجون من ذلك أن تُملأَ حصالات النذور ، تَروج الأسواق ، وينتفع العاطلون والدجاجلة بأكل أموال الناس بالباطل .

وإن قُدِّرَ أن حدثت استجابات على زعم بعضهم فليس ذلك بأمر لازم على الإطلاق ، فيكون قرين كل نذر ، وذلك لأن الله تعالى قد يستجيب دعاءهم استدراجاً ، أو أن الله تعالى قَدَّرَ الإجابة فى هذا الوقت لا لأجل الشيخ والمقام ، ولكن لأمور أخرى قد ترتب عليها إجابة الدعاء كالاضطرار وغيره وإن كان قصد الدعاء عن القبر محرم .

أو أن الشياطين قد تلبى رغبات من يقعون فى الشرك ويستغيثون بغير الله تعالى ، لتغرَّهم وتضلَّهم عن دينهم ، ويكونون هم الذين يمنعون الحمل أو يسقطون الجنين ، وغير ذلك من أمور السحر ، فإذا أشرك الناذر بالله تعالى رفعوا أيديهم عنه وهذا يحدث كثيراً .

النهي عن الوفاء بالنذر في موضع يدعى فيه غير الله تعالى

والثابت في السنة النهي عن الوفاء بالنذر في أي موضع يُدْعَى فيه غير الله تعالى ، أو يُعتاد الاجتماع فيه على بدعة ، أو يُعتقد فيه بركة دفع المضار وجلب المنافع .

فهذه ليست مواضع توحيد ورحمة ، إنما هي مواضع نزول اللعنات ، وإتيان الفواحش والمنكرات ، ويُخْشَى على من ذهب إليها تلاعب الهوى وسرقات الطباع ، وغلبة المقاصد الفاسدة ؛ فيضل عن سبيل الله تعالى ، وهو في غنى عن ذلك .

وقد حذر النبي ﷺ من الوفاء بالنذور في تلك الأماكن سداً لذرائع الشرك ووسائله وذلك لما رواه أبو داود عن ثابت بن الضحاك قال : نذر رجلٌ على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانةَ ، فأتى النبي ﷺ فقال : إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة ، فقال النبي ﷺ : « **هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد** » قالوا : لا ، قال : « **هل كان فيها عيدٌ من أعيادهم** » قالوا : لا ، قال رسول الله ﷺ : « **أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم** » [(١)] .

يقول شيخ الإسلام : في (اقتضاء الصراط المستقيم ١٨٨/٢) : وهذا يدل على أن الذبح بمكان عيدهم ومحل أوثانهم معصية لله من وجوه أحدها : أن قوله « فأوف بنذرك » تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء ، وذلك يدل على

---

(١) رواه أبو داود في الأيمان والنذور (٣٣١٣) وابن ماجه في الكفارات (٢١٣١) وأحمد في المسند (٢٦٥٢٦) ، انظر صحيح أبي داود (٣٣١٣) .

أن الوصف هو سبب الحكم ، فيكون سبب الأمر بالوفاء وجود النذر خالياً من هذين الوصفين ؛ فيكون وجود الوصفين مانعاً من الوفاء ، ولو لم يكن معصية لجاز الوفاء به . (انتهى) .

والذبح من أعظم القربات بعد الصلاة ، وكما أن الصلاة لا تكون إلا لله تعالى ، فكذلك الذبح لا يكون إلا لله تعالى . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام : ١٦٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) ﴾ [الكوثر : ٢] .

وفى صحيح مسلم وغيره عن عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه قال : حدثنى رسول الله ﷺ بكلمات أربع : « **لعن الله من لعن والده ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غيّر منار الأرض** » . (سبق تخريجه) .

فمن تقرب بذبح لغير الله تعالى فقد أشرك فى العبادة وكفر بالله تعالى . وقد نص الشافعى على تحريم ذلك واتفق عليه أصحابه ، فإن كان الذابح مسلماً قبل الذبح صار بعد الذبح مرتداً (تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص١٩٠) .

وهذه الذبائح التى تقدم لغير الله تعالى من ولى أو نبى لا يؤكل منها ؛ لأنها فى حكم ما أهل به لغير الله تعالى ، وإن سُمّى عليها .

قال شيخ الإسلام فى (دقائق التفسير ٣/١٣٠) : قال الله عز وجل : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام ١٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [المائدة : ٣] فكل ما ذبح لغير الله فلا يؤكل لحمه . (انتهى) .

ويقول الشيخ محمد حامد الفقى – رحمه الله تعالى –فى (تعليقه على فتح المجيد ص ١١٩) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ وأصل الإهلال رفع الصوت والإعلام ، فالمقصود بما أهل به لغير الله : ما أعلن

عنه أنه منذور به لغير الله ، سواء كان هذا الإهلال والإعلام قبل الذبح كأن يقول : هذه شاة السيدة فلانة والسيد فلان ، فيعرفُ الناس ذلك ، وأنه مُهَلٌّ بها لغير الله ، ولو سَمَّى الذابح باسم الله فهذه التسمية اللفظية لاغية ، والعبرة بالإهلال الحقيقى ، بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله .(انتهى) .

كيفية التصرف فى أموال النذور :

النذر عبادة ولا ينبغى أن يُعبد مع الله أحد ، وهذا المال الذى يوضع فى صناديق المشاهد من جنس العبادات الشركية ، لأنه مما ابْتُغِيَ به غيرُ الله ؛ لذا لا يجب البحث فيه ولا البت فى أمره إلا بعد أن تُطْمَسَ هذه المشاهدة وتُغْلَقَ تلك الصناديق وتُرفعَ ، ثم تقوم الدولة بتوزيعها على الفقراء والضعفاء ، والمرضى والغارمين وأصحاب الديون كما فعل النبى ﷺ فى النذور التى وجدها فى خزائن اللات ، وقضى منها دين عروة بن مسعود الثقفى ، أما أن يتصارع الخلفاء ، وتتنازع الهيئات على حصتها من تلك النذور مع بقاء تلك المشاهد تُحادُّ الله تعالى ورسوله ، فهذا دليل على أنهم يجيزون التقرب لغير الله تعالى ، وهذا حرامٌ ، والراضون بذلك يأكلون السُّحْتَ ، وهذا ما لا يرضاه الله تعالى ولا رسوله محمد ﷺ .

وأنت أيها الناذر اعلم أن أبواب الخير لم تُسَد أمامك ولم تُغْلَق ؛ فوَجِّهْ مالك إليها تَنَلْ الأجر الكثير إن شاء الله تعالى .

قال ابن تيمية فى (الفتاوى ٣١٥/٢ ، ٣١٦) : ثم هذا المال المنذور إذا صرفه فى جنس تلك العبادة من المشروع ، مثل أن يصرفه فى عمارة المساجد ، أو للصالحين من فقراء المسلمين ، الذين يستعينون بالمال على عبادة الله وحده لا شريك له كان حسناً . (انتهى) .

التبرك بالمشاهد

البركـة فى اللغـة : النماء والزيادة والتبريك الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة ، يقال : برَّكْتُ عليه تبريكاً ، أى قلت له : بارك الله عليك ، وبارك الله الشيء وبارك فيه وعليه : وضع فيه البركة ، وتبارك الله : تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم ، لا تكون هذه الصفة لغيره . (اللسان ٣٨٧/١) .

فتبارك صفة مضافة إلى الله تعالى ، لا يجوز أن يتصف بها غيره ، والذى يهب البركة هو الله تعالى وحده ؛ وعليه فلا يجب أن تطلب البركة من ميت ولا من حجر ولا شجر ، فإنها لا تعظم أحداً ولا ترفعه ، وثبوت البركة فى شىء من عدمه يعتمد على النصوص الواردة فى ذلك . يقول شيخنا العلامة الشيخ صالح الفوزان – حفظه الله تعالى – فى كتاب (التوحيد ص ١١٨) : والتبرك : طلب البركة وهى ثبوت الخير فى الشيء وزيادته، إنما يكون ممن يملك ذلك ويقدر عليه ، وهو الله سبحانه فهو الذى ينزل البركة ويثبتها ، أما المخلوق فإنه لا يقدر على منح البركة وإيجادها ، ولا على إبقائها وتثبيتها . (انتهى) .

وقد يتعلل بعض الناس بتقبيل النبى ﷺ الحجر الأسود أو تمسحه به أو تسليمه عليه ، بأن ذلك نوع من التبرك به ، وهذا غير صحيح ؛ فالحجر لا يهب شيئاً لا بركة ولا غيرها ، ويدل على ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيه أن الحجر لا ينفع ولا يضر ، وإنما هو التزام بسُنة المصطفى ﷺ ، واقتداء به ، وهذا هو الشاهد من حديث عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبّله فقال : « **إنى أعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت النبى ﷺ يُقبلك ما قبّلتك** » [1] ، وقد ثبت فى السُنة النهى عن تعظيم الأشجار

---

(١) متفق عليه البخارى فى الحج (١٥٢٠) .

والأحجار والتبرك بها ، واعتقاد النفع والضر فيها ، أو اتخاذها سبباً لذلك ، وقد علم أنها ليست سبباً لشيء .

روى الترمذي عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حُنين مرَّ بشجرة للمشركين يُقال لها ذات أنواط يعلِّقون عليها أسلحتهم ، فقالوا يارسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ : « **سُبحان الله هذا كما قال قوم موسى ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سُنَّة من كان قبلكم** » (١) .

فهؤلاء المشركون كانوا يعلقون أسلحتهم على تلك الشجرة تعظيماً لها وتبركاً بها ، وتفاؤلاً بوقوع النصر وقوة الضرب بسببها ، فلما قال بعض الصحابة ممن كان حديث عهد بجاهلية للرسول ﷺ : « اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أنواط » كبر وسبح تعجباً لهذا القول ، أن يخرج منهم مضاهاة لبني إسرائيل ، حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : **﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾** [الأعراف : ١٣٨] ، ذلك لأن هذا النوع من التبرك عبادة شركية ، وإن استحسنه بعض الناس ، فالشجرة ليست مقدرة لنفع ولا دافعة لضر ، ولا مختارة لشيء منهما ، ولم يجعلها الله تعالى سبباً في شيء من ذلك ، واتخاذ ما ليس بسبب سبباً يعتبر من أنواع الشرك الأصغر ، وإذا اعتبرها الناس مقدرة فاعلة فهذا شرك أكبر وهذا هو وجه الإنكار .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في (فتح المجيد ص ١١٢) : ففيه أن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقربه إلى الله ، وهو أكثر مما يبعده من

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٨٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح وأبو واقد الليثي اسمه الحارث ابن عوف ، ورواه أحمد في المسند (٢١٣٩٠) ، وانظر صحيح الترمذي (٢٢٨٥) .

رحمته ويقربه من سخطه ، ولا يَعْرِفُ هذا على الحقيقة إلا من عَرَفَ ما وقع في هـٰذه الأزمان من كثير من العلماء ، والعباد من أرباب القبور ، من الغلو فيها ، وصرف جُلِّ العبادة لها ، ويحسبون أنهم على شيء ، وهو الذنب الذى لا يغفره الله . (انتهى) .

فيجب على ولاة الأمور وكل قادر أن يسعى جاهداً إلى استئصال كل سبب يؤدى إلى الشرك الأكبر ، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ حين قطع الشجرة التى بايع عندها الصحابة رسول الله ﷺ ، خشية أن تُتَّخَذَ غرضاً لمثل هذه الأعمال ، التى تفتح أبواب الشرك عند ضعاف الدين والعقيدة .

والحمد لله فلم يثبت فى السُّنة أن الصحابة كانوا يتمسحون بقبر النبى ﷺ ، ولا بمنبره ولا بعصاه ، ولا بالمجلس الذى كان يجلس فيه ، ولا بحجراته ، ولا بتراب قبره ؛ لعلمهم بنهى النبى ﷺ أن تُتخذَ عيداً أو وثناً يُعبد .

وعلى ذلك فعدم ثبوت البركة فى شىء يمنع من التبرك به ، فلا يُتبرَّكُ بولى ، ولا بتراب قبره ، ولا بأستار ضريحه ، ولا بأعتاب مسجده ، كما يفعل الصوفية ، فإن هذا من أنواع الشرك الذى حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ .

إنما البركة فى تدبر كتاب الله تعالى وسُّنة رسوله محمد ﷺ ، والعمل بهما والاحتكام إليهما ، والاستشفاء بهما ، وقد ثبت فى السُّنة أن النبى ﷺ كان يتبرك بالمعوذات ويتداوى بها . عن عائشة رضى الله عنها قالت : « **أن النبى ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث فى يديه وقرأ بالمعوذات ومسح بهما جسده** »[(١)]

---

(١) متفق عليه : البخارى فى الدعوات (٥٩٦٠) .

أما التبرك بالنفث الذى خلا من الذِّكْر فهو حرام وشرك - إذا كان من غير الأنبياء لما ثبت فى السُنة أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتبركون بآثار النبى ﷺ - لأنه تبرك بالذات - وذوات غير الأنبياء ليست سبباً لشىء من ذلك ، واتخاذ ما ليس بسبب سبباً لشىء آخر لم يثبت بالشرع أو التجربة يعتبر شركاً بالله تعالى .

وهناك نوع من التبرك يُطلق ويُرادُ به عظم الأجر والثواب ، ولا يُراد به التبرك المذموم ، كالصلاة مثلاً فى المساجد الثلاثة : المسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى ، فالأجر فيها مضاعف والثواب فيها كبير ، وهذا هو السبب الذى يُجْلَبُ به الخير ويُدفع به الشر ، وليس المقصود ببركتها التمسح بجدرانها ، ولا بتقبيل أعمدتها ، ولا التمرغ فى ترابها ، ولا الاعتقاد أنها بذاتها تدفع الطغاة وترد المعتدين كما يظن بعض الناس .

أما بركة العلماء فهى فى حُسن مصاحبتهم ، والتماس الدعاء منهم ، والتتلمذ على أيديهم أما التدافع على آثارهم فلا أصل له كما تقدم .

إن البركة الحقيقة التى تلحق بأمة ، إنما هى دعاء صالحيها واستغفارهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وحفظهم لحدود الله تعالى ، واتباعهم سنة نبيهم محمد ﷺ ؛ وقيام سلطانهم بالقسط بين الناس ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

أما الأموات فإنهم لا يدفعون شراً ولا يجلبون نفعاً مهما كانت مكانتهم .

تبرك الجهال من القرامطة بقبور اليهود والنصارى :

وأسوق هذه القصة لبعض الجهلة الذين يحضرون أعياد النصارى، ويتبركون بالقساوسة والصُّلبان ، وأولئك الذين يتبركون بقبور الأولياء والصالحين ،

ليعلموا أن واهب البركات هو الله رب العالمين ، وليس أحد سواه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – (١٣٩/٣٥) : وإذا أصاب الخيل مغلّ أتوا بها إلى قبورهم (القرامطة)كما يأتون إلى قبور الكفار، وهـذه عادة معروفـة للخيل إذا أصاب الخيل مغل « داء يصيب الحيوان فى بطنه » ذهبوا بها إلى قبور النصارى بدمشق ، وإن كانوا بمساكن الإسماعيلية والنصيرية ونحوهما ذهبوا بها إلى قبورهم ، وإن كانوا بمصر ذهبوا بها إلى قبور اليهود والنصارى ، أو لهؤلاء العبيديين الذين قد يتسمون بالأشراف ، وليسوا من الأشراف ، ولا يذهبون بالخيل إلى قبور الأنبياء والصالحين ، ولا إلى قبور عموم المسلمين ، وهذا أمر مجرب معلوم عند الجند وعلمائهم ، وقد ذُكِرَ سبب ذلك أن الكفار يُعاقبون فى قبورهم ، فتسمع أصواتهم البهائم ، كما أخبر النبى ﷺ بذلك ، أن الكفار يُعذبون فى قبورهم ، ففى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه كان راكباً على بغلته فمرَّ بقبور فحَادَت بـه –كادت تلقيه– فقال : « **هذه يهود تُعذبُ فى قبورها** » [(١)] ، إن البهائم إذا سمعت ذلك الصوت المنكر أوجب لها من الحرارة ما يذهب المغل ، وكان الجهال يظنون أن تمشية الخيل عند قبور هؤلاء لدينهم وفضلهم ، فلما تبين لهم أنهم يمشونها عند قبور اليهود والنصارى والنصيرية ونحوهم دون قبور الأنبياء والصالحين ، وذكر العلماء أنهم لا يمشونها عند قبر من يُعْرَفُ بالدين بمصر والشام وغيرها إنما يمشونها عند قبور الفجار والكفار تبين بذلك ما كان مشتبهاً . (انتهى) .

---

(١) متفق عليه : انظر صحيح البخارى كتاب الجنائز (١٣٠٩) .

بدعة الموالد

جعل الله تعالى العمل بسُنة رسول الله محمد ﷺ من العلامات الصادقة الدالة على حب المرء لله تبارك وتعالى . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ،وذلك لأن سُنة رسول الله ﷺ وحى كالقرآن الكريم أمرنا الله تعالى بالتصديق بها ، والعمل بها امتثالاً وانتهاء . قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] وهذه الآية دليل على حجية السُنة فى التشريع ، وأن العمل بها دِينٌ يتقرب به المرء إلى الله تعالى ، وقد كان العمل بالسُنة والوقوف على ما كان عليه سلف الأمة فى الاعتقادات والعبادات والمفاهيم دليلاً على سلامة العقيدة وصحة الدين ، وبضد ذلك يُشارُ إلى فساد الدين وتغلغل البدعة . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ [البقرة : ١٣٧] .

قال القرطبى فى (التفسير ٦٣٣/١) : الخطاب لمحمد ﷺ وأمته ، المعنى : فإن آمنوا مثل إيمانكم ، وصدَّقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا . فالمماثلة وقعت بين الإيمان . (انتهى) .

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ على هدى وبصيرة ، وقد قاموا بما وسعهم من العمل من غير مجافاة ولا تقصير ، إرضاءً لله تعالى ورسوله ﷺ ، ولم يكن لهم عهد بهذه البدع وتلك الخرافات ، وإنما كان عهدهم الجهاد فى سبيل الله تعالى ؛ لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، فبلَّغو وأدَّوا ونصحوا ، أما ما يفعله الصوفية فلا يرقى إلى مثل ذلك أبداً .

الموالد مخالفة للدين : ويتضح ذلك من عدة أوجه :

الوجه الأول :

أن هذه الموالد من سُنن اليهود والنصارى والوثنيين ، وهم يحسبونها عملاً مُرْضياً وهى من علائم الشرك والوثنية والبدعة . قال تعالى : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)** ﴾ [الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] .

والصوفية حين يقلدون النصارى وغيرهم فى تلك البدعة فإنهم يرضُونهم أشد الرضا ، ويسعدونهم أيما سعادة ؛ وذلك لما يرون فيهم من تناسب وتضامن مع ما هم عليه ، بينما يغتاظ هؤلاء الكفار أشد الغيظ إذا رأو السُّنة تظهر وأهلها قائمين عليها .

يقول الجبرتى فى (عجائب الآثار ٣٠٦/٢) عن مولد البكرىّ : **فلما فُتِحَ أمر الموالد والجمعيات ورخَّص الفرنساوية ذلك للناس ، لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع ، واجتماع النساء واتباع الشهوات والملاهى ، وفعل المحرمات أُعيدَ هذا المولد مع جملة ما أُعيد** . (انتهى) .

وقد بيَّن النبى ﷺ أن طائفة من أمته ستتبع سُنن اليهود والنصارى وتقلدهم فى دينهم . فقال : « **لتتبعُنَّ سُنن من قبلكم شبراً بشر ، وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جُحْر ضبٍّ لسلكتموه** ، قلنا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ **قال : فمن** » [(١)] .

---

(١) متفق عليه : البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٢٦٩) .

الوجه الثانى :

أن الموالد لم تكن من سُنة الرسول ﷺ ولا من هدى أصحابه ، ولا أصحاب القرون الثلاثة المفضلة ، وإنما ابتُدعت الموالد بعد هذه القرون على أيدى الفاطميين الزنادقة فى مصر ، وذلك فى القرن الرابع الهجرى ، والملك المظفر فى الشام فى القرن السابع الهجرى .

يقول الشيخ عليّ محفوظ فى (الإبداع فى مضار الابتداع ص ٢٥١) : أول من أحدثها « الموالد » بالقاهرة الخلفاء الفاطميون فى القرن الرابع الهجرى فابتدعوا ستة موالد : المولد النبوى ، ومولد الإمام عليّ رضي الله عنه ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ، ومولد الحسن والحسين - رضى الله عنهما - ، ومولد الخليفة الحاضر ، وبقيت هذه الموالد على رسومها إلى أن أبطلها الأمير الأفضل بن أمير الجيوش ، ثم أعيدت فى خلافة الآمر بأحكام الله فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة بعدما كاد الناس ينسونها ، وأول من أحدث المولد النبوى بمدينة أربل الملك المظفر أبو سعيد فى القرن السابع ، **وقد استمر العمل بالمولد إلى يومنا هذا ، وتوسع الناس فيها وابتدعوا بكل ما تهوى أنفسهم ، وتُوحِيه إليهم شياطين الإنس والجن ، ولا نزاع فى أنها من البدع** . (انتهى) .

فالموالد لم تُنشأ فى القرون المفضلة إنما نشأت فى عهود الفتن فلا حجة فيها ، ولا حتى فى غيرها ، طالما ليس عليها دليل من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ، ولم تُؤيّد من عمل الصحابة رضوان الله عليهم .

الوجه الثالث :

أن صحابة رسول الله ﷺ لم يعرفوا هذه الموالد ، ولم يتعبدوا الله تعالى بها مع حبهم الشديد لرسول الله ﷺ ، ووجود المناسبات الكثيرة والأحداث الهائلة ، التي لو كانت عند غيرهم لاتخذوها أعياداً ، ومع ذلك لم يفعلوا ؛ لأن الأعياد شرْعٌ ، وحيث لم يرشد الشرع إلى الاحتفال بهذه المناسبات فلا يجوز الاحتفال

بها . فهى بدعة مُحدَثَةٌ فى الدين مخالفة للشريعة ؛ لما فيها من تعيين هيئة مخصوصة بصفة مخصوصة فى زمن مخصوص بدون أمر من الشارع . وهذا كله انتقاص من الرسول والرسالة ، وإن زعم صاحب البدعة أنه محب ، فهو ضال مُضل .

والبدعة كما قال الشاطبى فى (الاعتصام ص ٣٧) : طريقة مخترعة فى الدين ، تضاهى الشريعة ، يُقْصَدُ بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله سبحانه . (انتهى) .

قال ابن القاسم : **لا تجد مُبْتَدِعاً إلا وهو مُنْتَقِصٌ للرسول ، وإن زعم أنه يعظمه بتلك البدعة ، فإنه يزعم أنها هى السُنة إن كان جاهلاً مقلداً ، وإن كان مستبصراً فيها فهو مشاق لله ولرسوله** .(شرح الجامع الصغير الجزء الأول جـ٤٠) .

وقد كان النبى ﷺ يحتفل بيوم مولده على ما مَنَّ الله به عليه من النبوة والرسالة بصوم يوم الاثنين من كل أسبوع ، وليس بصيام يوم الثانى عشر من ربيع الأول كل عام ؛ وعلى ذلك فتخصيص يوم بعبادة لم يرد أنه تخصيص فى الشرع يعتبر استدراكاً على الله تعالى ورسوله ﷺ ، وهذا دليل على البغض والمعاداة وليس دليلاً على المحبة .

وإن كان هؤلاء كما يزعمون أنهم يحبون الحق ويعظمون النبى ﷺ لكان الخير لهم فى الإهتداء بطريقته ، والاستنان بسنته ، وصيام يوم الاثنين من كل أسبوع ، وترك تلك القصص الزائفة والمدائح الكاذبة ، والتصنع الممقوت الذى يفعلونه فى تلك الموالد ، والدخول فى الإسلام كافة وعدم الابتداع فى الدين . فقد أمر الله تعالى المؤمنين بالدخول فى الإسلام كافة ، وترك كل عبادة مُحْدَثَة وإن كان يُرادُ بها التقرب إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (٢٠٨) ﴾

[البقرة : ٢٠٨] . قال مجاهد وقتادة : نزلت فى المسلمين يأمرهم بالدخول فى شرائع الإسلام كلها (انظر زاد المسير ١/ ٢٢٤) .

وقد حذَّر الإسلام من الإتيان بالبدع ، وأمر بردِّها واعتزال أصحابها ، وذلك لما رواه مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « **من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ** » [1] ، وإذا كانت تلك البدع قُربةً إلى الله تعالى فلا ثواب عليها ، ولا يُمدحُ فاعلها بل يُردُّ على عقبيه يوم القيامة ، ولا يشرب من حوض النبى ﷺ ويقال : « **سُحقاً سُحقاً لِمَنْ غيَّر بعْدى** » (تقدم تخريجه) وذلك لأنه أتى بما هو أحب إلى إبليس من المعصية ، فالمعصية يُتاب منها ، أما البدعة فلا يُتاب منها كما قال بعض السلف .

والشاهد : أن الاحتفال بتلك الموالد معصية لله تعالى وللرسول ﷺ ، والذين يذهبون إليها للفرجة ولا ينكرونها على أهلها عليهم وزر ما رأوا من المنكرات ، مشاركون لهم فى تلك المعاصى ، وهى عظيمة جداً ، فهى نذير شؤم ومَرْصدُ ضلال .

فموالد الصوفية موائد للحشاشين – فهم الذين اكتشفوا شجرة الحشيش – وملاعبُ مع المردان ، ومصائد للنساء ، وهذه آفات معروفة فى منحرفى وغالطى التصوف ، ولا يليق بمسلم أن يكون متصفاً بها .

الصوفية واكتشاف الحشيش :

قال د / زكى مبارك فى كتابه (التصوف ١/ ٣٢٢) : ونكتفى فى هذا الفصل بإيراد شواهد من كلام الأدباء فى غمزِ الصوفية ، واتهامهم بالسبق إلى كشف فضائل الحشيش ، والصورة التى أذيعت بها طريقة ذلك الكشف صورة فنية رائعة لأنها تبين أثر الذوق فى حياة الصوفية ، فقد حدثوا : أن الشيخ حيدر

---

(١) متفق عليه : البخارى فى الصلح (٢٥٥٠) .

كان يقيم في بيشاور من بلاد خراسان ، وأقام له زاوية في الجبل ، مكث بها أكثر من عشر سنين ، ثم طلع ذات يوم ، وقد اشتد الحر منفرداً بنفسه إلى الصحراء ، وقد علا وجهه نشاط وسرور ، بخلاف ما كان يَعْهَدُهُ عليه أصحابه من قبل ، وأَذِنَ لأصحابه بالدخول عليه ، وأخذ يحادثهم ، فلما رأوه على حال من المؤانسة لم يعاهدوها فيه بعد إقامته تلك المدة الطويلة في خلْوة وعُزْلة سألوه عن ذلك . قال : بينما أنا في خلْوتي إذ خطر ببالي الخروج إلى الصحراء منفرداً ، فخرجتُ فوجدتُ كل شيء من النباتات ساكناً لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ ، ومررت بنبات له ورق ، فرأيته في تلك الحال يَميسُ بلطف ويتحرك من غير عنف ، كالثَملِ النَشْوَان ، فجعلت أقطف منه أَوراقاً وآكُلُهَا فحَدِثَ عندي من الارتياح ما شهدتموه . (انظر خطط المقريزي ٣٠٥/٢) .

ولم يفت الدكتور زكي مبارك أن يبين بطريقته الأدبية أثر الذوق والتأمل عند الصوفية في اكتشاف الحشيش فقال : تلك هي الصورة ، وهي باب من الفنون ، فذلك الصوفي لم يَفُتْهُ أن يراقب النبات وقت القيظ ، ولم يَغِبْ عن ذهنه المتوقد أن ذلك النبات لم ينفرد بالحركة وقت الخمود إلا وفيه سر خاص . وقد هدى أصحابه إلى تلك الحشيشة ، وأوصاهم بكتمان سرها عن العوام وقال : « إن الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ليذهب بأكله همومُكم الكثيفة ، ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة ، فراقبوه فيما أودعكم وراعوه فيما استرعاكم » . وقد تلطف الشيخ حيدر فأوصى أصحابه عند وفاته بإطلاع ظرفاء خراسان وكبرائهم على سر هذا العقار ، وقد أمرهم بزرع هذا الحشيش حول ضريحه بعد أن يموت كأنه تذكر وصية من قال :

إذا متُّ فادفني إلى جنْبِ كَرْمَةٍ ... يروى عظامي بعد موتى عروقُها
ولا تدفنّي في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مِتُّ ألا أذوقَها

وهنا تبدأ السخرية من الصوفية ، فقد عبث الأداء بتلك الحشيشة وسموها

مدامة حيدر . (انتهى) .

الصوفية وصحبة المردان :

وقد عبر عن ذلك يوسف بن الحسين الرازى فى الرسالة حيث يقول : رأيت آفات الصوفية فى صحبة الأحداث ، ومعاشرة الأضداد ، ورفق النسوان . (الرسالة ص ١٣٦) .

ولقد نعى إبليس حظه لأبى سعيد الخراز بسبب ترك الصوفية للدنيا ومتاعها وزينتها ، حتى إنه لا يجد شيئاً يغرهم به ويزينه لهم كى يستريح فؤاده وتهدأ نفسه ، إلا أنه ترك فيهم صحبة المردان ، وهو ما يفسد دعاواهم ويمحق وصولهم .

يقول أبو سعيد الخراز فيما نقله عنه ابن العماد فى(الشذرات ١٩٢/٢) : رأيت إبليس فى المنام وهو عنى ناحية فناديته فقال : أى شىء أعمل بكم ، وأنتم طرحتم ما أخادع الناس به ، غير أن لى فيكم لطيفة وهى صحبة الأحداث . (انتهى) .

وهذا صحيح وهى عادة واسعة بينهم ، فهذا يوسف بن الحسين يقول : كل ما رأيتمونى أفعله فافعلوه إلا صحبة الأحداث ، فإنها من أفتن الفتن ، ولقد عاهدت ربى أكثر من مائة مرة أن لا أصحب حدثاً ، ففسخها على حسن الخدود وغنج العيون ، وما سألنى الله معهم عن معصية . (انتهى).

يقول الإمام ابن الجوزى : هذا الرجل قد فضح نفسه فى شىء ستره الله عليه ، وأخبر أنه كلما رأى فتنة نقض التوبة ، فأين عزائم التصوف فى حمل النفس على المشاق !! ثم ظن بجهله أن المعصية هى الفاحشة فقط ، ولو كان له علم لعلم أن صحبتهم والنظر إليهم معصية ، فانظر إلى الجهل كيف يفعل بأربابه (انظر تلبيس إبليس ص ٢٧٣) .

الصوفية وخُلَّة النسوان :

أما خُلَّة النسوان فهى عادة قديمة وآفة مستمرة إلى يومنا هذا ، وما تُنْصَبُ الخيام فى الموالد إلا لأجل ذلك ، وهم يعتبرونها بركة من البركات ، وعلامة من علامات الوصال وتمازج الأنوار .

يقول عليّ بن المحسن التنوخى عن أبيه قال : أخبرنى جماعة من أهل العلم أن بشيراز رجلاً يعرف بابن خفيف البغدادى شيخ الصوفية هناك يجتمعون إليه ، ويتكلم على الخطرات والوساوس ، ويحضر حلقته ألوف من الناس ، وأنه فاره فهم حاذق ، فاستغوى الضعفاء من الناس إلى هذا المذهب . قال : فمات رجل من أصحابه وخلف زوجة صوفية ، فاجتمع النساء الصوفيات ، وهن خلق كثير ، ولم يختلط بمأتمهن غيرهن ، فلما فرغوا من دفنه ، دخل ابن خفيف وخواص أصحابه وهم عدد كثير إلى الدار ، وأخذ يعزى المرأة بكلام الصوفية إلى أن قالت : قد تعزيت ، فقال لها : ها هنا غير فقالت : لا غير . قال : فما معنى إلزام النفوس آفات الغموم وتعذيبها بعذاب الهموم ؟ وأى معنى نترك الامتزاج ؟ لتلتقى الأنوار وتصفو الأرواح ويقع الإخلافات وتنزل البركات . قال : فقلن النساء : ما شئت . قال : فاختلط جماعة من الرجال بجماعة من النساء طول ليلتهم ، فلما كان سحر خرجوا .

قال الحسن : قوله : ها هنا : أى هاهنا غير موافق للمذهب ؟ فقالت : لا غير ليس مخالف ، وقوله : نترك الامتزاج : كناية عن الممازحة فى الوطء ، وقوله : لتلتقى الأنوار: عندهم أن فى كل جسم نوراً إلهياً ، وقوله: الإخلافات : أى يكون لكن خلف ممن مات أو غاب من أزواجكن . قال : المحسن : وهذا عندى عظيم ، ولولا أن جماعة يخبرونى يبعدون عن الكذب ما حكيته ، لعظمه عندى ، واستبعاد أن يجرى مثله فى دار الإسلام . (انظر تلبيس إبليس ص ٣٧٠ - ٣٧١) .

وهذا مشهور فى موالد الصوفية المنتشرة فى غالب البلاد ، حيث يختلى السالكون مع النساء الأجنبيات ، ويرتكبون معهن الفاحشة بدعوى أنهن أخواتهن فى الطريقة ، وهذا هو ما جناه مذهب الاتحاديين على الصوفية .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فى (الرسائل والمسائل ١٨٤/١) عن الفاجر سليمان بن عبد الله التلسمانى قال : فهو أخبث القوم وأعمقهم فى الكفر ، ثم قال : ولهذا كان يستحل جميع المحرمات حتى حكى عنه الثقات أنه كان يقول : البنت والأم والأجنبية شىء واحد ليس فى ذلك حرام علينا وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام فقال : حرام عليكم .(انتهى) .

التوسل بجاه الأنبياء والصالحين

التوسل : ما يُتَوصَّلُ به إلى الشيء ويُتقرَّبُ به ، وجمعها وسائل . يقال : وسل إليه وسيلة وتوسل (النهاية ١٨٥/٥) .

والوسيلة شرعاً : هى القُرْبَةُ إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وبما يحب من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التى جاء الشرع بجواز التوسل إلى الله تعالى بها .

يقول شيخ الإسلام فى (الفتاوى ٢٠٢/١) : فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان :

أحدها : التوسل بطاعته ، فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به

والثانى : التوسل بدعائه وشفاعته « أى بدعاء وشفاعة الرسول ﷺ » ، وهذا كان فى حياته ، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته .

والثالث : التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته « أى بذات الرسول ﷺ » فهذا هو الذى لم تكن الصحابة يفعلونه فى الاستسقاء ونحوه ولا فى حياته ، ولا بعد مماته ، ولا عند قبره ، ولا يُعْرَفُ هذا فى شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وإنما يُنقَلُ شيء من ذلك فى أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة.(انتهى) .

التوسل عند السلف :

ولم يكن التوسل بذات أحد من المخلوقين أو بجاهه وسيلة الأنبياء إلى الله تعالى ، ولا الصالحين من عباد الله تبارك وتعالى كما يزعم الصوفية ، إنما هو التسابق فى الخيرات والخوف والرجاء . قال تعالى فى حق الأنبياء : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** (٩٠) ﴾

[الأنبياء : ٩٠] .

وقد كان النبى ﷺ يتوسل إلى الله تعالى ويتقرب إليه بأسمائه وصفاته ، وهذا يقرب العابد من ربه ، بينما لا يمكن أن يقربه جاهُ مخلوقٍ ولا ذاته . ويحقق مطلوبه بأسرع ما يكون ، بينما لا يكون ذلك له إذا توسل بجاهِ مخلوقٍ.

وقد كان المؤمنون فى الأمم السابقة ولا يزالون يتوسلون إلى الله تعالى بالإيمان به ، كما فى قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ **رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣)** ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

وكانوا أيضاً يتوسلون إلى الله تعالى بالعمل الصالح ، ويجعلونه سبباً لكسب رضا الله تعالى عنهم ، كما فى حديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار ثم انطبقت عليهم الصخرة حتى حُبِسُوا فيه فتوسَّلُوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم ، وكان قائلهم يدعو بهذا الدعاء « **اللهم إن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء ، قال : ففرج عنهم** » [متفق عليه ، البخارى ، كتاب البيوع - ٢١٠٢] فذكرهم النبى ﷺ فى معرض الثناء عليهم ، وفى هذا الحديث دليل على أن قدماء الموحدين لا يعرفون أنواع التوسل المحرم كالتوسل بالذات وغيره ، من الذى يتغنى به الصوفية .

وقد كان الصحابة يتوسلون إلى الله تعالى بدعاء النبى ﷺ فى حياته وفى حضرته ولا يعرفون غير ذلك ، فلم يتوسلوا به فى غيبته ، ولا بعد مماته ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : توسل المرأة المصروعة بدعاء النبى ﷺ ، وهذا الرجل الذى وقف بين يدى النبى ﷺ يوم الجمعة يستسقى به لإنزال المطر ؛ ماذا فعل النبى ﷺ له ؟ والجواب : رفع يديه خاشعاً متبذلاً يدعو الله تعالى ، وهذا يؤكد لك أن الصحابة لا يعرفون فى معنى التوسل به غير التقرب إلى الله

تعالى بالعمل الصالح ومنه دعاؤه ﷺ .

وقد كان الصحابة يدعو بعضهم لبعض كما كان النبى ﷺ يدعو لهم ، فلا مانع أن يسألَ المسلمُ أخاه الصالح الحيَّ القادرَ الدعاء له بظهر الغيب .

وقد أمر النبى ﷺ عمر رضي الله عنه أن يطلب من أُوَيْس القَرَنى رضي الله عنه أن يستغفر له إذا لقيهُ وقال : « **فإن استطعتَ أن يستغفر لك فافعل** » [1] ، ولم يكن عمر يتوسل بجاهه ، وإنما انتظر حتى لقيهُ فطلب منه الاستغفار له . فاعتبروا يا أولى الأبصار ! .

وفى الاستسقاء كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بدعاء خيارهم من أهل البيت وغيرهم ، كما كانوا يتوجهون إلى الله تعالى بدعاء النبى ﷺ فى حياته ، ولو كانوا يتوجهون إلى الله تعالى بـذات النبى المباركة لفعلوا ذلك بعد مماته ، ولما عدلوا عنه إلى دعاء العباس رضي الله عنه كما أشار إلى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى الحديث الذى رواه البخارى عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « **كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيِّنا فتسقينا ، وإنَّا نتوسلُ إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا ، قال : فيسقون** » (تقدم تخريجه) .

وقد توسل معاوية رضي الله عنه إلى الله تعالى فى الاستسقاء بدعاء يزيد بن الأسود الجرشى ، ولم يستسق بالنبى ﷺ ولا بذاته ، ولا بجاهه ، ولا بدعائه ، بعد موته كما يفعل الصوفية .

ولو كان التوسل بجاهه وذاته المباركة أمراً مشروعاً فى حياته أو بعد مماته لما طلب بعضهم من بعض الدعاء اكتفاء بالتوجه إليه ﷺ ، أو لأتوا بهذا النوع

---

(١) رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة (٢٥٤٢) وأحمد فى المسند (٢٦٨) .

من التوسل أكثر من غيره ، ولكنهم لم يفعلوه مطلقاً فدل ذلك على المنع .

قال ابن تيمية فى (زيارة القبور ص ٤٣) : قال العلماء : يُستحب أن يُستسقَى بأهل الصلاح والخير ، فإذا كانوا من أهل بيت رسول الله ﷺ كان أحسن ، ولم يذكر أحد من العلماء أنه يُشْرعُ التوسل والاستسقاء بالنبى والصالح بعد موته ، ولا فى مغيبه ، ولا استحبوا ذلك فى الاستسقاء ، ولا فى الاستنصار ، ولا غير ذلك من الأدعية . (انتهى) .

والشـاهد : أن التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح ، الحى ، الحاضر ، المشروع دعاؤه ، جائز ولا شىء فيه ، أما التوسل إلى الله تعالى بذاته ، أى بذات المخلوق أو بجاهه ، فهو بدعة محرمة ، أما دعاء الأموات فقد علمت أنه شرك وضلال وخسران .

شبهات الصوفية في التوسل

لا يقبل الله تعالى أى قُرْبَةٍ إلا إذا تحقق فيها شرطا القبول :

أحدهما : أن تكون خالصة لله تعالى لا يبتغى بها غيره .

الثانـــى : أن تكون على الكتاب والسُنة الصحيحة ، وما كان عليه سلف الأمة رضى الله عنهم أجمعين . فهذا هو الوجه الذى لا شرك فيه ، ولا بدعة ، ولا ضلالة .

أما هؤلاء الذين يشرعون بعقولهم وأهوائهم عبادات لا أصل لها ، إلا الأقيسة الفاسدة والخيالات الفلسفية الفارغة ، فهؤلاء معتدون معاندون لله ورسوله . قال تعالى: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى : ٢١] .

والتوسل بذوات المخلوقين بين يدى الدعاء من جنس ذلك ، ليس عليه دليل من الكتاب ولا من السُنة ،ولا يتحقق فيه مرضاة الله تعالى . لأنه إذا كان المقصود بالتوسل التسبب بذات المخلوق أو بجاهه ، بمعنى أن ذاته أو جاهه سبب فى إجابة الدعاء فهذا لا يعتبر وسيلة مناسبة ، لأنه ليس من كسب المتوسل ولا من سعية ، فذات كل إنسان وجاهه يخصه هو ولا يخص غيره .

قال العلامة العثيمين – رحمه الله تعالى – : وأما التوسل بذواتهم فهذا ليس بشرعى ، بل هو من البدع من وجه ، ونوع من الشرك من وجه آخر ، فهو من البدع لأنه لم يكن معروفاً فى عهد النبى ﷺ وأصحابه ، وهو من الشرك لأن كل من اعتقد فى أمر من الأمور أنه سبب أى وليس هو سبباً شرعياً فإنه يكون قد أتى نوعاً من أنواع الشرك . (المجموع الثمين ص ٩٠) .

وفي التوسل بالذات أسباب خفية قد تكون ذريعة إلى التوجه إلى المخلوقين أنفسهم وعبادتهم من دون الله تعالى والتعلق بهم ، وفيه نوع من سوء الظن بالله تعالى إذ أن المتوسل قد يرى أن الله تعالى لا يلين ولا يعطف إلا عن طريق فلان أو فلان من البشر ، وهذا جحود بنعمة الله تعالى وفضله وجوده وإحسانه ، وهو تعالى جواد كريم لا يبخل .

أما إذا كان المراد بالتوسل الإقسام على الله تعالى بهذا المخلوق فهو محرم ، وذلك إذا علمت أن الإقسام على المخلوق بالمخلوق شرك بالله تعالى ، فما بالك بالإقسام على الله تعالى بمخلوق ، فهو أعظم ، لما فيه من العلو والتكبر على الله تعالى ، وافتقاره إلى التضرع والتذلل .

إن مجرد ذكر طرق التوسل المشروع والثابت يبطل ما دونه ، وبالتوقف على المشروع من التوسل لم نجد نصاً تعبدياً واحداً يرشد أو يوجه عباد الله تعالى إلى التوجه ، أو التسبب إلى الله تعالى بذوات المخلوقين ، بل وجد في السُّنة نصوص تنْهَى عن الاعتقاد في ذوات المخلوقين ، أو التوجه إلى الله تعالى بهم أو اعتبارهم وسائط في الدعاء أو في المغفرة .

قال النبي ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه حين أُنزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] : « **يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت ، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً** » (١) .

قال النووي في (شرح مسلم ٨٤/٢) : معناه لا تتكلوا على قرابتي فإني لا أقدر على دفع مقدور قدره الله تعالى بكم . (انتهى) .

---

(١) متفق عليه : رواه مسلم في الإيمان (٢٠٤) .

فلم يجعل الله تعالى جَاهَ أحدٍ من المخلوقين سبباً للتقرب إليه ، أو سبباً لاستجابَة الدعاء ، وقد نهى النبى ﷺ عن القَسَمِ بغير الله تعالى ، وجعله نوعاً من الشرك به .

وهذه بعض الأحاديث التى يعتمد عليها الصوفية فى بناء معتقدهم فى التوسل :

الحديث الأول :

قال الترمذى : حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال : ادعُ الله أن يُعافينى ، قال : **إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خيرٌ لك** ، قال : فادعُه ، **قال : فأمرهُ أن يتوضأ فيحسن وضوءهُ ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألُك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى اللهم فشفعه فيّ »** (١) .

وهذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم وحسنه آخرون ، ففيه اضطراب فى المتن والسند ويَعْرفُ ذلك أهل العلم بالحديث ، وعلى فرض صحته فغايةُ ما فيه أن الصحابى طلب من الله تعالى أن يقبل منه شفاعة النبى محمد ﷺ له ، وقدَّم بين يدى ذلك الوضوءَ والصلاة تقرُّباً إلى الله تعالى أن يقبل دعاء النبى ﷺ فيه .

وهذا الشاهِدِ من الحدِيث ، ففى أوله قال له : « ادع الله أن يعافينى » وفى آخره قال : « اللهم فشفعه فيّ » وهذا تفسير قوله : « إنى توجهت بك إلى ربى » أى توسّلت بدعائك .

---

(١) رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٧٨) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ورواه ابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٨٥) ، انظر صحيح الترمذى (٣٠٨٣) .

وباستقراء السُنة تبين أن هذا الموقف خاص بهذا الرجل فقط ، وعليه فليس لغيره أن يستتن به ، ولو كان لما بقى فى الصحابة عميان بعده .

الحديث الثانى :

روى أحمد فى المسند قال : حدثنا يزيد أخبرنا فضيل بن مروزق عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى قال : من قال حين يخرج إلى الصلاة : « **اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سُمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وكَّل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يفرغ من صلاته** »[(١)] .

وهذا الحديث ضعفه كثير من أهل العلم وفيه عطية العوفى قال ابن حجر فى التقريب : صدوق يخطئ كثيراً كان شيعياً مدلساً . (التقريب ١/٣٩٣) .

وعلى فَرْضِ صحته ففيه أمران : الأول : أن الله تعالى لا يجب عليه حق لأحد إلا ما أوجب هو على نفسه وتفضّل . قال تعالى : ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم : ٤٧] ، وقال تعالى: ﴿ **كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام : ١٢] ، وكما فى الحديث : « **وحق العباد على الله أن لا يُعذِّب من لا يُشرك به شيئاً** »[(٢)] .

وهذا الجزاء ليس على سبيل المقابلة ، فلا يجوز لصاحب العمل أن يحتج بعمله بين يدى الله تعالى ، إنما هو محض مِنَّةٍ من الله تعالى أَوْجَبَهَا على نفسه ، ولم يُوجِبْهَا عليه أحد ، وأعمال العباد لا يمكن أن تقابل نعمة من نعم الله تعالى فى الدنيا كنعمة العين ، فكيف بدخول الجنة والنجاة من النار ، وهذا

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب المساجد والجماعات (٧٧٨) ورواه أحمد فى المسند (١٠٧٧٢) ، انظر ضعيف ابن ماجة (٧٧٨) .

(٢) متفق عليه : رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٧٠١) .

المخلوق الذى يبرر دخول الجنة بعمله نسى أن عمله هذا ما كان له أن يكون لولا توفيق الله تعالى له ، فكيف يَمُنُّ على الله تعالى بعطائه له ؟ .

وإذا كان السائل يظن فى دعائه أن له حقاً واجباً على الله تعالى لم يوجبه الله تعالى على نفسه ، فلا معنى لدعائه ولا فائدة فيه ، وهو من الاعتداء فى الدعاء .

الثانى : إن أراد أن يقسم على الله تعالى بالسائلين فهذا محرم ؛ لأن الله تعالى لا يرضى أن يقسم عليه بذات مخلوق لقوله فى الحديث الذى رواه أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « **إنه من حلف بشيءٍ دونَ الله فقد أشرك** » (١) .

أما إذا فُهِمَ أن سؤال الله تعالى بحق السائلين وبحق الممشى أنه سؤال الله تعالى بشيء من صفاته الفعلية : فحق السائلين أن يجب دعاءهم ، فهو مجيب الدعوات وقاضى الحاجات ، وحق الممشى : المثوبة من عنده ، فهو المثيب لمن أطاعه ، فلا شيء فى ذلك ولا حجة فيه للمبتدعة الذين يسألون الله تعالى بذات أحد من المخلوقين ، فهذا ليس توسلاً بذات أحد ولا بجاهه ، إنما هو توسل بصفات فعلية لله تعالى .

يقول أبو المعالى : فإن إجابته وإثابته من أفعاله وأقواله فصار هذا كقوله فى الحديث الصحيح : « « **اللهم أعوذُ برضاك من سخطكَ وبمُعافاتكَ من عُقوبتك ، وأعوذُ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك** » (٢) .

والاستعاذة لا تصح بمخلوق كما نص عليه الإمام أحمد وغيره من

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٣١١) انظر السلسلة الصحيحة للألبانى (٥/٧٠) .

(٢) رواه مسلم فى الصلاة (٤٨٦) والترمذى فى الدعوات (٣٤٩٣) والنسائى فى الاستعاذة (١٦٩) وأبو داود فى الصلاة (١٤٢٧) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٣٨٤١) وأحمد فى المسند (٢٥١٢٧) ومالك فى النداء (٤٩٧) .

الأئمة ، وذلك مما استدلوا بـه على أن كلام الله غير مخلوق ، ولأنه قد ثبت فى الصحيح وغيره عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « **أعوذُ بكلمات الله التامات من شر ما خلق** »[(١)] .

قالوا : والاستعاذة لا تكون بمخلوق ، فأورد بعض الناس لفظ المعافاة ، فقال جمهور أهل السُّنة : المعافاة من الأفعال . وجمهور المسلمين من أهل السُّنة وغيرهم يقولون : إن أفعال الله قائمة به ، وإن الخلق ليس هو المخلوق ، وهذا قول جمهور أصحاب الشافعى وأحمد ومالك ، وهو قول أصحاب أبى حنيفة ، وقول عامة أهل الحديث . (غاية الأمانى ٢/٣٣٨) .

من ذلك يتبين أن هناك فارقاً بين قولك بحق السائلين أو بحق الممشى ، وقولك بحق فلان من الناس نبياً كان أو ولياً ، فحق السائلين مناسب لكل سائل وعد الله تعالى بإجابة دعائه وهو من جملة السائلين ، فهو فى الحقيقة توسل بعمل صالح يرجو به المثوبة والجزاء ، أما حق فلان فهو يخصه هو ولا يخص غيره والتوسل به من الاعتداء فى الدعاء .

الحديث الثالث : لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لى فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال يارب : لما خلقتنى ونفخت فىَّ من رُوحك رفعتُ رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمتُ أنك لم تُضفْ إلى اسمك إلا أحبَّ الخلق إليك ، فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحبُّ الخلق إليَّ ، ادعنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك . (أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/٦١٥) .

---

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٨) والترمذى فى الدعوات (٣٤٣٧) وأبو داود فى الطب (٣٨٩٨) وابن ماجة فى الطب (٣٥٤٧) وأحمد فى المسند (٢٤٥٧٩) ومالك (١٧٧٤) والدرامى (٢٢٨٠) .

قال العلامة الألبانى - رحمه الله تعالى - : موضوع ونقل تعليق الذهبى عليه وفيه قال الذهبى : موضوع وعبد الرحمن واه وعبد الله بن مسلم الفهرى لا أدرى من هو (انظر الضعيفة : ٨٩/١) .

والرد على هذا الحديث كالذى قبله ، والقاعدة فيه أن جاه كل مخلوق يخصه هو ، ولا يخص غيره ، فهو سبب مناسب لصاحبه فقط ، والصالح لا يسأل ربه بجاهه وإنما يسأله بعمله . وتلك الصيغة المذكورة فى هذا الحديث بدعة مِردودة لا أصل لها ، ويضاف إلى ذلك أن الله تعالى علَّمَ آدم كلمات من عنده قالها فتاب عليه بها ، ولم يكن من جملتها تلك الكلمات المذكورة فى هذا الحديث كما زعم هؤلاء المتهوكون . قال تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال ابن كثير فى (التفسير ٨١/١) : قيل إن هذه الكلمات مفسره بقوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

هذه هي الكلمات التى قالها آدم عليه السلام ، ومن قال غير ذلك فليسند قوله إلى من يُعْتَبَرُ به فى أخذ الحجة ، وإلا فقوله مردود عليه ولا حجة فيه .

فائدة مهمة :

هذا الحديث مع ضعفه واستدلال الصوفية به إلا أنه يرد عليهم فى مسألة أن محمداً أول خلق الله تعالى ، فالحديث دليل على أن محمداً أشهر مكتوب ، وليس أول مخلوق ، والدليل على ذلك قوله : « وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه » ألا فليعتبر أصحاب التواشيح الصوفية .

بناء المساجد على القبور وشد الرحال إليها

القبر مدفن الميت ، وقد يراد به البرزخ ، والقبر إما أن يكون روضة ونعيماً أو عذاباً أليماً ، ولذلك أوصى النبى ﷺ بزيارة القبور ، فقال فيما رواه مسلم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : « **إنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فإنها تذكر الآخرة** » (١) .

وقد حث النبى الصحابة على الدعاء لأهل القبور والاستغفار لهم . قال جبريل عليه السلام – كما فى حديث عائشة رضى الله عنها – : « **إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم ، قالت : قلتُ : كيف أقول لهم يارسول الله ، قال : قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنّا إن شاء الله بكم للاحقون** » (١) .

سد ذرائع الشرك ووسائله :

لم يكن نهى النبى ﷺ عن زيارة القبور فى أول الأمر إلا لأجل أن عبادة الأصنام ما نشأت إلا من تعظيم الصالحين ؛ فكان النهى من باب سد الذرائع أى خشية أن تُتَخَذَ مُعْتكَفاً ووثناً ، كما يفعل الصوفية الآن عند قبور الأولياء .

وقد كان فى ضرب اللعنة على اليهود والنصارى ، الذين كانوا ولا يزالون يعظمون القبور ويقدسونها ويجعلونها أوثاناً تُعبدُ من دون الله تعالى ، أعظم النذير لهؤلاء الصوفية ، وغيرهم من أهل البدع الذين سوّل لهم الشيطان عبادة القبور

---

(١) رواه مسلم فى الجنائز (٩٧٦) وأبو داود فى الجنائز (٣٢٣٤) ، والنسائى فى الجنائز (٢٠٣٤) وابن ماجة فى الجنائز (١٥٦٩) وأحمد فى المسند (١٢٤٠) .

(٢) رواه مسلم فى الجنائز (٩٧٤) والنسائى فى الجنائز (٢٠٣٧) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٥٤٦) وأحمد فى المسند (٢٣٩٥٤) .

وتقديسها ، وهذا مما يتنافى مع الإسلام ، ولأجل ذلك وضع الإسلام لزيارة القبور قيوداً وحدوداً ، حتى لا تصير إلى مثل ما صارت إليه عند اليهود والنصارى ، وتبقى محصورة في العبرة والموعظة لا أكثر .

ومن هذه القيود :

روى الترمذى وحسنه عن ابن عباس قال : « **لعن رسول الله ﷺ زائرات القُبور والمتخذين عليها المساجد والسرج** » [(١)] ، قال ابن القيم : اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر . (انظر فتح المجيد ص ٢٠٦) .

ونهى عن الصلاة فيها وإليها ، فعن أبى سعد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام** » [(٢)] ، وعن أبى مرثد الغنوى أن النبى ﷺ قال : « **لا تجلسُوا على القبُور ولا تُصلوا إليها** » [(٣)] .

قال ابن قدامه -رحمه الله تعالى- فى (المغنى ٥٠٨/٢) : ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ومسحها والصلاة عندها . (انتهى) .

ونهى أن تُتَّخَذ عِيداً أو مقراً للاجتماع يُداوَمُ الحضور إليها والتعبد عندها مطلقاً ، أو فى أوقاتَ مخصوصة بصفات مخصوصة لما رواه أبو داود عن أبى

---

(١) رواه الترمذى فى الصلاة (٣٢٠) وأبو داود (٣٢٣٦) والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٣) وابن ماجة باب ما جاء فى الجنائز (١٥٧٥) وأحمد فى المسند (٢٠٣١) ، قال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح (٣٠٢٠) .

(٢) رواه الترمذى فى الصلاة (٣١٧) وأبو داود فى الصلاة (٤٩٢) وابن ماجة فى المساجد (٧٤٥) وأحمد فى المسند (١١٧٥) والدرامى فى الصلاة (١٣٩٠) ، انظر صحيح الترمذى (٣١٧) .

(٣) رواه مسلم فى الجنائز (٩٧٢) والترمذى فى الجنائز (١٠٥٠) وأبو داود فى الجنائز (٣٢٢٩) وأحمد (١٦٧٦٤) .

هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تجعلوا بيُوتكم قُبوراً ، ولا تجعلُوا قبرى عيداً وصلُّوا عليَّ فإنِ صلاتكُم تَبلُغنى حيثُ كنتم** » (١) ، ودعا الله تعالى ألا يجعل قبره وثناً يعبدُ لما رواه مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « **اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبدُ ، اشتد غضبُ الله على قومٍ** اتخذوا قُبور أنبيائهم مساجد » (تقدم تخريجه) .

قال العلماء : لا يُشْرَعُ للمسلم كلما دخل المسجد النبوى التردد إلى قبر النبى ﷺ للصلاة عليه والدعاء عنده ولا اتخاذه عيداً يعود إليه المرة بعد المرة لما رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تجعلوا بيُوتكم قُبُوراً ولا تجعلوا قبرى عيداً وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلُغنى حيث كنتم** » (انظر فتاوى اللجنة الدائمة برقم ٢٦٤١) .

ونهى أن تُدْخَلَ القبور فى المساجد أو تُضَافَ المساجد إليها ، وذلك لما رواه البخارى عن عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : « **لما نزل برسول الله ﷺ طفِق يطرحُ خميصةً له على وجهه فإذا اغتمَّ بها كشفَهَا عن وجهه فقال وهو كذلك : لعنةُ الله على اليهود والنصارى اتخذوا قُبور أنبيائهم مساجدَ يُحذِّرُ ما صنعوا** » (٢) .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح ٦٣٤/١) : وكأنه ﷺ علم أنه مُرْتَحِلٌ من ذلك المرض ، فخاف أن يُعظَّمَ قبرُه كما فعل من مضى ، فَلَعَنَ اليهود والنصارى إشارة إلى ذم من يفعل فعلهم . (انتهى) .

---

(١) رواه أبو داود فى المناسك (٢٠٤٢) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٧٧) وأحمد فى المسند (٨٥٨٦) .

(٢) متفق عليه : رواه البخارى فى اللباس (٥٨١٦) .

فلا يجتمع فى الإسلام مسجد وقبر أبداً كما هو عند النصارى واليهود ، وقد بين الإمام الشافعى – رحمه الله – علة النهى عن اتخاذ القبور مساجد خشية أن يؤول بها الأمر إلى أن تصير ذريعة للشرك والضلال . فقال فى (الأم ٤٢٥/١) : كَرِهَ الإمام الشافعى –رحمه الله تعالى – أن يُعَظَّمَ أحد من المسلمين يعني يُتَّخَذ قبره مسجداً ، ولم تُؤمَنْ بذلك الفتنة والضلال .(انتهى) .

وقد اتفق الأئمة أن المسجد إذا دخل فى القبر يبقى القبر ويهدم المسجد ، أما إذا دخل القبر فى المسجد نبش القبر وبقى المسجد منزهاً من ذرائع الشرك والبدعة .

قال شيخ الإسلام فى (الفتاوى ١٩٥/٢٢) : لا يجوز دفن ميت فى مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غُيِّرَ ، إما بتسوية القبر وإما بنبشه إن كان جديداً ، وإن كان المسجد بنى بعد القبر فإما أن يزال المسجد ، وإما أن تزال صورة القبر ، **فالمسجد الذى على القبر لا يُصلى فيه فرضٌ ولا نفلٌ ، فإنه منهى عنه** . (انتهى) .

ويكفى أن علمت أن الله تعالى أمر برفع المساجد وتعميرها كما قال تعالى فـى سـورة النـور : ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ** ﴾ [النور : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ** ﴾ [التوبة : ١٨] ، ولم يقل مشاهد الله ، وقد علمت مقابل ذلك أن النبى ﷺ أمر بهدم المقابر المشرفة على الأرض كما فى حديث أبى الهياج الأسدى قال : قال لي عليٌّ بن أبى طالب ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ، « **أن لا تـدع تِمثالاً إلا طمستَهُ ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سويْتَهُ** » [1] .

---

(١) رواه مسلم فى الجنائز (٩٦٩) والترمذى فى الجنائز (١٠٤٩) وأبو داود فى الجنائز (٣٢١٨) والنسائى فى الجنائز (٢٠٣١) وأحمد فى المسند (٦٨٥) .

شبهات الصوفية
في بناء المساجد على القبور

الشبهة الأولى: دخول الحجرة النبوية المسجد النبوى عام٩٤هـ:

هذه من جملة الشبهات التى تحظى بمكانة عند الصوفية ، ويجيزون بها بناء المساجد على القبور ، وهى عليهم وليست لهم ؛ وذلك لأن الحجرة التى دُفِنَ فيها النبى ﷺ لم تدخل فى مسجده الشريف فى وجود أحد من الصحابة ، إنما كان ذلك فى زمن الوليد بن عبد الملك لما أراد توسيع المسجد النبوى ، وقد كان ذلك فى زمن التابعين ، وقد أنكر ذلك سعيد بن المسيب رضي الله عنه وهو من كبار التابعين .

وبالرغم أن الحجرة النبوية دخلت المسجد النبوى فإن قبر النبى ﷺ لم يُتَّخَذْ مسجداً ولا عيداً ولا وثناً ، لدعاء النبى ﷺ ، ولعدم استطاعة أحد أن يدخل القبر ، حتى لو أراد مجرد إلقاء السلام على النبى ﷺ ، ولا يستطيع أن يصلى فيه ؛ فقد أُغْلِقَ بعد وفاة عائشة رضى الله عنها ، وأحيط بثلاثة من الجدران .

قال ابن القيم فى (النونية ٢/٣٥٢) :

ولقد نهى ذا الخلق عن إطرائه	فعل النصارى عابدى الصلبان
ولقد نهانا أن نُصَيِّر قبره	عيداً حذر الشرك بالرحمن
ودعا بألا يُجْعَلَ القبرُ الذى	قد ضمه وثناً من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه	وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه	فى عزة وحماية وصيان

والذى ينبغى التأكيد عليه أن النبى ﷺ لم يُدْفَنْ فى مسجده كما يظنُّ أصحاب الشبهات ؛ فإن ذلك نقض لكلامه ، وهذا لا يجوز أبدا أن يخالفنا لما

ينهانا عنه ، فقد صح عنه كما فى مسند الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ فى مرضه الذى لم يقُم منه : « **لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد قال وقالت عائشة : لولا ذلك أبرز قبره ولكنه خشى أن يُتّخذ مسجداً** » (١) .

ولما كان تغير الأزمان والسلاطين أمراً غير مطمئن لبلوغ مقصد النبى ﷺ فى سد تلك الذرائع حث النبى ﷺ أصحابه وأتباعه على دينه ووصاهم قبل موته ألا يتّخذُوا قبره عيداً ، ودعا ربه ألا يجعلهُ وثناً يُعبدُ ، وآثر أن يُدفن فى بيته ، ومنع أن يُبْرَزَ قبرُه للخلائق فى مكان بعيد لئلا ينشىء عليه الجهال مسجداً .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم بوصاياه مستمسكين ، وبعده موفين، فلم يتخذوا القبر عيداً ، ولا موضعاً للصلاة ، ولا وثناً يُعبدُ من دون الله تعالى ، وما توا على ذلك ، فطوبى لمن مات على مثل ما ماتوا عليه .

ملحوظة : وقد فصلنا فى مقدمة الكتاب بيان هذه الشبه وأسبابها .

الشبهة الثانية : بناء المسجد على الكهف :

يزعم الصوفية أن ما قيل فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] دليل على جواز بناء المساجد على القبور ، وهذا فيه نظر من وجهين :

الأول : أن هؤلاء الذين بنوا هذا المسجد على أولئك الفتية هم الذين غلبوا من الولاة والسلاطين على العلماء والدعاء ، ولو كان مجرد الفعل لا يرجع إلا إلى ذلك فهذا دليل كافٍ على سقوط الاستدلال به .

قال ابن كثير (٣/٧٩) : حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين

---

(١) متفق عليه : انظر البخارى كتاب الجنائز (١٣٣٤) وهذه رواية الإمام أحمد فى المسند (٢٣٩٩٢) .

أحدهما : أنهم المسلمون منهم ، والثانى أهل الشرك منهم فالله أعلم ، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ . (انتهى) .

الثـــانـى : أن هذا مخالف لشريعة الرسول ﷺ ، وكان قد أخبر بحدوث ذلك فى الأمم السابقة من اليهود والنصارى ، وبين أنهم كانوا يبنون على قبور الصالحين ، ويتخذونها مساجد ، ثم حذر من ذلك لحديث عائشة السابق ؛ فدل ذلك على أن فعلهم لم يكن تابعاً لشريعة من الشرائع ؛ لأنه استوجب النكير واللعنة ، ولو قُدِّر أن فعلهم هذا كان تابعاً لشريعة من الشرائع السابقة فإنه منسوخ بشريعة النبى محمد ﷺ كما ثبت فى سُنته الصحيحة .

وقد كان الصحابة يعلمون جيداً كيف أن بناء القبور على المساجد فتنة عمياء ، وذريعة من ذرائع الشرك والبدعة ، ولأجل ذلك ما كانوا يعلمون موضعاً يفتن الناس من هذه القبور إلاّ أزالوه أو أخفوه اتباعاً لسُنة النبى ﷺ . وهذا دليل على أن علة النهى لم تنته بموته ﷺ ، أو بثبوت التوحيد فى قلوب أصحابه كما يزعم الصوفية وغيرهم من أهل البدع . فلم يكن هناك أثبت منهم على التوحيد ، ومع ذلك كانوا حريصين أشد الحرص على تنفيذ وصاياه ﷺ ، ونبذ الشرك ووسائله فى أى مكان ، وفى أى زمان . وقد تقدم بيان ذلك فى وصية عليٍّ لأبى الهياج الأسدى .

وقال خالـد بن دينار حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا تستر وجدنا فى بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنـا أول رجل قرأه من العرب ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن ، فقلت لأبى العالية : ما كان فيه ، قال : سيرتكم وأموركم ، ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد ، قلت : فماذا صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها ، لِنُعَمِّيَهُ على الناس لا ينبِشُونَه ، قلت : وما يرجون منه ؟

قال : كانت السماء إذا حُبِسَتْ عنهم بَرَزُوا بسريره فيُمْطَرُون ، فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال ، فقلتُ من كَمْ وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة ، قلتُ : ما كان تغير منه شيء ؟ قال : لا إلا شعيرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض . (انظر تاريخ الطبرى حوادث سنة ١٧ هـ) .

قال ابن رشد : **كَرِهَ مالك البناء على القبر ، وجعل البلاطة المكتوبة ، وهو من بدع أهل الطول ، أحدثوه إرادة المفاخرة والمباهاة والسمعة ، وهو مما لا اختلاف فيه** . (انظر فتح المجيد ص ١٦٩) .

وقال ابن القيم – رحمه الله تعالى – : يجب هدم القباب التى بنيت على القبور ؛ لأنها أُسِّسَتْ على معصية الرسول ﷺ ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما فى القرافة من الأبنية . (انظر فتح المجيد ص ١٩٥) .

متى ظهرت المشاهد فى ديار الإسلام ؟ :

لم تظهر بدعة اتخاذ المشاهد فى زمن الصحابة رضوان الله عليهم فمتى ظهرت المشاهد ومن الذى دعا إلى تعظيمها وتشييدها ؟؟ .

يقول شيخ الإسلام فى (الفتاوى ١٦٧/٢٧) : ولم يكن فى العصور المفضلة مشاهد على القبور ، وإنما ظهر ذلك وكثر فى دولة بنى بويه ، لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب ، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام ، وكان فى بنى بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك ، ومن بدع الجهمية والمعتزلة والرافضة ما هو معروف لأهل العلم فبنوا المشاهد المكذوبة كمشهد عليّ رضي الله عنه وأمثاله . وصنف أهل الفرية الأحاديث فى زيارة المشاهد والصلاة عندها والدعاء عندها وما يشبه ذلك ، فصار هؤلاء الزنادقة وأهل البدع المتبعون لهم يعظمون المشاهد ، ويهينون المساجد ، وذلك ضد دين المسلمين ، ويستترون بالتشيع . (انتهى) .

لمصلحة من ظهرت تلك المشاهد ؟ :

قال الشيخ الألباني – رحمه الله رحمة واسعة وأنزله منازل الصديقين – : علم الكفار الغربيون هذه الضلالة التى وقع فيها كثير من المسلمين لا سيما الشيعة منهم ، فاستغلوها حتى فى سبيل تحقيق مطامعهم الاستعمارية ، فقد قال فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى – رحمه الله – فى فتوى له فى النهى عن زخرفة القبور وبناء القباب والمساجد عليها : **وبهذه المناسبة أذكر أن أحد كبار المستشرقين حدثنى عن بعض أساليب الاستعمار فى آسيا ، أن الضرورة كانت تقتضى بتحويل القوافل الآتية من الهند إلى بغداد ، عبر تلك المنطقة الواسعة ، إلى اتجاه جديد للمستعمر فيه غاية ، ولم تجد أية وسيلة من وسائل الدعاية فى جعل القوافل تختاره ، وأخيراً اهتدوا إلى إقامة عدة أضرحة وقباب على مسافات متقاربة فى هذا الطريق** . وما هو إلا أن اهتزت الإشاعات بمن فيها من الأولياء ، وبما شوهد من كراماتهم ! حتى صارت تلك الطريق مأهولة مقصودة عامرة . **وأحب أن أرسلها كلمة خالصة لوجه الله إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها** أن يقلعوا عن تضخيم المقابر ، فإنها نُعَرَّة للفرد ودعوة إلى الأنانية وإلى الأرستقراطية الممقوتة التى قتلت روح الشرق ، وأن يعودوا إلى رحاب الدين التى تُسَوِّى بين الناس جميعاً أحياءاً وأمواتاً لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وما قدمت يداه من أعمال خالصة لوجه الله . (انظر تحذير الساجد ص ١١) .

النهى عن شد الرحال إلى القبور :

ونهى النبى ﷺ أن تشد الرحال إلى القبور ، وذلك لما رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثلاثَة مَسَاجِدَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ ومَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ ومَسْجِدِ الأَقْصَى** » (١) .

---

(١) متفق عليه : رواه البخارى فى الجمعة (١١٣٢) .

ففى هذا الحديث نهى صريح عن شد الرحال للتبرك ببقعة معينة ، غير هذه الأماكن التى حددها الحديث ، وفيها من الثواب ما هو معلوم وهو المقصود من التبرك ، وذلك سَدّاً لذرائع الشرك وعبادة الأوثان ، وهى لا شك كائنة عند مقابر كثير من الأولياء وآثارهم ، وهذه لا شك لا يخص الترحال لطلب العلم ولا للتجارة ، ولا لزيارة قريب أو صاحب ؛ لأن هذه الرحلات لا تخص بقعة معينة ، إنّما تخص مَنْ فى البقعة مما هو من ضروريات الشريعة ، فقد ثبت الأمر بالرحلة لطلب العلم والتجارة والزيارة ، وهذا أمر مبسوطٌ عند علماء السلف مشروعيتهُ والعملُ به ، بخلاف التِرْحَالِ لغير المساجد الثلاثة ، فإنه منهيٌ عنه .

قال الشّيْخ وليُّ الله فى (حُجَّةِ الله البالغة) : كان أهل الجاهلية يقصدون مواضع معظمة بزعمهم يزورونها ويتبركون بها ، وفيه من التحريف والفساد ما لا يخفى ، فَسَدَّ النبى ﷺ الفساد لئلا يلتحق غيرُ الشعائر بالشعائر ، ولئلا يصير ذريعةً لعبادة غير الله ، والحق عندى أن القبر ، ومحل عبادة وليٍّ من أولياء الله ، والطور ، كل ذلك سواء فى النهي . (انظر عون المعبود ١٢/٦) .

الصوفية والمقابر :

قال ابن القيم – رحمه الله – : وما زال الشيطان يوحى إلى عُبَّادِ القبور ، ويُلْقي إليهم أن البناء والعُكُوفَ عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندهم مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها ، والإقسام على الله بها ، فإن شأن الله أعظم من أن يُقْسَمَ عليه أو يُسْأَلَ بأحد من خلقه ، فإذا تقرر عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً تُعلَّقُ عليه القناديل والستور ، ويُطَافُ به ويُسْتَلَمُ ويُقَبَّل ويُحَجُّ إليه ، ويُذْبَحُ عنده ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم إلى عبادته واتخاذه عِيداً ومنّسكاً ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وأخراهم ،

وكل هذا مما قد عُلِمَ بالاضطرار من دين الإسلام أنه مُضَادٌ لما بُعِثَ به رسول الله ﷺ منْ تجديد التوحيد ، وأن لا يُعبد إلا الله ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تَنَقَّصَ أهل هذه الرتب العالية ، وحَطَّهُمْ عن منزلتهم ، وزَعَم أنه لا حُرْمَةَ لهم ولا قَدْرَ ، فيغضبُ المشركون وتشمئز قلوبهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر : ٤٥] ، وسَرَى ذلك فى نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادَوْا أهل التوحيد ورَمَوْهُمْ بالعظائم ، ونَفَّرُوا الناس عنهم ، ووَالَوْا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله ، ويأبى الله ذلك ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٤] (انظر فتح المجيد ص ١٨٢) .

من لهذه الفتنه ؟ :

والصوفية فعلوا ذلك كله وضَرَبُوا بأحاديث الرسول ﷺ عرض الحائط ، وتعمدوا إدخال قبور أوليائهم فى المساجد ، وزينوها وشيدوها وعَمَّروها ، وعظَّموها وقدّسوها ، واتخذوها عيداً ، ومُعْتَكَفاً ، ووثناً يُعبد من دون الله تعالى ، معاندين بذلك رسول الله ﷺ ، ومخالفين أمره وحُكْمَهُ الذى حَكَمَ به .

وقد انتشرت تلك القبور التى بُنِىَ عليها فيما بعد مساجد للصوفية ، فى كثير من بلاد المسلمين إلا بلاد الحرمين الشريفين .

وقد رأينا كيف أن تلك الأراضى التى بَنَى عليها الصوفية هذه المشاهدَ قد اغْتُصِبَتْ من أصحابها ؛ لتصير عيداً ووثناً يُعبد من دون الله تعالى ، فيعتكفون حولها ويطوفون بها ، ويعتبرون الطواف بها أعظم من الطواف حول الكعبة ، والحجَّ إليها أعظم من الحج إلى البيت الحرام ، وهذه الملايين عند البدوى

شاهدة على ذلك ، وتراهم يتمسحون بترابها ويتبركون ، وتراهم يبكون ويستغيثون بأشياخهم وينادونهم من دون الله ، وتراهم يذبحون الذبائح لهم ويقدمون القرابين ويوفون بالنذور ، كل ذلك من أعظم الشرك بالله العظيم .

فَمَنْ لهذه القبور وهذه الأوثان التى تُعبد من دون الله فيسويها بالتراب ، وينفذ وصية رسول الله ﷺ كما أنفذها عليّ رضي الله عنه ، فيرفع راية التوحيد ويعبد الناسُ الله ربَّ العالمين وحده لا شريك له ، من لهذه المشاهد التى عُمِّرَتْ ، من لهذه المساجد التى خُرِّبَتْ ؟ فيجعل القبور قبوراً لزوارها بلا وثنية ولا شرك ، والمساجد مساجد لعمارها يدعون فيها الله وحده لا يدعون معه أحداً ، فينال على ذلك الأجر فى الدنيا والآخرة ؟ .

إن الله تعالى أمر نبيه محمداً ﷺ أن يهدم مسجد الضرار الذى أقامه المنافقون فى المدينة ، كفراً ، وتفريقاً ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وقال له : ﴿ **لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ** ﴾ [التوبة : ١٠٨] ونهاه عن الصلاة فيه إظهاراً لمخالفتهم ، وتهويناً لنياتهم ، واحتقاراً لأعمالهم .

وتلك المشاهد لا تقل ضرراً عن مسجد الضرار الذى أقامه المنافقون فى المدينة ، فقد أصبحت تلك المساجد مرصداً للمبتدعة ، وباباً للشرك ودعوة للوثنية ، ومحلاً للرقص والغناء والتصفيق ، وبنْكاً لأكل أموال الناس بالباطل .

فلا أقل من أن تُهْدَم تلك المساجد إذا كانت داخلة على تلك القبور ، أو تسوى تلك القبور أو تنبش ويدفن أصحابها فى مقابر المسلمين ، كما اتفق على ذلك علماء المسلمين ، وذلك حفظاً لاعتقاد العامة ودرءاً للفتنة ، وإظهاراً للتوحيد ، واتباعاً لسُنة الحبيب وتنفيذاً لوصيته ﷺ .

وإلا فإن المقرين بذلك مُعَرَّضُونَ لمرض في القلب ، ووهن في النفس ، وسواد في الوجه ، وبُغْضٍ في قلوب الناس ، وذلك لمخالفتهم أمر رسولِ الله ﷺ وتشبههم بألد أعدائه وأبغض خصومه اليهود والنصارى ، وقد صُبَّ عليهم أعظم اللعنات لأجل أنهم بنوا المساجد على القبور كما تقدم .

قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

والفتنة : الشرك ، وقيل النفاق ، وقيل البدعة ، تصيب قلوبهم فلا يخلصون منها أبداً .

إسقاط التكاليف الشرعية

للصوفية فى إسقاط التكاليف الشرعية أربعة مداخل :

المدخل الأول : طريق من قال بالحلول والاتحاد :

فالفاعل عندهم واحد ، فالعابد عين المعبود ، والمكلِّف عين المكلَّف ، فالعالم عندهم هو الله ، الله هو العالم ؛ فمن الذى يعاقِّبُ؟ ومن الذى يُثيبُ ؟ ومن الذى يأْمُر ؟ ومن الذى يأتَمِرُ ؟ إذا كان الكل شيئاً واحداً . وهذا ولا شك إسقاط للتكاليف وإبطال للرسالات .

يقول ابن عربى فى (فتوحاته ٢/٤٠٦) :

العبد رب والرب عبد ياليت شعرى من المكلف
إن قلت رب فذاك عبد أو قلت رب أنَّى يكلف

وهذا هو طريق ابن عربى وابن الفارض والجيلى والصدْر القونوى والعفيف التلمسانى والحلاج وغيرهم .

وهذا هو المعتقد الآسن الذى أوقع طائفة كبرى من الصوفية فى الانحلال والانحطاط ؛ حتى أرهقهم العمى وبلغ منهم مبلغاً عظيماً ، ليقولوا إن الأديان كلها شيء واحد كما قال ابن عربى فى (ترجمان الأشواق ص ٣٩) .

المدخل الثانى: طريق من قال: « حدثنى قلبى عن ربى » :

وهو طريق من أبطل علوم الأنبياء وشرائع المرسلين ، اعتماداً على عطاءات الأسرة ، وشطحات الخلوات ، ووساوس الشياطين ، وهو طريقُ مَنْ مَدَّ أُذُنَه لكل وَارِدٍ ، وأخذ دِينَه من كل آبقٍ ، وحكم وقضى بلا شاهد ولا ضابط ، وزعم زوراً وبهتاناً أنه من الله تعالى لِيغرى به العوام .

يقول ابن عربى : جميع ما كتبتُه وأكتبه إنما هو عن إملاء إلهى وإلقاء ربانى أو نَفْثٍ روحانىٌ فى روعٍ كيانى (انظر اليواقيت والجواهر ٢/٢٤) .

يقول أبو يزيد البسطامى : أخذتم علمكم ميّتاً عن ميّتٍ ، وأخذنا علمنا عن الحيٍّ الذى لا يموت ، يقول : أمثالنا حدثنى قلبى عن ربى ، وأنتم تقولون : حدثنى فلان وأين هو ؟ قالوا : مات عن فلان ، وأين هو ؟ قالوا : مات . (انظر الفتوحات ١/٣٦٥) .

وهذا كما ترى على غير عادة الصوفية فى تعظيم الأموات والنقل عنهم يقظة ومناماً كما يزعمون عن شيوخهم ، تجدهم هنا كما فعل أبو يزيد لا يصلحون أن يُؤْخَذَ منهم شئ أو يُنْقَلَ عنهم شىء ، ونحن نتفق مع الشيخ أبى يزيد إذا كان يقصد أن الأموات لا يعلمون شيئاً ولا يستجيبون بشىء ، لكن نختلف معه بثبوت آثارهم وأخبارهم الصحيحة ، بأسانيد معلومة وسلاسل موصولة .

وقد أبقى الله تعالى لأمة الإسلام الجهابذة العِظَام الذين يحملون السُنة وينقونها ، ويميزون صحيحها من ضعيفها ، ومنقطعها من موصولها ، وسالمها من شَاذِّها ، وهكذا حتى يقع اليقين بثبوت هذه العلوم عن رسول الله ﷺ .

وإذا تهاون الصوفية فى حق هؤلاء النقلة والحُفَّاظ العِظَام فسنقول لهم : إن الدين الحق لم ينقل إلينا إلا عن طريقهم ، ولولاهم ما عرفنا نحن ولا أنتم عن الإسلام ولا عن نبى الإسلام شيئاً .

هكذا تثبت العلوم فى الإسلام ، لكن كيف يثبت أبو يزيد البسطامى وابن عربى الحاتمى علومهما عن الله ورسوله بلا واسطة كما يزعمون ، وقد انقطع الوحى وخُتِمَتْ النبوة .

لماذا لا يكون هذا الوحى الذى ينزل عليهما من تلاييس الشياطين ، ولماذا لا يكون من أوهام العقل وأحاديث النفس ولماذا ولماذا ؟؟ .

وأنت تعلم أيها المسلم أنهما ليسا بأنبياء ولا رسل حتى يُعْصَمَا من تلابيس الشياطين أو يُنْسَخَ لهما ما هم فيه من الخيالات والأوهام .

يقول ابن القيم - رحمه الله - حاكياً عن شيخ الإسلام : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات « حدثنى قلبى عن ربى » ، فصحيح أن قلبه حدثه ولكن عمن ؟ ، عن شيطانه أو عن ربه ؟ فإذا قال : « حدثنى قلبى عن ربى » كان مُسْنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به ، وذلك كذب وقال : ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ، ولا تَفَوَّهَ به يوماً من الدهر . وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك ، بل كتب كاتبه يوماً « **هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** » فقال : **لا امْحُهُ واكتُبْ هذا ما رأى عمر بن الخطاب ، فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه برئ** » وقال فى الكلالة : « **أقول فيها برأيى فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان** » فانظر إلى ما بين القائلين ، والمرتبتين ، والقولين ، والحالين ، وأعط كل ذى حق حقَّه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً . (انظر تهذيب المدارج ص ٤٧) .

فإذا كان عمر المحدث المُلْهَم غير معصوم من أمانى الشياطين ، مع شدة خوفهم منه ، وقد قرأتَ هذا الذى حكاه شيخ الإسلام ، وعرفت ماذا قال عمر يوم الحديبية ، وماذا قال يوم أن مات النبى ﷺ ؛ تبين لك أن الإلهام مهما كان صاحبه لا يُرْفَعُ فوق منزلة التشريع والنبوة لأنه غير معصوم . واستبدال مناهج الأنبياء من أَعْظَمَ سبلَ الفساد .

وقد قال ابن عباس : **يوشك أن ينزل عليكم حجارة من السماء إذا قلت لكم قال رسول الله وتقولون قال أبو بكر وعمر** . (انتهى) .

وربما أن بعضهم لا يقنعه كلام شيخ الإسلام ولا تهديد ابن عباس ولا ورع عمر وخوفه فيرده بحجة أن الأولياء محفوظون ، أو أنهم أعلى من عمر فى

المقام ، فليأخذوا إذَنْ كلام ابن عربى حيث يقول فيما نقله عنه الشعرانى فى (اليواقيت والجواهر ٨٧/٢) : **واعلم أن الشيطان لا يزال مراقباً لقلوب أهل الكشف ، سواء كان أحدهم من أهل العلامات أو لم يكن ؛ لأن له حرصاً على الإغواء والتلبيس** . (انتهى) .

المدخل الثالث : طريق الملامتية :

والملامتية هم أتباع أبى حمدون القصار ، والذين نخصهم بالذكر فى هذا البحث هم ملامتية الترك ، وهم صوفية الإباحية الذين أباحوا لأنفسهم ارتكاب المحرمات والولوج فى الكفر والضلالات وترك الفروض والسُنن وسائر الطاعات ؛ لأجل أن يسقط جاههم عند الناس ويبقى جاههم عند الله تعالى كما يزعمون وهؤلاء فى الحقيقة سقطوا فى الفتنة ، وتقلبوا فى الحرام واستمرءوا الضلال ، فلا جاههم عند الناس أبقوا ، ولا حظهم عند الله نالوا .

حكى أبو حامد الغزالى عن ابن الكرينى أنه قال : نزلت فى محلة فعُرِفتُ فيها بالصلاح ؛ فنشب فى قلبى ، فدخلتُ الحمام وعينْتُ على ثياب فاخرة ، فسرقتها ولبستُها ، ثم لبستُ مرقعتى ، وخرجتُ فجعلتُ أمشى قليلاً قليلاً ، فلحقونى فنزعوا مرقعتى ، وأخذوا الثياب ، وصفعونى ، فصرت بعد ذلك أعرف بلصِّ الحمام ، فسكنتْ نفسى . (انظر تلبيس إبليس ص ٣٥٥) .

المدخل الرابع : طريق الفناء فى الربوبية :

كان هذا الأمر شائعاً عند قدامى الصوفية ، وهو من أجل علومهم ، ومنتهى أسرارهم . وغُلاة الصوفية فى هذا الطريق – طريق الفناء والجمع – يزعمون مشاهدة حقيقة الملك والملكوت ، وصفات الأمر والخلق والتدبير ، وهذا هو غاية توحيد الربوبية .

يقول القشيرى فى الرسالة : الحقيقة مشاهدة الربوبية (انتهى) .

وهذا والله لا يزيد على ما قاله كفار قريش فى توحيد الربوبية شعرة ، فقد كانوا يقرون بالخلق والأمر والملك والتدبير ، وكانوا يحتجون بالمشيئة الكلية العامة الشاملة لجميع المخلوقات على صحة ما هم فيه من دين ، وذلك كما حكى الله تعالى عنهم : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام ١٤٨] .

وغُلاة الصوفية فى كل حال لا يفرقون بين المحبوب والمكروه ، والأمر والنهى ، والإيمان والكفر ، إنما يرون ذلك كله شيئاً واحداً . فهم باختصار لا يفرقون بين الإرادة الدينية والإرادة الكونية ؛ لأنهم يشهدون فى حال الفناء الخلق العام والمشيئة الكلية .

قال شيخ الإسلام فى (الفتاوى ١٠١/٨) : وهؤلاء يدعون التحقيق والفناء فى التوحيد ويقولون : إن هذه نهاية المعرفة ، وإن العارف إذا صار فى هذا المقام لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة ، وهذا الموضع وقع فيه من الشيوخ الكبار من شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام . (انتهى) .

فهم يقولون : إن كنا مخالفين فى الشريعة والأوامر ، فنحن موافقون فى الإرادة والإذن ، فتراهم يمضون فى التقدير الكونى « وهى المشيئة الكونية » غير مبالين ، إن كان هذا يوافق التقدير الشرعى (وهى الإرادة الدينية) أم لا يوافقه . قال الجيلى :

وأسلمت نفسى حيث أسلمنى الهوى ... ومالى من حكم الحبيب تنازع
إذا كنت فى حكم الشريعة عاصياً ... فإنى فى علم الحقيقة طائع

والظاهر أن الصوفية يتخبطون فى فهم الطاعة والمعصية ، يفرقون تارة ويجمعون تارة ، وفى نهاية الأمر فالجميع مُرادُ الله ، وإلا قالوا فالجميع هو الله كما يقول الاتحادية .

وفى حال الفناء تسقط التكاليف، يحكى الشعرانى فى(الطبقات ١/٨٩) عن أبى بكر الشبلى : وأخَّرَ مرة العصر حتى دَنَتْ الشمس إلى الغروب ، فقام وصلي وأنشد مداعباً وهو يضحك ويقول : ما أحسن ما قال بعضهم :

نَسِيتُ اليوم من عشقى صلاتى فلا أدرى عَشائى من غَذائى

إنكار الجنيد على القائلين بإسقاط التكاليف :

كان الجنيد بن محمد يفضل مقام الصحو على مقام الفناء والجمع ، ولما رأى من لم يفرق فى حال الجمع أنكر ذلك ، كما أنكر على من زعم أن الوصول يُسْقِطُ التكاليف ويضعُ الأعمال الصالحة . وقد حكى القشيرى فى الرسالة أن رَجلاً سأل الجنيد قائلاً : إن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل .

فقال الجنيد : **إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيم ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا** . (انتهى) .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلانى فى (الفتح الربانى ص ٢٩) : ترك العبادات المفروضة زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية ، لا تُسْقَطُ الفرائض عن أحد بحال من الأحوال . (انتهى) .

وقد علمت أخى المسلم أن اليقين الذى يحتج به الصوفية من قول الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر : ٩٩] هو الموت ، وليس هو الوصول الذى يزعمونه لقطع التكليف ، والدليل على ذلك قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المدثر : ٤٦ ، ٤٧] .

الباب الخامس
جدال المتصوفة

إن المتأمل فى تاريخ الإسلام يرى أن حياة المسلمين كلها علم ومناظرة ، ومشورة ومذاكرة ، فقد تناظر الصحابة - رضوان الله عليهم - فى حد شارب الخمر وجاحد التحريم ، وكذلك تناظروا فى المسائل الدقيقة ، التى تخفى على كثير من الناس ، وتناظروا فى الأمور المهمة والأوقات الحَرِجَة العصيبة ، وذلك لمعرفة الحق واستخراج الأدلة من بواطنها . فقد جادل الصديق رضي الله عنه من خالفه فى قتال مانعى الزكاة ، حتى رجعوا إليه ، وناظرهم فى جمع المصحف حتى وافقوا رأيه ، وهكذا شأنهم فى جميع المسائل العلمية ، حتى هداهم الله إلى الحق بإذنه .

ولا شك أن الناقد البصير إما أن يكون عنده زيادة علم فينفع غيره ، وإما أن يسمع ما يهتدي به ويصدع . أما التجبر والإغلاق والفردية والأنانية فليست من سمات أهل السُّنة ، فأمرهم دائماً كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] فالمناظرة باب من أبواب البيان وإقامة الحجة ونشر العلم النبوى ، وفيها روح الاعتذار إلى الله تعالى ، وفيها مَخْرَجٌ من كتمان العلم ، الذى هو متابعة للشيطان الرجيم فى دعاواه ، فلا يجوز السكوت على تلك البدع وهذه المنكرات إيثاراً للسلامة ، وإرضاءاً للخصوم ؛ لأجل عرضٍ من أعراض الدنيا حقير ، ولا يجب أن تؤجل النصيحة فى هذا الأمر إلى مدى لا يُعْلَم ، كما هو الشأن فى أولئك الذين يرون أن إنكار مثل هذه الضلالات من توابع التمكين فى الأرض ، فإذا مُكِّنَ لطائفة أنكرتْ ذلك ، أما قبل ذلك فليس هذا من شأنها ، أو فليس هذا بأهم من التمكين ، حتى تنشغل به عنه

كما يزعمون ، وقد نسى هؤلاء وأولئك أن ذلك مما يُعينُ هؤلاء على الاستمرار فى غيهم والتظاهر بضلالهم .

وهذا من أعظم الفتن وأى فتنة أعظم من الوقوع فى نواقض التوحيد ، والتظاهر بمحبطات الأعمال ؟ ، وأى مصلحة فى مداهنة أهل البدع ومصاحبتهم ؟ ، وأى بدعة أعظم من التصوف ، وقد جَمَعَتْ فى طياتها البدع العقائدية القولية والبدع التعبدية ، التى ما أنزل الله بها من سلطان ؟ وقد نسى هؤلاء وأولئك أن النبى ﷺ أمر بالتوحيد ونبذ الشرك ، قبل أن تكون له دولة أو يمكن على أمة .

نعم إن النبى ﷺ لما مُكِّنَ أمر بِطَمْس الصور وتسوية القبور ، بينما لم يكن ذلك قبل التمكين ، ولكن الأمر بالتوحيد والدعوة إليه ونبذ الشرك والنهى عنه لم يعطل قبل ذلك بحجة أنه لم يمكن .

ولقد استمر الأمر من بعده ﷺ قائماً على نبذ البدع والخرافات ، والدعوة إلى التوحيد ، ولما ظهرتْ الفرق وانتشرت الضلالات قَيَّضَ الله تعالى لها من أهل العلم المحققين الذين يَرُدُّونَ عليها بعلم راسخ ، ودين قويم ، فهم ليسوا من أصحاب الأهواء الذين يداهنون لأجل مَغْنَمٍ ، أو يسكتون لأجل عَرَضٍ ، إنما هم قوم حَصَرُوا أنفسهم فى مرضاة الله تعالى وحده دون النظر إلى ما سواه ، خلافاً لهؤلاء الذين يتقلبون فى الأهواء .

فانظر إلى أى مدى كيف تتغير صورة الحكم على تلك البدع ما لو أنها ظهرت فى هذه القرون البعيدة عن العلم النبوى الصحيح ، والمتشربة بالأهواء ، والمتقلبة فى الفتن وحب التقليد ، ومحاكاة أهل الكتاب عاداتهم وتقاليدهم .

وترجع أهمية المحاضرات والمناظرات إلى تفاوت الناس فى المفاهيم ، وحاجاتهم إلى البيان والإيضاح ، إضافة إلى كثرة العوائق التى تحول دون فهم

الحق فهماً صحيحاً مجرداً من كل شائبة كما أراد الله تعالى .

والمتأمل فى التاريخ يعلم أنه ما من دين تعرض لما تعرض له الإسلام من الحملات المغرضة ، والغزوات الآثمة ، التى تعمل بالليل والنهار لتشويه صورته وطمس معالمه ، وتنفير الناس عنه ، إما بالطعن فى الصحابة رضوان الله عليهم ، حتى تُهْجَر السنَّة ويُنْكَرَ الوحى ، أو بتأويل الدين على مقتضى الأهواء والأذواق التى تتناسب مع الحياة ، بحيث لا يصير ثَمَّ فارق بين صاحب الدين وصاحب الهوى ، وهذه كلها موانع تحول دون اكتشاف الحق على حقيقته ، ومعرفة الدين معرفة صحيحة ، سالمة من الهوى بريئة من التهم ، ولأجل ذلك شُرِعَتْ المناظرات والمجادلات والخطب والمحاضرات والمراسلات ؛ ليظهرَ الحق ويَدْرَسَ الباطلُ ، ويعودَ من فى قلبه ريب أو شبهة إلى الحق . ولا شك أن الوقوف على ما وقف عليه النبى ﷺ وأصحابه خير للأمة أفراداً وجماعات من التمادى فى الباطل ، الذى ينتهى إلى سخط الله وأليم عقابه .

وهذا حبر الأمة عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – خرجْ لمجادلة الخوارج ومناصحتهم حتى عاد بطائفة عظيمة، تابت على يديه بإذن الله تعالى .

ولما التقى عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما مع الخوارج قال لهم : أخبرونى على ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ ، وزوج ابنته وأول من آمن به ؟ .

قالوا : ننقم عليه ثلاثة أمور ، قال : ما هى ؟ ، قالوا : أولها : أنه حَكَّم الرجال فى دين الله .

وثانيها : أنه قاتل عائشة ولم يأخذ غنائم ولا سبايا ..

وثالثها : أنه محا عن نفسه لقب أمير المؤمنين مع أن المسلمين بايعوه وأمَّروه.

فقال : أرأيتم إن أسمعتكم من كتاب الله وحدثتكم من سُنة رسول الله ما لا تنكرونه ، أترجعون عما أنتم فيه ؟ قالوا : نعم .

قال : أما قولكم إنه حَكَّم الرجال في دين الله فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ** ﴾ [المائدة : ٩٥] ، أنشدكم الله أفحكم الرجال فى حقن دمائهم وأنفسهم ، وصلاح ذات بينهم أحق أم حكمهم فى أرنب ثمنها ربع درهم ؟ .

فقالوا : بل حقن دماء المسلمين وصلاح ذات بينهم .

فقال : أخرجنا من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم .

قال : أما قولكم : إن علياً قاتل ولم يُسْبِ كما سَبَى رسول الله ﷺ ... أفكنتم تريدون أن تسبُّوا أمكم عائشة ، وتستحلونها كما تستحلون السَّبايا ؟ فإن قلتم نعم فقد كفرتم . وإن قلتم إنها ليست بأمكم كفرتم أيضاً ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ [الأحزاب : ٦] .

فاختاروا لأنفسكم ما شئتم . ثم قال : أخرجنا من هذه أيضاً ؟ ، قالوا : اللهم نعم .

قال : أما قولكم : إن علياً قد محا عن نفسه لقب أمير المؤمنين فإن رسول الله ﷺ حين طلب من المشركين أن يكتبوا فى الصلح الذى عقده معهم « هذا ما قَاضَي عليه مُحمَّدٌ رسولُ الله فقالوا : لو عَلمْنَا أنك رسولُ الله لمْ نَمْنَعْكَ ولكنِ اكْتُبْ هذا ما قَاضَى عَلَيْه محمَّدُ بنُ عَبْد الله » فنزل عند طلبهم وهو يقول : أنا والله مُحَمَّدُ بن عبد الله وأنا والله رسولُ الله وإن كذبتمونى . فهل خرجنا من هذه ؟ فقالوا : اللهم نعم . (انتهى) .

فرجع منهم أربعة آلاف كُلُّهم تائبٌ فيهم ابن الكَوَّاء حتى أدخلهم عَلَى عليٍّ الكُوفَةَ » [(١)] .

وينبغى أن يكون الحوار وتلك المناظرات وهذه الرسائل باللطف واللين ، والحكمة والموعظة كما بين الله تعالى فى كتابه : ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] ، بلا مداهنة ولا رُعُونة ، ولا ظلم ولا هوى ، ولا جهالة ، ولا ينبغى للمُنَاظِرِ أن يُعرِّضَ فى موضع يحتاج إلى تصريح ، ولا يُصرِّحَ فى موضع يحتاج إلى التلميح ، ولا يُعقِّدَ فى موضع يحتاج إلى التساهل ، ولا يتساهلَ فى موضع يحتاج إلى الاستمساك والاعتصام .

قال الشوكانى فى (فتح القدير ٣٤٩) : وقد ورد تسويغ الجدال بالتى هى أحسن لقوله تعالى : ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ونحو ذلك فينبغى أن يقصر جوازه على المواطنِ التى تكون المصلحة فى فعله أكثر من المفسدة ، أو على المواطن التى المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة . (انتهى) .

قال أبو السعود فى (الإرشاد ١٥١/٥) : وجادلهم أى ناظر معانديهم بالتى هى أحسن بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة ، من الرفق واللين واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات المشهور تسكيناً لِشَغَبِهم ، وإطفاء لَهَبِهم كما فعله الخليل عليه السلام . (انتهى) .

والمناظرات مع الصوفية ينبغى أن تؤسس على علم محكم لا على جهالة وشُبْهَة ، أما العلم فهو الأصل الذى يَرجِعُ إليه المتناظران عند كل اختلاف ،

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٦٠٨) والحاكم فى المستدرك (١٦٥/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه والبيهقى (١٧٩/٢) ومسند أبى يعلى (٣٦٧/١) وقال الشيخ حسين أسد : إسناده صحيح .

وليس إلا الكتاب والسُّنة ، وأما كونه محكماً أى لا يحتمل أوجهاً متعددة ، ومن لوازم صحة العلوم ردها إلى أسانيد معلومة الضبط والاتصال ، بعيدة عن الشذوذ والعلة والانقطاع ، وينبغى حصر المناقشات فى أصول الاعتقاد التي تحوى فى طياتها عظائم الكفر والضلال ، بعيداً عن المظاهر التى لا تُحْسَبُ بجوارها أبداً .

وكما قال العالم الربانى محمد بن عبد الوهاب : **ولا يقرب إلى ما سكت عنه الشرع رحمة بالناس ولا يقطع فى أمر يحتمله التأويل** . (انتهى) .

ولغُلاة الصوفية اعتقادات فاسدة فى الله تعالى ورسوله ﷺ ، وفى الأولياء ، وفى العبادات وفى الشريعة ، وفى مصدر التلقى ، وفى الجنة والنار ، وفى السياسة والسلطان ، ومنهم من يزكى إبليس ويمدح فرعون ويرونهما من الناجين من النار ، ومنهم من يرى نفسه مظهراً إليها ... إلخ .

فلا ينبغى أن تتقدم على تلك الأصول أمورٌ شكليةٌ ، تحول دون كشف حقيقة الضلال الذى يُطْوَى فى نفوس أهله .

والمُنَاظَرةُ سلاح ذو حدين فيها ما يوجب الضرورة ، وفيها ما يوجب الحَذَرَ ، أما جانب الضرورة فيها فهو فى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وهذا فرضٌ على كل قادر بحسبه كما اتفق على ذلك أهل العلم .

أما ما يوجب الحَذَرَ فهو أن تكون المناظرة سبباً لفتنة الضعفاء أو تكون سبباً لنشر أقوال أهل البدع وذيوعها فى الأمة دون أن تقترن بما يدفعها ويكون ذلك بسبب ضعف المُنَاظِر فى أن يُظْهِرَ حجتَه فى الحق أو يكون جاهلاً بأدلة الخصوم وشبهاتهم فيترتب على ذلك أنْ يُفَاجَأ بالشبهات ، بينما لا يكون مستعداً لها ؛ فيَظَهَرَ للعامة والجهلة أن الحق مع صاحب البدعة ، فينتصر له ويتبعه الناس ؛ فتكون المناظرة وبَالاً عليه وعلى من معه . فَيُفْتَنُ الضعيف ويَضِلُ صاحب

السلطان ؛ ولأجل ذلك حَذَّرَ النبى ﷺ من مجالسة أهل البدع ومصاحبتهم . روى البخارى ومسلم عن النبى ﷺ أنه قال لعائشة : « **فإذَا رأيْت الذين يتَّبعُونَ ما تَشَابَهَ منْهُ فأولَئك الذينَ سَمَّى الله فاحْذَرُوهُمْ** » (١) .

ويقول شيخنا فضيلة الشيخ / صالح الفوزان - حفظه الله تعالى - : تَحْرُمُ زيارة المبْتَدِع ومجالسته إلا على وجه النصيحة له والإنكار عليه . (كتاب التوحيد ص ١٢١) .

وعليه فيجب أن تُحْصَرَ المجادلات فى حيز أهل العلم حتى لا تَسْتَطِيرَ الفتن ولا تنتشر البدع ، ومن تتبع سبل شيوخ الإسلام السابقين ومن كان على طريقتهم فى نقض البدع وأهلها ، سَلِمَ وسَلِمَ من معه .

---

(١) متفق عليه : أنظر البخارى فى تفسير القرآن (٤٢٧٤) .

أين دور العلماء ؟

جعل لله تعالى العلماء أمنة للناس فإذا مضى العلماء بقى رؤساء جهال تقوم بهم الفتن وتتفرق بهم السبل ، وقد أخذ الله تعالى العهد على العلماء أن يعلموا الناس وأن يبينوا الدين ،كما أخذ الله تعالى العهد على الجهلاء أن يتعلموا . هكذا تعلمنا من علماء السلف رضوان الله عليهم ، وهذا مصداقاً لقوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ (1) [آل عمران : ١٨٧] ، فقد حذر رب العزة سبحانه وتعالى من كتمان العلم ، وأمر بقول الحق حتى يزول الجهل ، ويثبت الاعتقاد ، وتعلو السنن ، ولا يخاف فى الله تعالى لومة لائم .

وقد حذر الله تعالى من الشرك ، كما أمر ألا يتقول أحد عليه بغيرعلم ، أو يكذب بما لم يُحِط به ، هذه قواعد ضرورية بين يدى البحث ليستبين للقاصى والدانى أن من أعظم الفرى على الله تعالى أن يظهر الباطل بصوت الحق ، أو يطمس نور العلم والإيمان بأدلة شرعية أو آثار سلفية .

ولا يشك مسلم أن من بين كل قرن يخرج أقوام يستضاء بعلمهم ويقتدى بآثارهم يقولون كلمة الحق فى وقت الناس إليها أحوج ما يكون ، فإذا قيلت فى غيره ما انتفع بها الناس انتفاعهم بها فى هذا الوقت ، وكما يقولون للمواقف رجال .

وإن كان ولابد من مواجهة مع أهل البدع والأهواء فلا يمكن أن نغفل دور العلماء فى كبح جماح أهل الباطل وإحقاق الحق ، وإن لم يقم هؤلاء بدورهم فى ذلك فمن ؟! .

ولما كان للأزهر دور كبير فى توجيه الناس أردت أن أوضح قضية مهمة أرى من الواجب أن أظهرها حتى لا أنضم إلى جمع المقصرين فى الدعوة والبلاغ ، فقد رأينا أكثر الناس مقلدين لشيوخهم ، إما عن جهل ، وإما عن علم ، والإشكال فى التقليد أن يتصادم بأصول الدين وروح الشريعة .

والتقليد عندما يكون فى الاعتقاد فالمسألة أخطر ، ذلك لأن القطع بصحة أمر قد ركب على أهواء مصطنعة وعادات بالية لا يستقيم ، وإن كان الذى ينادى به أرفع الناس مكاناً وقدراً ، ولا شك أن ظهور التصوف أمر محدث وقد اختلف وقد اختلف الناس فيه ، غير أن أهل الحق لا يروج عليهم ما يروج على غيرهم .

ولا يشك باحث منصف أن للتصوف دوراً عظيماً فى توهين الأمة وإضعاف كرامتها بين الأمم ، وتعرضها لغارات الأمم الظالمة ، وإفساد دينها ودنياها أيضاً .

يقول الشيخ / مصطفى درويش – حفظه الله – : والصوفية هى التى علمت الملايين الخضوع والنفاق وهذا هو الدليل :

[١] جاء فى كتاب « الاستعمار الفرنسى فى إفريقيا السوداء » لفليب فونداى (ص ٥٢) : لقد اضطر حكامنا الإداريون وجنودنا فى إفريقيا إلى تنشيط الطرق الصوفية ؛ لأنها كانت أطوع للسلطة الفرنسية وأكثر تفهماً .

[٢] من كتاب « تاريخ العرب الحديث والمعاصر » تحت عنوان «المتعاونون مع فرنسا إلى الجزائر » (ص ٣٣٣) : ومنهم أصحاب الطرق الصوفية الذين أشاعوا الخرافات والبدع وبثوا روح الانهزامية والسلبية فى النضال واستخدمهم الاستعمار كجواسيس .

[٣] تفسير الشيخ طنطاوى (ص١٣٧ ، ١٣٨) : ذكر الفرنساويون فى صحفهم أن رجال الطرق الصوفية جميعاً يتمتعون بالعيش الهنيء فى ظلال جهل المسلمين وغفلتهم ، فمتى أكرمناهم وأنعمنا عليهم يكونون معنا .

[٤] من كتاب « المسألة الشرقية » لمصطفى كامل : ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان أن رجلاً فرنساوياً دخل فى الإسلام وسمى نفسه سيد أحمد الهادى وعُين إماماً لمسجد كبير فى القيروان ، فلما اقترب الجنود الفرنسيون من المدينة واستعد أهلها للدفاع عنها جاءوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ فى مسجد يعتقدون فيه ، فدخل الضريح ، ثم خرج مهولاً لهم بما سينالهم من المصائب ، وقال لهم : الولي ينصحكم بالتسليم ، وحدث مثل هذا عندما أغار الفرنجة على المنصورة .

[٥] فى الأهرام ١٩٧٠/٤/٧م كتب سفير السودان فى القاهرة مقالاً يحلل فيه السياسة البريطانية الاستعمارية فى السودان فقال : إن البريطانيين الاستعماريين وضعوا سياسة تقوم على أساسين ؛ الأول : كبت الحركات الوطنية الدينية بكل عنف . الثانى : إحياء الطرق الصوفية وإغداق الأموال على أهلها ، وخلع الألقاب والكساوى عليهم ، ولأن الثورة الوطنية فى السودان اتخذت طابعاً دينياً مستوحى من القرآن والسُّنة ، قام الإنجليز بإحياء الطرق الصوفية .

[٦] جاء فى كتاب « القاديانية » للدكتور / محمد إسماعيل : وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تكشف التجارب الصوفية فى كل من الهند وإيران عن ظهور نزعتين معاديتين للخط الإسلامى الصحيح ، وهما القاديانية فى الهند ، والبهائية فى إيران ، واستخدمها الاستعمار لتحقيق

مآربه .

[٧] من كتاب « نابليون بونابرت » للأستاذ أحمد حافظ (ص١٥٣) وما بعدها : وفى سنة ١٨٨٢م عندما دخل نابليون مصر استدعى الشيخ خليل البكرى وقلده نقابة الأشراف ، وأعطاه (٣٠٠٠ ريال فرنسى) ، وأمره بإمامة الموالد وحفلاتها ، واستطاع نابليون تجنيد بعض مشايخ الطرق الصوفية لترويج اعتناقه للدين الإسلامى ، واستعان بهم لتثبيت أقدامه فى مصر .

[٨] يحكى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن الثورة العرابية كيف أن الصوفية اندست بين جيش عرابى وإقامة حلقة ذكر حتى الفجر ، ثم ناموا بعد ليل طويل شاق ، فدخل الإنجليز فى الفجر .

[٩] فى كتاب « الجزائر العربية » بيّن المؤلف أن الاستعمار الفرنسى كان يشترى مشايخ الطرق الصوفية بالمال ليكونوا أدوات يخمد بها الثورات التحررية .

[١٠] وكتب أديب جزائرى عن الحركة الأدبية فى الجزائر ، أن رجال الطرق الصوفية شوهوا الدين وألبسوه لباساً مزرياً طبقاً لسياسة استعمارية قذرة .

[١١] يقول ألفونس رنييه فى كتابة باللغة الفرنسية : البعض كتب أن البدوى كان جاسوساً ، وكان أفاكاً ، وكان من كبار دعاة الشرك والضلال .

وكل ذلك لا يعنينا فى شيء ، ولا يغير من واقع ما يفعل به أن يكون غير ذلك ، فلو أن ما يفعل بنصب البدوى المدعى أنه قبره فعل بقبر نبى من الأنبياء فهو أيضاً شرك وكفر وإلحاد ؛ لأن فى عبادة غير الله يتساوى عابد البقر مع عابد الملائكة ، ترى هل يمكن أن يكون أصحاب الدين الصوفى وما يفعلونه

بالبدوى أحسن حالاً من أصحاب الدين النصرانى وما فعلوه بعيسى بن مريم وأمه .

والعجيب أن وزارة الأوقاف أصدرت فى الماضى كتيباً بعنوان : « تقاليد يجب أن تزول » ، وقال إنه من وضع مجموعة من كبار علماء الوزارة ، وقالوا فيه : لا يحل ستر الأضرحة والنذر لها ، وإقامة الموالد ، وتمر الأيام ونطالع فى الصحف تصريح وزارة الأوقاف بإقامة مولد سيدهم فلان وعلان ... وهكذا !! ، يحرمونه عاماً ويحلونه عاماً !! .

ويجب أن نفرق بين الثقافة والألقاب والشهادات والمناصب الرسمية وبين الإيمان الحقيقى والتوحيد المنزل من عند الله ، ودليل ذلك ما فعله الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه عن البدوى فى مقدمة هذا الكتاب ، فقال : إن الإذن أتاه من المقصورة المباركة بأن يكتب فكتب ، وقال نفس الشيء عن أبى الحسن الشاذلى ، وكما ادعى الشيخ حجاب - وهو من نقباء البدوى - فى كتابه عن حياة البدوى البرزخية أنه يعلم السر وأخفى من السر .

ونحن نقول : ليس للشهادات الدينية ولا المناصب سلطان على دين الله المُنزّل فى الكتاب والسُّنّة ، إنما السلطان لدين الله على الجميع .

ونقول : إن الذين وضعوا الأوثان فى بيت الله الحرام لتكتسب قداسة مع البيت ونسبوا أنفسهم لدين إبراهيم ، هم الذين وضعوها فى بيوت الله باسم الأولياء لخداع الناس ، ونسبوا أنفسهم لدين محمد ﷺ ، ويجب أن يفعل بها بما فعله رسولنا ﷺ عند فتح مكة ... وحسبنا الله ونعم الوكيل .

نعم فقد رأينا كيف أن الأزهر كمؤسسة تعليمية قد تحول إلى تكأة لنشر مذهب التصوف إما عن قصد وإما عن غير قصد .

والأصل أنه لزمن طويل قد مضى لم يكن فيه بين الأزهر والصوفية وفاق ، حتى يصير تكأة لنشر هذه السبل وتلك البدع .

وأستطيع أن أبرهن على ذلك مدعماً بالأدلة ، حتى لا يظن متقول مدفوع بنوع من الوهم – لما يراه خلاف ذلك فى هذه الأيام – أن ليس هناك من أنكر التصوف أو عاداه من علماء سابقين تبوءوا المكانة الكبرى فى مشيخة الأزهر ، بل ظهر فى الأزهر قديماً كمؤسسة شرعية من يعادى التصوف ويحاربه ؛ على اعتبار أن التصوف يعتمد على علم الحقيقة ، كأساس لبناء السلوك مع الله تعالى دون علم الشريعة .

وقد كان علماء الأزهر فى الزمن الماضى ينظرون إلى هذا العلم أى علم الحقيقة بنوع من التوجس والتخوف ؛ ويرجع ذلك إلى أنه قد نشأ أول ما نشأ فى بيوت الباطنية والقرامطة والشيعة ، الذين يبطلون ظواهر الأحكام الشرعية والتكاليف بمفاهيم غامضة باطلة ، لا يمكن التوفيق بينها وبينها وبين الأحكام الشرعية بحال ، وهذا هو السر الذى كان يدفع علماء الأزهر فى ذلك الزمان إلى محاربة التصوف ، وتحذير الناس منه بالطرق الرسمية وغير الرسمية ، حتى إنهم كانوا يرفضون رفضاً قاطعاً تدريس كتاب ككتاب الفتوحات لابن عربى وكذا كتاب الإحياء للغزالى فى أروقة الأزهر ، وإن كان الأزهر فى ذلك الزمان يدرس مناهج الفرق جميعاً على اختلاف ألوانها ، وإن كانت هذه المناهج مخالفة لمنهج أهل السُّنة والسلف الصالح .

ومن علماء الأزهر من ينتهج هذه المناهج ، ويدعو إليها لشبهات عارضة ، يظن أن النضال عنها هو حقيقة التنزيه ، بل قد يعتقد أنها حقيقة منهج أهل السُّنة ، إلا أن نظرهم إلى التصوف كان فيه نوع من الحذر لمخالفته لعلوم الشريعة ، التى كان يهتم بها الأزهر فى ذلك الوقت .

إضافة إلى أن فقهاء وأئمة المذاهب الأربعة الذين كان لهم الحظ الأوفر من الاتباع والتقليد من غالب علماء الأزهر لم يذكروا التصوف بخير - إما نتيجة لأنه لم يظهر فى أوساطهم وإما لما رأوا فيه من التكاسل عن طلب العلم ومعاداة أئمة الفقه والحديث خاصة - فأدى ذلك إلى تجاهل علماء الأزهر للتصوف وعدم الإطمئنان إليه .

يقول د / زكى مبارك فى كتاب التصوف (ص ٢٠٧) : فالأزهر لا يريد أبداً نشر الثقافة الصوفية ، ثم قال : وقد حدث فى العام الماضى « سنة ١٣٥٤هـ » أن فكرت مشيخة الأزهر فى مقاومة التصوف مقاومة رسمية ، وكتب فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى كتاباً فى ذلك إلى وزير الأوقاف السابق سعادة عبد العزيز بك محمد ، ولكن وقع أن رد عليه السيد عبد الحميد البكرى بجواب فيه عنف ، وكانت هذه المصاولة إحياء للاصطدامات القديمة بين الشريعة والحقيقة « انتهى » .

وقد كان هناك وجوه أخرى للاعتراض على التصوف عند علماء الأزهر وذلك من جهة ادعاء كثير من الصوفية عصمة الأولياء ، حيث يظنون فى شيوخهم القداسة ، التى تجوز وتعدل وتحكم وتشرع ، بناء على أن صاحبها له اتصال بالله تعالى ، لا يتسنى لأحدهم أن يصل إلى مثله ، فيأخذ بقول الشيخ ويدع ما دونه ولو كان مخالفاً للكتاب والسُنة ، ويقول مقولة أبى زيد البسطامى : « حدثنى قلبى عن ربى » بينما ينعى علماء الحديث أنهم أخذوا أحاديثهم ميتاً عن ميت .

ولا يدرى هو أن الذى حدثه إنما هو شيطان ، ولا يدرى أيضاً أنه لولا علماء الحديث ما عرف هو ولا غيره عن الإسلام شيئاً .

إن هذا المفهوم الذى تغشى غالب الطوائف الصوفية من أعظم أسباب نشر البدع والضلالات فى المجتمعات الإسلامية ، وهذا هو معتقد القرامطة والشيعة من قبل .

يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر السابق فى كتاب أسباب البدع (ص ٤٥) : يرجع ذيوع البدع وانتشارها بين الناس إلى أمرين شديدى الخطر على سلامة الدين من التحريف والزيادة والنقص : أولهما : اعتقاد العصمة فى غير المعصوم ، والآخر : التهاون فى بيان الشريعة على الوجه الذى به نقلت عن الرسول ﷺ ، وكثيراً ما ترى الأول فيمن ينتسبون إلى طرق التصوف وأنهم يقرءون عن شيخ طريقتهم شيئاً من الأحوال التى تنافى أحكام الشريعة فيعتقدون أنها من التشريع الذى خص الله به عباده المقربين ، وأن شيخهم لا يفعل إلا حقاً ، ولا يقول إلا صدقاً ، والفقه للعموم وهذه طريقة الخصوص ، فيتبعونه فى كل ما يؤثر عنه من قول أو فعل على أنه الطريق المقرب إلى الله ، الموصل إلى رضاه « انتهى » .

وهذا وجه آخر يظهر فيه مدى تصدى شيوخ الأزهر للغلو فى الفكر الصوفى الفلسفى الوارد إلى بلاد المسلمين عن طريق ابن عربى والحلاج وغيرهم .

يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية سابقاً فى مقدمة كتاب رسالة المسترشدين وهو يتكلم عن التصوف المنتحل « فهو يرى أن التصوف محمود من جهة الزهد والأخلاق، أما خلاف ذلك فهو زندقة وكفر ، وفى الحقيقة إن الاعتراض على مسمى التصوف لا يزال قائماً فى كلا الحالين لاستغناء الناس عنه بمسمى الإسلام واشتمال الإسلام على منافع الدنيا والآخرة ، وكون التصوف مدخلاً لفساد الدين والدنيا » .

فيقول ما نصه : وهناك تصوف زائف انتحله قديماً فئام من الناس ، أشربوا تعاليم الباطنية الحلولية ، وتدثروا بدثار الصوفية اجتذاباً للعامة ، وتغريرا وخداعاً وتلبيساً ، ودسوا فى التصوف إلحادهم ومقالتهم الشنيعة فى الدين إضلالاً للمسلمين ... إلى أن قال : وقد كشف خبثهم وفند مزاعمهم وأبطل تصوفهم كثير من الأئمة ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم – رضى الله عنهما – « انتهى » .

أما تحذير شيوخ الأزهر من الموالد وصناديق النذور ودعاء غير الله والغلو فى الصالحين فهذا كثير فى فتاوى شيوخ الأزهر السابقين .

فهذا الشيخ علي محفوظ فى كتاب الابداع فى مضار الابتداع يبين أن الموالد بدعة وليست سُنة وأن الذى أحدثها فى مصر الفاطميون وفى الشام الملك المظفر أبو سعيد فى القرن السابع ثم قال : وقد استمر العمل بالمولد إلى يومنا هذا ، وتوسع الناس فيها وابتدعوا بكل ما تهوى أنفسهم، وتوحيه إليهم شياطين الإنس والجن ، ولا نزاع فى أنها من البدع . « انتهى » .

انظر إلى قوله – رحمه الله تعالى – : « **ولا نزاع فى أنها من البدع** » ، أى بين علماء الأزهر فى عصره .

فلم يتأول أذواقهم الفاسدة ولا خيالتهم المريضة على حساب الدين والشريعة والسُنة ، وإنما بين الحق نجاة لنفسه من الإثم وخلاصاً من مداهنة أهل الزيغ والضلال .

وأنا أبين ذلك هنا حتى لا يغتر أحد ببعض الأفعال التى ترى من بعض الشيوخ المنتسبين إلى الأزهر فى هذه الأيام ومشاركتهم الصوفية فى هذه البدع المخالفة لما كان عليه الرعيل السابق دون نصيحة أو إنكار – كالاحتفال بالموالد والأعياد الغير شرعية ، والغلو فى مكانة النبى ﷺ ورفعه فوق المنزلة التى أنزله الله

تعالى إياها ، والقول أنه أول مخلوق ، وأن الكون خلق لأجله .

وقد علم أنه رسول لا يكذب وعبد وليس برب ، وأنه أشهر مكتوب وليس أول مخلوق ، وأن الله تعالى خلق السموات والأرض لبيان عظيم إحاطته بالأمور علماً وتقديراً ، وأنه لا يعجزه شيء كما بين في كتابه من سورة الطلاق حيث قال عز ذكره : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** (١٢) ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وأيضاً شاركوهم في الغلو في مكانة الأولياء ، وقد علم كل من له علاقة بالتوحيد أن الغلو في الصالحين-كان أول شرك وقع من بني آدم في الأرض - وعندما يرى ضعفاء الدين ذلك منهم حالاً أو مقالاً يظنون أن هذا هو الحق الذي لا معارض له .

والحقيقة أن شيوخ الأزهر قديماً كانوا في نقد بدع الصوفية أشداء أقوياء وعلى وجه لا مثيل له الآن إلا في قلة منهم .

ألا فليتق الله من حمل أمانة نقل العلم ، ولا يجعل ظهره قنطرة للشرك والبدعة ؛ فيحمل وزر نفسه ووزر من أفسد عقله وقلبه ودينه ودنياه ، فما نضاله إلا في أهواء مصطنعة ورهبانية مبتدعة .

فصراط الله واحد « قال الله قال الرسول قال الصحابة » فلا خيالات فلسفية ولا أذواق صوفية ولا منامات شيطانية ، ولا أهواء عقلية ، فهذه كلها صُرط متعددة على كل صراط منها شيطان يدعو الناس إليه كما أخبر الحبيب المصطفى ﷺ في حديث ابن مسعود الذي أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : « **خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ، ثم قال :**

هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهـذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعـو إليه ، ثم قـرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وبعد هذه الموعظة النبوية أليس منكم رجل رشيد فيأخذ بحجز من ضل فى التوحيد ليرده إلى صراط الله المستقيم ؟ ، أليس فيكم من مثل أبى بكر إذ أقسم وتوعد من منع ما يساوى درهمين كانت تؤدى إلى رسول الله ﷺ ؟ ، أليس منكم من مثل أحمد لما ناضل فى إثبات صفة من صفات الله تعالى ، وهى صفة الكلام حتى صار إماماً لأهل السُنة والجماعة ؟ ، أليس منكم من يقوم بمناظرة أهل الباطل وكبح جماحهم انتصاراً للدين وحفظاً للتوحيد ، حتى لا يبقى للدجل وللشعوذة مكاناً كما فعل ابن تيمية مع الرفاعية البطائحية فصار شيخاً للإسلام مبجلاً ؟ ، أليس منكم كأبى الحسن الأشعرى فيخلع ما يغضب الرحمن من مذاهب كما خلع هو مذهب المعتزلة إلى مذاهب ابن كلاب ثم إلى مذهب الإمام أحمد وأهل الحديث ؟ ، كما أشار بذلك فى كتابيه مقالات الإسلاميين والإبانة ، وكما شهد بذلك أصحابه وتلامذته ، أليس منكم من يريد الله والدار الآخرة فينصر السُنة ويقمع البدعة رجاء بياض الوجه وسلامة القلب ؟ .

اللهم احفظ لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا يارب العالمين ، اللهم آمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المباهلة والملاعنة والفراق

المبـاهلة : نهاية سبيل أهل الحق فيمن لا رجاء فيهم ، من أهل البدع والضلال .

والمباهلة والابتهال : الاجتهاد فى الدعاء باللعن يقال : باهل بعضهم بعضاً : اجتمعوا فتداعوا فاستنزلوا لعنة الله على الظالم منهم و « ابتهل » إلى الله : تضرع واجتهد فى الدعاء (المعجم الوجيز ص ٦٥) .

والمباهلة ذكرت فى ثلاثة مواضع فى القرآن :

الموضع الأول : فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٦) ﴾[الجمعة : ٦] فهذه نزلت فى مباهلة اليهود .

الموضوع الثانى فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا** ﴾ [مريم : ٧٥] وهذه مباهلة المشركين (قاله ابن جرير الطبرى) .

قال ابن كثير (١٣٦/٣) تعليقاً على هاتين الآيتين : وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه ، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٦) ﴾ أى أدعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق ، فإنه لا يضركم الدعاء ؛ فنكلوا عن ذلك (انتهى) .

قال ابن كثير (١٢٨/١) : ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ** ﴾ [البقرة :١١١] دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين

منهم أو من المسلمين ، فلمـا نكلوا عن ذلك علم كل أحـد أنهم ظالمون ؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم ، وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة . (انتهى) .

الموضع الثالث : كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) ﴾ [آل عمران : ٦١] ، وهذه مباهلة النصارى ، وفى السنة أن النبى ﷺ دعا نصارى نجران إلى المباهلة ، لما خاصموه فى شأن عيسى فأبوا .

قال القرطبى – رحمه الله تعالى – فى (التفسير ١٤٥٣/٢) : هذه الآية من أعلام نبوة محمد ﷺ ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجزية ، بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادى ناراً ، فإن محمداً نبى مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى ، فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم . (انتهى) .

قال ابن حجر فى (الفتح ٦٩٦/٧ ، ٦٩٧) : قال ابن سعد : دعاهم النبى ﷺ إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فامتنعوا ، فقال : « إن أنكرتم ما أقول فهلمّ أُباهِلْكُمْ ، فانصرفوا على ذلك » .

ثم قال ابن حجر : وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب ، وقد تجب إذا تعينت مصلحته . وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة . وقد دعا ابن العباس إلى ذلك ثم الأوزاعى ووقع ذلك لجماعة من العلماء. ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضى عليه سنة من يوم المباهلة . ووقع ذلك لى مع شخص كان يتعصب لبعض الملاحدة فلم يقم بعدها شهرين . (انتهى) .

ذكر مباهلة الحافظ ابن حجر مع الاتحادى :

يقول الحافظ شهاب الدين ابن حجر : جرى بينى وبين بعض المحبين لابن عربى منازعة كثيرة فى أمر ابن عربى ، حتى تبرأت من ابن عربى بسوء مقالته - وهذا هو الملحد الذى يقصد ابن حجر - فلم يسهل ذلك بالرجل المنازع لى فى أمره ، وهددنى بالشكوى إلى السلطان بمصر بأمر غير الذى تنازعنا فيه يتعب خاطرى ، فقلت له : ما للسلطان فى هذا مدخل ، إلا تعال نتباهل وقلت : ما تباهل اثنان فكان أحدهما كاذباً إلا وأصيب ، فقال لى : باسم الله قال : فقلت له : قل اللهم إن كان ابن عربى على ضلال فالعنى بلعنتك ، فقال ذلك : فقلت أنا : اللهم إن كان ابن عربى على هدى فالعنى بلعنتك وافترقنا .

قال : وكان سكن الروضة فاستضافه شخص من أبناء الهند جميل الصورة ، ثم بدا له أن يتركهم وخرج فى أول الليل مصمماً على عدم المبيت ، فخرجوا يشيعونه إلى الشختور ، فلما رجع أحس بشىء مر على رجله فقال لأصحابه : مر على رجلى شىء ناعم فانظروه فنظروا فلم يروا شيئاً ، وما رجع إلى منزله إلا وقد عمى وما أصبح إلا ميتاً ، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة سبع وسبعين ، وكانت هذه المباهلة فى رمضان منها ، **وعند وقوع المباهلة عرفت أن السنة ما تمضى عليه ، وكانت بمحضر من جماعته** . (غاية الأمانى ٢/٣٧٤) .

فهذه المباهلة سلاح كل مؤمن واثق بربه ، عالم بسنة رسوله ﷺ ، يعلم أن نواصى العباد بيديه سبحانه وتعالى ، وأنه تعالى لا يخلف وعده فى نصره أوليائه ، وأنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فمن تخاصم في الحق بعدما تبين له .. دعي إلى المباهلة والملاعنة : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٨] ، فإذا انتهت الآمال وخابت الظنون في الرجوع إلى الحق والالتزام به صارت المباهلة ضرورية ، وذلك مع كل معاند ضال .

الخاتمة :

فالحمد لله على توحيده ، وأشكره على حُسن توفيقه وتيسيره .

وبعد :

فغاية هذا البحث إيضاح أصول أهل السُنة والجماعة فى الاعتقاد الصحيح فى الله تعالى ودينه ورسوله محمد ﷺ ، والتى يُسأل عنها المرء أول ما يُوضع فى قبره ويُغلق عليه بابه .

وقد انتهيتُ من هذا المختصر فى يوم الاثنين الموافق ١ محرم ١٤٢٢هـ ، الموافق ٢٦ مارس ٢٠٠١ . فاللهم تقبله منى ، واجعله فى رضاك ، وثبتنا على التوحيد ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، واغفر اللهم لنا ولوالدينا وإخواننا فى الله تعالى اللهم آمين ، واجز اللهم شيخنا الجليل العلامة / سعد عبد الرحمن ندا خير الجزاء على حبه للتوحيد ولدعاة التوحيد ، وبارك اللهم له فى عمره وأحفاده ، كما أسأل الله تبارك وتعالى أن يجزى خير كل من عاون بنصيحة وكتاب ، ومن نشر هذا الكتاب لينتفع به [اللهم آمين] ، وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه

علي بن السيد الوصيفي أبو خالد

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المراجــع

- القرآن الكريم .
- اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة أصحاب الجحيم ، ابن تيمية ، مطابع المجد .
- اعتقاد أئمة الحديث ، أبو بكر الإسماعيلى .
- الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ، عبد العزيز المحمد السلمان ، إهداء جامع منصور الشعبى - رحمه الله - ، جده الطبعة الثامنة عشر .
- الإبداع فى مضار الابتداع ، علي محفوظ .
- الاستقامة ، ابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، ١٤٠٣هـ .
- تاريخ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربى، دار الكتاب اللبنانى .
- تجريد التوحيد المفيد ، تقى الدين المقريزى ، مركز الكتاب ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م .
- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ، محمد ناصر الدين الألبانى .
- تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن كثير القرشى ، ط . دار الفكر العربى .
- تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن ، شمس الدين أبى عبد الله محمد ابن فرج القرطبى ، المكتبة القيمة .
- تفسير الطبرى ، محمد بن جرير الطبرى ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢- ١٤١٢هـ .
- تهذيب مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، عبد المنعم صالح العلى ،

المكتبة القيمة .

- التفسير القيم ، أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقى ، مكتبة ابن تيمية .
- تلبيس إبليس، أبى الفرج بن الجوزى ، طبع محمد منير الدمشقى، الطبعة الثالثة ٢.
- تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدى ، الجامعة الإسلامية .
- تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، المكتب الإسلامى .
- جامع العلوم والحكم ، زين الدين أبى الفرج أحمد بن رجب الحنبلى ، دار المنار .
- الجامع الفريد ، أئمة الدعوة الإسلامية ، دار الأصبهانى .
- اجتماع الجيوش الإسلامية ، ابن قيم الجوزية ، مكتبة ابن تيمية ١٤٠٨-١٩٩٨م .
- غاية الأمانى فى الرد على النبهانى ، محمود شكرى الألوسى ، دار إحياء السُّنَّة النبوية .
- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء ، جمع أحمد الدويش ، طبع ونشر الرئاسة العامة للبحوث لإداراة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية .
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، مكتبة الإيمان ١٤١٧-١٩٩٦ .
- فتاوى العقيدة ، محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - مكتبة السُّنة .

- الفتاوى الكبرى ، ابن تيمية .
- قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ، ابن تيمية الحرانى ، المطبعة السلفية ، ١٣٩٦هـ .
- القول المفيد على كتاب التوحيد ، محمد بن صالح العثيمين ، دار العاصمة ١٤١٥هـ .
- كتاب التوحيد ، صالح بن فوزان الفوزان .
- كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، عبد الرحمن محمد بن قاسم ، مكتبة ابن تيمية ، الطبعة الثالثة .
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس ، إسماعيل بن محمد العجلونى ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٨ ، ١٤٠٨ .
- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، محمد فؤاد عبد الباقى ، دار الريان للتراث .
- الهدية الهادية للطائفة التيجانية ، محمد سليم الهلالى ، البحوث العلمية والافتاء ١٩٨٧ .
- مختصر معارج القبول لحافظ أحمد حكمى ، هشام عبد القادر آل عقدة ، دار الصفوة ١٤١٣-١٩٩٢ .
- مدارج السالكين ، أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقى ، دار الأندلس المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، مجموعة من المستشرقين ، مكتبة بريل ، طبعة ١٩٣٦ .
- المنتقى من أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة اللاكائى ، محمود بن

منصور ، مكتبة الصحابة .

- هذه هى الصوفية ، عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب العلمية ١٩٨٤ .
- حوار مع المالكى ، عبد الله بن سليمان بن منيع ، مطابع الفرذدق ١٤٠٣-١٩٨٣ .
- الحاوى من فتاوى الشيخ الألبانى ، أبو همام المصرى ، العلمية .
- دعوة الحق ، عبد الرحمن الوكيل ، دار أم القرى ١٤١٨-١٩٩٧ .
- الدرر السنية فى الأجوبة النجدية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم القحطانى ، ١٤١٣ ، ١٩٩٢ .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألبانى ، مكتبة المعارف ، ١٤١٢-١٩٩٢ .
- سلسلة الأحاديث الموضوعة والضعيفة ، محمد ناصر الدين الألبانى ، مكتبة المعارف ، ١٤١٢-١٩٩٢ .
- شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبى العز الحنفى .
- شرح كشف الشبهات ، محمد بن صالح العثيمين ، دار الثريا ، ١٤١٦-١٩٩٦ .
- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخارى عبد الله بن محمد العتيمان ، هجر للطباعة ١٤٠٩ - ١٩٨٨ .
- صحيح البخارى ، محمد إسماعيل البخارى ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، دمشق .
- صحيح الجامع الصغير ، محمد ناصر الدين الألبانى ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠٨ .
- صحيح ابن حبان ، تحقيق شعيب الأرناؤوط .

- صحيح مسلم،مسلم ابن الحجاج النيسابورى، دار إحياء التراث العربى،١٩٧٢ .
- صحيح سنن أبى داود ، محمد ناصر الدين الألبانى، مكتب التربية العربى، ١٤٠٩ .
- صحيح سنن ابن ماجة ، محمد ناصر الدين الألبانى ، مكتب التربية العربى ١٩٨٩ .
- صحيح سنن النسائى ، محمد ناصر الدين الألبانى ، مكتب التربية العربى، ١٩٨٨ .
- صحيح سنن الترمذى ، محمد ناصر الدين الألبانى ، مكتب التربية العربى، ١٩٨٨..
- الصارم المنكى فى الرد على السبكى، محمد بن عبد الهادى ، دار الفرقان.
- ضعيف الجامع الصغير ، محمد ناصر الدين الألبانى ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠٨ .
- عقيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ، صالح بن عبد الرحمن العبود ، الجامعة الإسلامية ، ١٤٠٨ .

الفهرس

رقم الصفحة

- رسالة من العلامة الدكتور سعد عبد الرحمن ندا إلى الشيخ عليّ السيد الوصيفى ٥
- مقدمة العلامة الدكتور سعد عبد الرحمن ندا حفظه الله ١٣
- مقدمة المؤلف حفظه الله ٢٤

الباب الأول : تعريف التصوف واشتقاقه : ٣٦

- التصوف لغة ٣٦
- التصوف اصطلاحاً ٣٧
- الصوفية والزهد ٤١
- الزهد فى الجنة ٤٣
- أردأ نظرة للصوفية ٤٤
- الزهد فى العلم والسُنة ٤٥
- لماذا اختار الصوفية نبذ العلم والعلماء ؟ ٤٥
- مظاهر نبذ العلم عند الصوفية ٤٩
- أولاً : الاعتماد على الذوق ٤٩
- ثانياً : الاعتماد على الإلهام ٥١
- ثالثاً : الاعتماد على الآثار الموضوعة والأحاديث الضعيفة ٥٣
- وصية وتذكرة ٥٣

- رابعاً : التقلد بالشطحات والتقعر بالرموز ٥٨
- ما الدافع عند الصوفية وراء تلك الرموز ٥٩
- حكم رموز الصوفية ٦١
- بغض الصوفية للفقهاء ٦٤
- ابن تيمية والصوفية ٦٥
- الصوفية يشكون ابن تيمية للسلطان ٦٨
- مناظرة ابن تيمية للرفاعية البطائحية ٧٠
- أمر عجيب !!! ٧٣
- شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وصراعه مع عباد القبور. ٧٦
- سهام خصوم التوحيد ترد في نحورهم ٨١
- عقيدة الإمام ٨٥
- تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام ٩٠
- التوحيد عند الصوفية ٩٣

الباب الثاني : مصدر التصوف ووسائله : ١٠٠

- تشرب الصوفية من الفرق والملل المخالفة للإسلام ١٠٠
- دفاع الصوفية والرد عليه ١٠٣
- أسس البناء الصوفي ١٠٥
- أولاً : الجوع والسهر ١٠٥
- ثانياً : الخلوة ١٠٦
- من شحطات الخلوة ١١٠

- ثالثاً : السماع والرقص ١١٠
- ومن أعظم البدع تفضيل السماع على القرآن !! ١١٣
- رابعاً : الذِّكر ١١٦
- ملامح الذكر الصوفى ١١٧
- كيفية الذكر الصوفى ١١٩
- للصوفية أذكار مخصوصة ١٢١
- الذكر بالإسم المفرد ١٢٣
- النفى والإثبات ١٢٤
- الذكر بالإسم المبهم ١٢٥
- الذكر المجهول ١٢٥
- الذكر الإلحادى ١٢٦
- التنطع والتكلف ١٢٧
- أعجب العجب ١٢٧
- خامساً : الارتباط بالطريقة وشيخها ١٢٨
- نتائج التربية الصوفية ١٢٩

١ – فراغ قلوب السالكين من كل شيء إلا من شيوخهم ١٢٩

٢ – قتل المواهب ودفن القدرات واحتقار النفس وأمثلة ذلك : ١٣٠

- كيف تتعلم الإخلاص عند الصوفية ؟ ١٣١
- كيف تتعلم التواضع عند الصوفية ؟ ١٣١

٣ – تحميل المريد محالات لا يستطيع فهمها أو الوفاء بها ١٣٢

- وأخيراً : المقارنة بين التربية عند أهل السُنة والتربية عند الصوفية ١٣٤
- بداية ظهور الفرق الصوفية ١٣٥
- طرق الدعوة إلى الشيوخ والطريقة ١٣٩
- ترويج الشرك بمحبة أهل البيت ١٤٠
- حكم الصلاة خلف غالطى الصوفية كالتيجانية وغيرهم ١٤٠

الباب الثالث : مقاصد الصوفية : ١٤٥

- أولاً : اللقاء مع الخضر عليه السلام ١٤٥
- أدلة ممات الخضر عليه السلام ١٤٧
- هل أمة محمد ﷺ فى حاجة إلى علوم الخضر ؟ ١٤٩
- ثانياً : رؤية الرسول عليه الصلاة والسلام فى اليقظة ١٥٠
- بطلان قصة تسليم النبى ﷺ على الرفاعى بإخراج يده له من القبر ١٥١
- فساد قول من زعم رؤية الرسول ﷺ فى اليقظة بعد مماته ١٥٢
- النبى ﷺ لا يخرج من قبره إلى يوم القيامة ١٥٤
- ثالثاً : معرفة الأسرار والإطلاع على الغيب ١٥٦
- الغيب لله ١٥٦
- الصوفية والغيب ١٦٠
- تعقيب مهم ١٦١
- لماذا لم يبلغ الصوفية درجة الكمال فى المقامات والأحوال؟ ١٦٢

- الوصول عند ابن سبعين ١٦٣
- الصوفية والأسرار ١٦٤
- رابعاً القدرة على تصريف شئون الكون ١٦٦
- الصوفية والكرامات ١٦٩
- أعجب كرامة للصوفية ١٧٠
- ماذا حدث فوق قبة البدوى ١٧١
- خامساً : الفناء والعشق ١٧٢
- بلوغ الفناء ١٧٢
- تعريف الفناء لغة ١٧٢
- الفناء عند الصوفى ١٧٢
- كيف يصل الصوفى إلى هذا الحال ؟ ١٧٣
- إذا كانت رؤية الله تتأتى بمجرد المجاهدات ، فلماذا لم ير موسى ربه مع عظم مجاهداته ؟ ١٧٥
- الله لا يرى بالعين إلا فى الآخرة ١٧٦
- حكاية سخيفة ١٧٧
- ٢ – التغنى بمقام العشق ١٧٨
- العشق عند الصوفية هو الجامع المشترك بين الأديان والملل . ١٧٨
- اعتراض ابن الجوزى على معنى العشق ١٧٩
- العشق مرض نفسانى ١٧٠
- الحب والخوف والرجاء أكمل درجات الإيمان ١٨٠

- الحب عند أهل السُنة ١٨٢
- أهل السُنة يحبون الله لذاته ولا يحبون غيره إلا بسببه ورضاه وأمره ١٨٣

الباب الرابع : بدع الصوفية : ١٨٦

- وحدة الوجود والحلول والاتحاد ١٨٨
- ابن عربى ووحدة الوجود ١٩٠
- فساد دعوى الاتحادية [إثبات العلو والمباينة] ١٩١
- الدليل العقلى على بطلان القول بوحدة المظاهر ١٩٦
- فساد نهاية القائلين بوحدة الوجود ١٩٨
- أبو يزيد البسطامى والاتحاد ١٩٩
- الحسين بن منصور الحلاج والحلول ٢٠٠
- حقيقة الحلاج ٢٠١
- قول الأئمة فى الحلاج ٢٠٥
- نهاية الحلاج ٢٠٦
- شبهات الحلوليين ٢٠٧
- التفسير الفاسد لقوله تعالى عن آدم ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)** ﴾ ٢٠٧
- ضلال ملاحدة الحلوليين فى عدم فهم حقيقة المضاف إلى الله تعالى من الأفعال والصفات ٢٠٧
- الرد العقلى على الحلوليين ٢١٢

- الحقيقة المحمدية ٢١٤
- ما المقصود بالحقيقة المحمدية ؟ ٢١٤
- محمد بشر رسول لم يمد الأنبياء من قبله بشيء . كيف ذلك ولم يكن يعرفهم على التفصيل ؟ ٢١٧
- بطلان قول ابن عربى : إن النبى أعطى القرآن مجملاً ٢١٨
- تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ ﴾ . ٢١٨
- أول ما خلق الله نورى ليس له إسناد يعتمد عليه ٢١٩
- كنت أول النبيين فى الخلق . موضوع ٢١٩
- الغلو فى الصالحين ٢٢١
- ما معنى الغلو ٢٢١
- قوم نوح عليه السلام .أول من فتحوا باب الغلو ٢٢١
- تفضيل الأولياء على الأنبياء من الغلو ٢٢٣
- شيعة الخمينى والغلو فى الأولياء ٢٢٤
- من الولى ؟ ٢٢٥
- يونس بن متى والأولياء ٢٢٦
- الصديق أعظم الأولياء على الإطلاق ٢٢٧
- بقاء مقام الولاية إلى قيام الساعة ٢٢٨
- التشفع بالأموات ٢٢٩
- الشفاعة لغة واصطلاحاً ٢٢٩
- ثبوت الشفاعة عند أهل السنة ٢٢٩

- الشفاعة الشرعية للموحدين ٢٢٩
- النبى لا يملك المغفرة ولا تكون الشفاعة له إلا بإذن الله تعالى. ٢٢٩
- الشفاعة المنفية شفاعة الكفار ٢٣٠
- طلب الشفاعة من الأموات شرك أكبر وليس شركاً أصغر كما يظن بعضهم ٢٣٢
- أكبر شبهات الصوفية فى طلب الشفاعة من الأموات ٢٤٠
- مسألة السماع ٢٤٠
- التفسير الفاسد لقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾ ٢٤٣
- الاستغاثة بالأموات ٢٤٧
- الاستغاثة لغة واصطلاحاً ٢٤٧
- الاستغاثة بمخلوق فيما يقدر عليه وهى جائز ٢٤٧
- استغاثات صوفية ٢٤٩
- هل الأموات يغيثون الأحياء ؟ ٢٥٠
- قدرة الأرواح ٢٥١
- شبهات الصوفية فى الاستغاثة بالأموات والغائبين ٢٥٥
- الشبهة الأولى ٢٥٥
- الشبهة الثانية : الرد على حديث يا عباد الله احبسوا ٢٥٧
- الشبهة الثالثة ٢٦٢
- الشبهة الرابعة ٢٦٤

- العبادات لا تؤخذ بالتجارب ٢٦٥
- النذر والذبح لغير الله ٢٦٦
- النذر لغة واصطلاحاً ٢٦٦
- النذر الشرعى لا ينفع ولا يدفع فكيف بالنذر الشركى ٢٦٦
- النذر للأموات شرك فى ثلاثة مواضع ٢٦٧
- تعظيم سدنة المشاهد للنذور ٢٦٨
- النهى عن الوفاء بالنذر فى موضع يدعى فيه غير الله ٢٦٩
- كيفية التصرف فى أموال النذور ٢٧١
- التبرك بالأعتاب والمشاهد ٢٧٢
- التبرك فى اللغة ٢٧٢
- البركة من الله ٢٧٢
- لا يجوز التبرك بآثار الصالحين ٢٧٤
- البركة فى دعاء الصالحين ٢٧٥
- بدعة الموالد ٢٧٧
- مكانة السُنة عند السلف ٢٧٧
- أوجه الضلال فى الموالد ٢٧٨
- الصوفية واكتشاف الحشيش ٢٨١
- الصوفية وصحبة المردان ٢٨٣
- الصوفية وخلة النسوان ٢٨٤
- التوسل بجاه الصالحين ٢٨٦

● الحديث الأول ٢٩٢

● الحديث الثانى ٢٩٣

● الحديث الثالث ٢٩٥

● بناء المساجد على القبور وشد الرجال إليها ٢٩٧

● سد ذرائع الشرك ٢٩٧

● نهى أن يتخذ عليها السرج وأن يصلى إليها وفيها ، وأن يبنى عليها المساجد ٢٩٨

● شبهات الصوفية ٣٠١

● الشبهة الأولى : دخول الحجرة النبوية المسجد النبوى ٣٠١

● الشبهة الثانية : بناء المسجد على الكهف ٣٠٢

● متى ظهرت المشاهد فى بلاد المسلمين ٣٠٤

● لمصلحة من بنيت المشاهد فى ديار المسلمين ؟ ٣٠٥

● نهى أن تشد الرحال إلى المقابر ٣٠٥

● الصوفية والمقابر ٣٠٦

● من لهذه الفتنة ؟ ٣٠٧

● إسقاط التكاليف الشرعية ٣١٠

● مداخل الصوفية فى إسقاط التكاليف ٣١٠

❏ طريق من قال : بالحلول والاتحاد ٣١٠

❏ طريق من قال : حدثنى قلبى عن ربى ٣١٠

❏ طريق الملامتية ٣١٣

- طريق من قال بالفناء فى الربوبية ٣١٣
- إنكار الجنيد بن محمد على القائلين بإسقاط التكاليف ٣١٥

الباب الخامس : جدال الصوفية : ٣١٦

- ضرورة مواجهة أهل البدع ٣١٧
- المناظرة فى الإصلاح بين الطوائف [مناظرة ابن عباس للخوارج] ٣٢١
- أين دور العلماء ؟ ٣٢٣
- المباهلة ٣٣٤
- مباهلة ابن حجر للاتحادى ٣٣٦
- الخاتمة ٣٣٨
- المراجع ٣٣٩
- الفهرس ٣٤٤

صدر حديثا من مطبوعات دار الإيمان

❑ مصطلح الحديث	محمد بن صالح العثيمين
❑ الأصول من علم الأصول	محمد بن صالح العثيمين
❑ أصول في التفسير	محمد بن صالح العثيمين
❑ مكارم الأخلاق	محمد بن صالح العثيمين
❑ شرح الأصول الثلاثة	محمد بن صالح العثيمين
❑ شرح كشف الشبهات	محمد بن صالح العثيمين
❑ دعوة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية	أحمد القطان
❑ إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب	أحمد القطان
❑ هارون الرشيد الخليفة المظلوم	أحمد القطان
❑ جلسة على الرصيف	سلمان بن فهد العودة
❑ من أخلاق الداعية	سلمان بن فهد العودة
❑ التوحيد أولاً	ناصر بن سليمان العمر
❑ أخطاء شائعة يقع فيها الأزواج	عادل فتحى عبد الله
❑ أخطاء شائعة تقع فيها الزوجات	عادل فتحى عبد الله
❑ كيف تصبح أبًا ناجحًا	عادل فتحى عبد الله
❑ تنبيهات مهمة للمرأة المسلمة العصرية	محمد حامد محمد

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون: ٥٤٤٦٤٩٦